الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

٥٩٧
٩٠٩

صورة فنّ الحرب في أدب الدولتين الزنكيّة والأيّوبيّة في مصر والشّام

دراسة قام بها
نـزار وصـفـي الـلّـبـدي

٧٨
٩٥٨
عميد كلية الدراسات العليا

إشـــراف
الأستاذ الدكتور محمود ابراهيم

قُدّمت هذه الرّسالة تحقيقاً لمتطلبات درجة الدكتوراه في اللّغة العربيّة وآدابها من كلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنيّة

آب ١٩٩٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ١٩٩٢/٨/١٥ وقد تمّت إجازتها :

١. رئيس اللجنة (الأستاذ المشرف) الدكتور محمود ابراهيم

٢. الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة

٣. الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري

٤. الأستاذ الدكتور إحسان عبّاس

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تمهيد
في مصادر هذه الدراسة

يستطيع دارس هذا الموضوع (صورة فنّ الحرب) في عصر ما ، ولنقل هنا عصر الدولتين : الزنكية والأيوبيّة ، أن يستمدّ معلوماته وأحكامه من أربعة أنواع من المصادر ، تترتّب - حسب صلتها الوثيقة بالموضوع - على النحّو الآتي :

١ ـ المؤلّفات التي تتناول فنّ الحرب مُباشرةً ، وهذه نوعان :

(أ) الكتب والرسائل التي تتناول القواعد الحربية والعسكريّة : وهي وإن كانت تجنَح إلى التنظير فإنها تقوم على أساس عمليّ ، أي على تجارب ثبت أنّ لها دوراً ايجابياً في الخطط والمواقف الحربيّة ، ومنها نَماذجُ عند أُمم مختلفة، وقد شهر منها عند الرّوم (البيزنطيّين) كتابان، وهما كتاب (ستراتيجكون) (Strategicon) من تأليف الامبراطور موريقي (Mourice) حوالي ٥٨٠م ، وكتاب (تاكتيكا) (Tactica) لليون الحكيم (٨٨٦ - ٩١٢م) .

وعند العرب نماذج كثيرة من هذه المصادر أُلّفت على مَرّ الزّمن ، لَعَلّ أقدمها رسالة عبدالحميد الكاتب ★ التّي كتبها على لسان مروان بن محمد آخر خليفة أمويّ إلى ابنه عبيدالله ولّي العهد (١) . ويدلّ اعتماد المؤلّفات التالية عليها - حتّى عصر المماليك - أنّ كثيراً من الأحكام الواردة فيها ظلّت قواعد أساسيّة في فَنّ الحرب ، ولم تتضاءل قيمتها كثيراً . وقد أُتيح لعبدالحميد أن يبني رسالته على أسس مستمدّة من تجارب مُتنوّعة ، إذ يبدو أنّ قسماً منها مستوحى من تجارب خليفة محارب (أعني مروان بن محمد) مع تجارب عربيّة اسلامية أخرى ، ومن تجارب فارسيّة ، وأخرى تُنسب إلى اليونان ، إذ تُصّرح المصادر أنّ رسائل منسوبة إلى الاسكندر فيها قواعد ونظم تتصّل بالحرب قد تمّت ترجمتها أيّام هشام بن عبدالملك (١٠٥ - ١٢٥ / ٧٢٣ - ٧٤٣) وأنّ سالماً ★ أبا العلاء استاذ عبدالحميد هو الّذي قام بترجمتها ، أو ترجمها غيره وقام هو بتحريرها (٢) .

وقد أخذ هذا النّوع من المؤلّفات يتكاثر ، وممّا وصلنا منه : « مختصر سياسة الحروب » (٣) للبهرثمي صاحب المأمون ، وهو كتاب قيّم في الشؤون الحربيّة ، ويضيف أشياء كثيرة إلى ما أورده عبدالحميد

---

(١) تجد هذه الرسالة في رسائل البلغاء (جمع وتحقيق محمد كرد علي ، القاهرة ، ١٩٤٦) ص : ١٧٣ ـ ٢١٠ ، وقد أعيد نشرها في كتاب عبدالحميد بن يحيى الكاتب ، من تأليف الدكتور احسان عبّاس (دار الشروق ، عمّان ، ١٩٨٨) ص : ٢١٥ - ٢٦٥ .

(٢) ابن النّديم ، الفهرست (تحقيق رضا تجدد ، طهران ١٩٧١) ص : ١٣١ : «قد نقل من رسائل أرسطاليس إلى الاسكندر ، أو نُقِلَ له وأصبح هو» .

(٣) حقّقه عبدالرؤوف عون ، وراجعه د. محمد مصطفى زيادة ، القاهرة (د.ت) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكاتب في الخطط والمصطلح ، ممّا يُشير إلى تطوّر واسع في ذلك الاتجاه .

ومن أقرب المصادر إلى العصر الذي أدرسه : «تبصرة أرباب الألباب» (١) لمرضي بن علي الطرسوسي (٥٨٩/١١٩٣) ويذكر محققه أن المؤلّف كتبه لصلاح الدين الأيّوبي ، وأكثر الحديث في ما تبقّى من الكتاب يدور حول أنواع الأسلحة كالسيوف والرّماح والأقواس والتّراس وأنواع المنجنيقات والدّبابات والأبراج وكيفيّة عمل أنواع النُّفوط ، ومن الواضح أنّ الكتاب ضاعت منه أقسام ، إذ إنّ حديثه عن ترتيب الجيوش مبتور ، وما ورد فيه حول هذه النقطة لا يفي بالغرض .

ومن اللافت للنّظر أنّ الكتب الّتي تتناول فَنّ الحرب بالعربيّة تتكاثر وتتنوع موضوعاتها واهتماماتها في عصر المماليك ، وهي وإن كانت تجيء بعد العصر الذي تتصل به هذه الدراسة ، فإنّ كثيراً من أحكامها مبنيٌّ على تجارب متراكمة ، ومن أمثلتها : «تفريج الكروب في سياسة الحروب» (٢) لعمر بن ابراهيم الأنصاري ، و «الفروسيّة» (٣) لابن قيّم الجوزيّة (٧٥١ / ١٣٥٠) و «الأدلّة الرسميّة في التّعابي الحربيّة» (٤) لمحمد بن منكلي ★ (٧٨٤ / ١٣٨٢) ، ويستمدّ هذا الكتاب الأخير أهميّة خاصّة في هذه الرّسالة لأنه يولي الفرنجة (الصّليبيين) وطرائقهم في التعبئة عناية واضحة .

والأمثلة على ذلك غير قليلة ، ولكنّي هنا لَسْتُ أُحاول الاستقصاء (٥) .

ويلحق بهذا النوع من المؤلفات ، صدور عدد من الكتب حول قضيّة الجهاد وفضائله ، بعد إذ وَضح للكُتّاب تعلّق قلب صلاح الدين بتلك القضيّة ، إذ يذكر ابن شدّاد أنّه أُلِّفَت له كُتبٌ عِدّةٌ في الجهاد كتبَ أحدَها ابن شدّاد نفسه (٦) ، ثم تكاثر هذا النّوع من الكتب بعد عصر صلاح الدّين .

(ب) الدراسات والبحوث المخصّصة لدراسة فنّ الحرب : وقد لقيت الحروب الصليبيّة عناية خاصّة من هذه النّاحية ، كما لقيت عناية مركزة في شؤون التاريخ والاقتصاد والحياة الاجتماعية وغير ذلك ، وقد بدأ الاهتمام بدراسة فنّ الحرب الصليبيّة في القرن التاسع عشر ، وممّن عرض لأشهر المؤلفين ومؤلّفاتهم في دراسة تقييميّة الباحثُ سميل (R.C.Smail) في كتابه : (Crusading Warfare 1097 - 1193) (٧) ، وما تزال دراسة سير شارلز أومان (٨) من أبرز الدراسات في هذا الميدان ، مع أنها كُتِبت للقارىء العام ولم تُشغَل

(١) حقّقه كلود كاهين ، ونشر في مجلّة : Bulletin d' Etudes Orientales, XII, Beyrouth, 1947 - 1948 .

(٢) نشرته الجامعة الأمريكيّة بالقاهرة ١٩٦١ .

(٣) نشر بالقاهرة (د.ت) ثم أعيد نشره ببغداد (سلسلة خزانة التراث ، ١٩٨٧) .

(٤) حقّقه اللّواء الركن محمود شيت خَطّاب ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، ١٩٨٨ .

(٥) من اجل مزيد من الأمثلة انظر : كوركيس عوّاد ، مصادر التراث العسكري عند العرب ١ - ٣ مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٨١ - ١٩٨٢ .

(٦) بهاء الدين بن شدّاد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق د. جمال الدّين الشيّال ، القاهرة (١٩٤٦) ص : ٢١ .

(٧) انظر الصفحات : ٣ - ١٧ .

(٨) Oman, Sir Charles, A History of the Art of War in the Middle Ages 2nd ed . 2 Vols. London, 1924 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالمصطلحات الفنيّة ، ولهذا السّبب نَظَر إليها كثيرٌ من النُّقّاد بعين الريبة ، وعلى الرغم من ذلك فإنّ النتائج التي توصّل إليها حول استراتيجيّة الحروب الصليبيّة وتكتيكها مبنيّة بناءً محكماً على أساس الشهادات المتوافرة ، وقد وضعت بوضوح وإقناع ، وهي تُثير نقاطاً مهمّة فاتت انتباه كثير من المؤرّخين (١) . وقد درس أومان في كتابه هذا فنون المعارك ، متتبّعاً ما كان منها عظيم القيمة الاستراتيجيّة ، كما درس فنون الحصار .

وقد تناول سميل الموضوع بنظرة مستأنفة ، فبيّن مدى المغالاة التي تورّط فيها من كتبوا قبله وبخاصّة في جانب التّنظير ، والفُروض التي لا يسندها الواقع ، هذا مع ميله إلى الوضوح والتبسيط ، والفهم الدّقيق للرّوح العامّة في الحروب الصليبيّة .

وربّما لم يَرقَ إلى مستوى هذين الكتابين كتابٌ ثالث بعنوان (The Wars of the Crusades) (٢) ولكنّه مُفيد في دراسة أنواع الأسلحة والدروع والفروق بينها ، والزيّ العسكري ، إلاّ أنّ شدّة التبسيط ظاهرة في فصوله وكأنّها ملاحظات أوّليّة .

٢ ـ المؤلّفات التاريخيّة :

لَعَلّ فترة الحروب الصليبيّة من أغنى الفترات بالمصادر التاريخيّة المعاصرة في الشرّق والغرب ، فابن الأثير ★ في كتابيه «الباهر» و«الكامل» وأسامة بن منقذ في «الاعتبار» ★ وابن شَدّاد ★ في «سيرة السّلطان يوسف» (النوادر السلطانية في المحاسن اليوسفيّة) وابن القلانسي ★ في «ذيل تاريخ دمشق» وسبط ابن الجوزي ★ في «مرآة الزمان» ليسوا سوى نماذج يمكن أن تضاف إليها أسماء أخرى ، يُقابلهم من الجهة الثانية وليم الصّوري وفوشيه الشّارتري وكاتب رحلة ريكاردوس قلب الأسد (Itinerarium Regis Ricardi) وأعمال الله من خلال الفرنجة (Gesta Dei Per Francos) وعشرات المؤلّفات غيرها .

ولا يمكن أن يستغني دارسُ فَنّ الحرب عن هذه المؤلّفات وأمثالها فينحيّها جانباً ، مُقنعاً نفسه بأنه يريد التركيز على المصادر الأدبية من شعر ونثر ، فمن طبيعة الأدب ، وبخاصّة الشعر ، اكتفاؤه باللّمح والإيماء ، واعتماده التصوير وأحياناً المغالاة ، وسكوته عمّا يُحرج الشاعر أمام ممدوحيه ، أو تطلب الأعذار والمسوّغات لهم . والمؤرّخ في هذه النّواحي رُبّما كان أكثر حرّية في التصرّف من الشّاعر أو الأديب ، وقد يقول أشياء لا يستطيعان قولها ، وهذه الحريّة النسبيّة التي يتمتّع بها المؤرّخ تمكّن فوشيه الشارتري مثلاً من أن يقول في حَقّ الملك بلدوين (بغدوين) دون تردّد أو اعتذار (٣) : «ارتكب الملك عملاً طائشاً حَقّاً إذ

(١) R.C. Smail, Crusading Warfare 1097 - 1193 , Cambridge University Press (1956) P. 8 .

(٢) Wise , Terence, The Wars of the Crusades, London, 1978 .

(٣) فوشيه الشّارتري : تاريخ الحملة إلى القدس ، ترجمة د. زياد العَسلي ، دار الشروق - عمّان (١٩٩٠) ص : ١٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أغفل أن ينتظر رجاله وزحف إلى المعركة بشكل عشوائي ، وحَقّ عليه أن يكون أعقل من ذلك ، فقد سارع لملاقاة العدوّ دون أن يصطحب مشاته ، ولم يكد ينتظر قدوم فرسانه إلى أن ألقى نفسه بحماقة بين جموع العرب المحتشدة ، وظَنّ - افراطاً منه بتقديره لتفوّقه - أنّ عدد الأعداء لا يزيد عن الألف والسبعمائة ، لذلك سارع لملاقاتهم قبل أن يتمكنّوا من الفرار ، ولّما شاهد العدّو أطلق صيحة ودَبّ فيه الرُّعب . . . » .

إنّ مثل هذا النصّ المليء بتعبيرات تحمل في تضاعيفها اللّوم والإدانة ليصوّر حقيقة ما حدث ، وقراءة الحادثة دونها لا تعطي فكرة دقيقة عن طبيعة المسؤوليّة ، وإذا نحن نقلنا هذا الموقف إلى موقف الشاعر المسلم الذي يُطالبه الواقع أحياناً بوصف الهزيمة ، وجدناه كثيراً ما يُحجم عن الخوض في هذا الجانب السلبيّ ، ولا بُدّ أن نتذكّر أنّ أيّ تصوير شعريّ لا يبلغ في تأثيره ما تبلغه دِقّة المؤرّخ ابن شَدّاد وهو يُصَوّر وقعة أرسوف بقوله : «واتفق أنّي كنتُ في القلب ، فَفَرّ القَلبُ فراراً عظيماً ، فنَويت التحّيز إلى الميسرة ، وكانت أقرب إليّ ، فوصلتُها وقد انكسرت كسرة عظيمة ، فنويت التحّيز إلى الميمنة ، فرأيتها وقد فَرّت أشدّ فرار من الكُلّ ، فنَويت التحيّز إلى طُلب السلطان رحمه الله ، وكان رِدءاً للأطلاب كُلّها كما جَرَت العادة ، فأتيتُه ولم يبْق السلطانُ فيه إلاّ سبعة عشر مقاتلاً لا غير ، وأخذ الباقين إلى القتال . . . » (١) إنّ هذا الصّدق الذي يستطيعه شاهد عيان ، موضوعي النّظرة ، يجيء أحياناً أصدَقَ بكثير من تعبير شعري حافل بالانفعال .

وهناك أمرٌ ذو صلة وثيقة بالحروب الصليبيّة ، وهو أنّ المؤرخ والشاعر قد تبادلا دوريهما في كثير من الأحيان ، يصدق هذا على مؤرّخ شَديد الرّزانة مثل ابن الأثير في كتابه « الباهر » إذ يقول في تصوير حصار بارين : « فجمع الشهيدُ عساكرَه وحثّهم على الجهاد ، وأشلاهم على الكفرة الأوغاد ، ورتّب أطلابه وحَرّض أصحابه ، وحَزّبَ أحزابه ، وناوشهم القتال ، واعملوا الرماحَ والنّبال ، ولم يزل هذا دأبهم حتّى حمي الوطيس ، فحينئذٍ حَملت الفرنج حملة اختلط فيها المرؤوس والرئيس ، وارتفع القتام ، واشتّد اللّزام ، وعظم الزّحام» (٢) كما يصدق على أديب ضاع الحدّ الفاصل لديه بين التاريخ والأدب ، أعني العماد الأصفهاني في «الفتح القُسيّ» وفي «البرق الشامي» ، فإنّ الدارسَ أينما وَجّه طَرْفه في كتابيه هذين ، وجد لدَيه المَثَل تلوَ المثل كقوله في وقعة مرجعيون (٣) : «والسُّلطانُ في موكب جلالته ، كالقمر المبدر في هالته ، وابداء النصرّ يُرشده بدلالته . فلم يَزل يُعنِقُ ويَخُبّ ويُبرقُ ويُهبّ ، ويُغرق ويَعُبّ ، ويزخر ويموج ، ويزجُر

(١) النّوادر السُّلطانيّة ، ص : ١٨٣ - ١٨٤ .

(٢) ابن الأثير، عز الدّين: التاريخ الباهر في الدّولة الأتابكيّة، تحقيق عبدالقادر أحمد طليمات، القاهرة (١٩٦٣) ص: ٥٩ .

(٣) عماد الدين الاصفهاني ، البرق الشامي ، ج : ٣ ، تحقيق د. مصطفى الحياري ، مؤسسة عبدالحميد شومان ، عمّان - الأردن (١٩٨٧) ص : ١٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويَعوج ، ويجري ويَجُرّ ، ويَفري ويَفُرّ ، ويَمري ويُمِرّ ، والسّوائحُ للتجّار حاملة ، والجوائحُ للكُفّار حاصلة شاملة، حَتّى تراءى الجمعان، ودنا الزّعان من الزّعان، وعَنا العِنان للعِنان، وحَنا السّنان على السّنان، ونشطت أيمان الأيمان، وقرب قران الأقران، واحتربَ حزبُ اللّه وحزب الشيطان . . . ».

وقد كان العماد ذا وَعي دقيق بالجمع بين هذين النّوعين من الكتابة ، إذ يقول في «الفيح» (١) : «هذا كتابٌ أسهمت فيه بين الأدباء الّذين يتطلّعون إلى الغرر المتجلّيَة ، وبين المستخبرين الّذين يستشرفون إلى السِّيَرَ المتحلّية . . .» وفي مثل هذه الحال لا يبقى هناك فرق واضح بين التّاريخ والأدب ، ولصعوبة الفصل الدّقيق بين الاثنين ، لابُدّ من الإفادة منهما معاً .

٣ ـ الأدب النثري :

يُقال في هذا اللون ما قيل في الّذي قبله ، فالذين يصوغون الرّسائل ، هم في الغالب من المشاركين في التّاريخ ، ولهذا تجد أنّ رسائل القاضي الفاضل - الأدبيّة - لا تفترق في كثير عن مستوى الأسلوب التاريخي عنده ، وكذلك الحال لدى العماد . وعلى هذا يمكن أن يُعَدّ الفصل بين الحقلين فصلاً متعسّفاً ، والإفادة منهما كليهما ضرورة لا غنىً عنها .

٤ ـ الشعر :

قد يُقال الشيء الكثير في أنّ الشعر لا يُغني وحده في الوفاء بهذا الموضوع، بل ولا يَفي به وإن تضافر هو والنّثر الفنّي وأخذ أحدهما بيد الآخر . إنّ فَنّ الحرب في بعض أحواله علم، من الخير للشّعر أن يتجنّب التعبير عنه ، ومع أنّ عنوان الدراسة «صورة فَنّ الحرب» (بإضافة كلمة صورة) فإنّ إخضاع الدراسة كلها للشعر أمرٌ غير ممكن ، كما أنّ الاستغناء عن الشّعر أمر غير ممكن أيضاً . إنّ للشعر دوراً قد لا يكون هو الدّور الحاسم أو القول الفصل، ولكنّ صورة الحرب، صورة المعركة، صورة حركة الجيش، حسّ النشوة بالنّصر، حسّ الشماتة بالمنهزم أمورٌ قد يعجز غير الشّعر عن أن يتمَرّس بها ، أو يمنحها حَقّها من اكتمال التصوير .

لكل ذلك لا يمكن إفراد الشعر ـ بل ولا الأدب كله ـ في دراسة فنّ الحرب ، من جميع جوانبه ، ولكي تجيء الدراسة متكاملة ، لابُدّ من أن تتساند العناصر الأربعة التي تَمّ ذكرها .

أمّا لماذا لم أذكر الوثائق والآثار الفنيّة والآثار العمرانية ، والعملة والأختام ، وما جرى مجراها ، فما ذلك إلاّ لأن هذه المواد تدخل في العناصر التي تتركب منها مادّة التاريخ نفسها .

---

(١) عماد الدين الأصفهاني، الفيح القُسّي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، القاهرة (د.ت) . انظر : المقدّمة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقدّمة

في المراحل التاريخيّة من زاوية فنّ الحرب منذ بداية الغزو الصليبي حتى نهاية الدّولة الأيّوبيّة

١ ـ مرحلة تكوين الممالك الصليبيّة حَتّى ظهور عماد الدين زنكي (٤٩١ - ٥٢١ / ١٠٩٧ - ١١٢٨) :

ليس من الضروري أن يحاول الدارس هنا كتابة صورة مجملة لتاريخ الحروب الصّليبية ، فذلك أمرٌ لا تتطلّبه هذه الدراسة ، وإنما هنالك حقائق أوّليّة لابُدّ من الوقوف عندها ، لتساعد على تصوّر دقيق لفن الحرب في تلك الفترة . فقد كان العام (٤٩٠ / ١٠٩٧) يشهد طوفاناً بَشرياً من جميع الجنسيّات الأوروبيّة، يخترق الدروب في آسيا الصغرى ليصل إلى البلاد المقدسة ، وينقل أقواماً مجهولة لدى سكّان الشام ، لتقابل في طول الشام وعرضه أناساً لا تعرفهم ولا تعرف بلادهم ، ويكون الملاذ للحكم الفيصل بين الفئتين هي الحرب ، وحين تكون الحرب هي المجال المثالي للّقاء - دون أن تكون هناك أسباب مقنعة أو مقدمات حتميّة لاشتعال نارها - لا يتمّ التعرّف بين الفريقين إلاّ على نحو جزئي ، ولا يكون ذلك القدر الجزئي إلاّ متحيزاً في البداية لجوانب سلبيّة في طبيعة هذه الأمّة أو تلك ، وقليل من الجوانب الايجابيّة ، ثمّ ينعكس الوضع مع تطاول الزمن . لقد حاول كلّ فريق بادىء ذي بدء أن يتعرّف إلى الآخر من خلال ضباب الحرب الكثيف ، فكانت الصورة التي رسمها الجنديّ المسلم لهذا الطارىء الغريب هي أنّ (الافرنج) بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لاغير ، وأنهّم جُفاة وحشيّو الطباع ، فإذا عاشروا المسلمين بعض الوقت خَفّ جَفاؤهم وتراجع بعضُ عُنجُهيّتهم . ولمّا كان التميّز في القتال لديهم هو محَكُّ التّقييم للإنسان ، فإنهّم لا يؤمنون بأهليّة أحد للتقديم سوى على أساس الفروسيّة ، فالفرسان هم أصحاب الرأي لديهم ، وهم أصحاب القضاء والحكم ، وإذا حكموا بشيء مضى فلا يستطيع أن يردّه الملك نفسه أو أيّ أحد من مُقدّميهم (١) .

وقد لحظ محمد بن منكلي مزيداً من الصفات الايجابيّة لديهم حين نَبّه إلى اعتمادهم على الشّورى ، وإذا اجتمعت كلمتهم على أمرٍ ثبتوا عليه وعملوا به ، ولم يسمحوا للخلاف بأن يدُب بينهم (٢) .

ويُضيف ابن منكلي أنّ حربهم تتمّ عن فكرة ورويّة ، وأنهم يعتمدون في الحرب تعبئة محكمة ، لا يمكن اختراقها مادامت كذلك ، فإذا اختلّت انقادوا للأسر . ومن شِدة إحكام تعبئتهم تكون كأنها مدينة تمشي على وجه الأرض (٣) .

---

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، تحقيق فيليب حتّي ، مطبعة جامعة برنستون (١٩٣٠) ص : ١٣٠ ، ١٣٤ ، ٦٤ ـ ٦٥ .
(٢) محمد بن منكلي : الأدلّة الرسميّة ، ص : ١٨٩ .
(٣) المصدر السابق : ١٩٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كـذلك دوّن ابن منكلي مـلاحظات غاية في الدِقّة عنهم ، فهم صبورون على شظف العيش ، شديدو التـحـمّل إذا واجـهتهم نكبة ، ومصير المعركة لديهم غير معلّق ببقاء القائد على قيد الحياة ، وأهّم من ذلك كُلّه أنهّم يُقاتلون باسم الدّين وذَبّاً عن شريعتهم (١) .

ولمّا كـانت تعـبئتـهم مـتـميزة في إحكامها فإن ابن منكلي يُقدّم نصائح عمليّة لإضعاف تلك التعبئة أو افسادها ، فمن تلك الأساليب :

(أ) رمـيهم بالنّار إذا كانوا خيّالة لأنّ خيولهم تنفر ويتفرّقون ، فتتفرق تعبئتهم .

(ب) ضربهم بالدبابيس بَعـجـاً في الوجـوه والعيون ، وعدم استعمال السيوف في ذلك لأنهم يبالغون في لبس الحديد .

(جـ) حمل الحـجـارة لرشـقهم بها ، والمناوبة بين الرّشق بالحجارة والضرّب بالدبّوس (٢) .

ولم تتكون هذه الانطبـاعـات في يوم وليلة ، بل كـانت وليـدة فترات زمنيـة مـتـفاوتة ، مثلما أن تطاول العـهـد على الحـرب قد نقلها في مراحل مختلفة ، وجعل أغراضها تتطور وتتلبّس أشكالاً غير التي كانت لها في البـدء . فـفي الحـملة الأولى لم تكن هناك أيّة خطّة مرسومة للفتح ، وبعد الاستقرار في البلاد المفتوحة لم يكن هناك تضـافـر مُسـتـمـر في الجـهـود من أجل التـوسّع ، كان الهمّ الأكبر أن يفوز كُلٌ من القادة الكبار بنصـيب ، وأن يكوّن دولة ، وأحـيـاناً كان أولئك القادة يُوحّدون جيوشهم ويعهدون بالقيادة العليا إلى ملك القدس ، وكان ذلك يتمّ في أوقات المحن الشديدة (٣) .

وقـد تكوّنت للصليبيين دول أربع على النحو الآتي (٤) : (دون مراعاة للسياق التاريخي)

١) المـمـلـكـة الـلاتـيـنيّة : ونواتها القـدس ويافـا ثم بعض المدن غير الكبيرة مـثل : لُدّ وبيت لحم والرّملة والخليل (حبرون) ، وقـد كـانت هذه المملكة من نصـيب غودفري (غندفري عند ابن الأثير) ولم يستطع أن يبسط نفوذه على المناطق الرّيفية التّابعة لتلك المدن إلاّ بالتدريج .

وتحوّل تنكرد Tancred (دنكري عند أسـامـة ، وطنكري عند ابن الأثير) إلى الشمال ، وكـوّن منطقـة لنفسه تألّفت في البـداية من طبرية والناصرة وبيـسـان ، ثم ضـمـت إليها من بعد حيفا ومنطقة السّواد ، وكان يحكم هذه المنطقة على أنها إقطاع منحه إياه غودفري ثم تخلى عنها مقابل أخذه انطاكية .

٢) ولم تكن لأنطاكـيـة حـدود طبيعيّة تفصلها عن مسلمي حلب ، وكانت أنطاكية منيعة الجانب إذا وضعت

---

(١) الأدلة الرسمية ، ص : ١٩٠ .

(٢) المصدر السابق : ١٩١ .

(٣) Smail, P : 19 - 20 .

(٤) Mayer, H.E. The Crusades, Oxford University Press (1988) P : 59 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيها حامية مسيحيّة ، ولهذا لم تسقط في يد المسلمين إلاّ في تاريخ متأخرّ (٦٦٤ / ١٢٦٨) (١) .

٣) وسقطت طرابلس في أيدي الصليبيين (٥٠٢ / ١١٠٩) ، وكان ذلك ضربة لدمشق ، لأن طرابلس كانت ميناءها ، فانتقلت تجارة دمشق البحريّة إلى صور ثُمّ إلى عكّا ، ولكنّ طرابلس ظلّت مملكة ضعيفة لأنّه لم يُتح لحكامِها أن يتغلغلوا نحو الدّاخل ، وإنما استولوا على سلسلة من السهول الساحلية الضيّقة (٢) .

٤) ورابع الممالك هي الرُّها ، وكان عدد المسيحيّين الّذين سكنوها قليلاً ويحيط بها من ثلاثة جوانب أمراء مسلمون ، ولهذا كانت دائمًا في خطر ، وكان ممّا يزيدها ضعفاً شُحّ مواردها العسكريّة ، وكان سقوطها أمراً محتوما إذا ظهر أميرٌ قوي يستطيع أن يستثمر في مقاومته لها الموارد المتوافرة في المقاطعات الاسلاميّة المجاورة مثل حلب والموصل (٣) .

بعد هذه المناطق التي اقتطعها الصليبيّون ، أصبح الوضع في كُلّ بلاد الشّام على النّحو الآتي : كلّ موانىء الساحل أصبحت في يد الصليبيين باستثناء ميناءين هما : صور (وتم الاستيلاء عليها سنة ٥١٨ / ١١٢٤) وعسقلان (وتمّ الاستيلاء عليها سنة ٥٤٨ / ١١٥٣) ، وكان هذا الحدّ الساحلي هو الحدّ الاوّل الّذي أنشأوه ، أمّا الثّاني فهو الحدّ المواجه لدمشق ، وأمّا الثالث فهو الحدّ الجنوبي حيث سيطروا على القدس وبيت لحم ، وقد شنّ الصليبيون على الموانىء الساحليّة هجمات لا تعرف هوادة ، لأنّ الاحتفاظ بتلك الموانىء كان يعني تأمين وصول الامدادات والمؤن . وحين سقطت المواقع المحصّنة في الجليل وصفد وطبريّة وجبل طابور دون مقاومة لم يبق هناك ما يُعيق تقدّمهم نحو دمشق . وكان أمامهم إحدى خطّتين: انشاء خطّ دفاعي كالّذي بَنوه من بعد ليشمل عسقلان ، أو هجوم مباشر على مدينة دمشق ، ولم يكن أيٌّ من الخطّتين حينئذ ممكناً ، لأنّ المملكة اللاتينيّة كانت تفتقر إلى العناصر البشريّة الكافية (٤) .

وبقيت في يد المسلمين مدن كبيرة مهمة مثل حلب وحماة وحمص ودمشق ، وركز الصليبيون في أول الأمر جهودهم للسيطرة على الساحل وعلى المناطق الداخلية التي يحكمها السلاجقة ، ولكن لم يلبثوا أن أدركوا أنّ الحدود الآمنة لابُدّ أن تتطابق تطابقاً تاماً مع الحدود الطبيعية ، فحيث ساعدت الظروف أُنشئت طرق كبرى ، وحصنت المداخل بنقاط قوية للسيطرة على مناطق استراتيجية ، وتبيّن لهم أن الحدود الطبيعية هي الصحراء ، ولهذا سيطروا على المناطق الواقعة عبر نهر الأردن وأوجدوا بذلك الحدّ الشرقي على الخطّ الفاصل بين الصحراء والمناطق الزراعية . وتابعوا هذه الخطّة في الوصول إلى الصحراء على

---

(١) . Oman , Vol. I , P : 258

(٢) . Mayer , P : 68 ; Oman , Vol. I , P : 258

(٣) . Oman , Vol. I , P : 259

(٤) . Prawer, J. Crusader Institutions, Oxford University Press (1980) P.P : 472 - 73

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المداخل الجنوبية الغربية للمملكة اللاتينيّة، وذلك كان هو الهدف من حملات بلدوين (Baldwin) (بغدوين، بردويل في المصادر العربيّة) في منطقة شرقي الأردن وعلى طول الطريق الرئيسية التي تخترق شبه جزيرة سيناء وتصل دلتا النيل ، وسرعان ما كشف هذا التوجّه عن أهميّة السيطرة على مصر نفسها ، خصوصاً وأنّ مصر كانت تبدو فريسة سهلة لكثرة المتنازعين عليها (١) .

ولابُدّ من ان نتذكر أنّ مفهوم حُكّام الممالك الصليبية للحرب لم يكن هو المفهوم الحديث الذي يقضي بتحطيم الجيوش المسلّحة لدى العدوّ ، كما لم تكن الاهداف المتعارف عليها تتضمّن التسليم غير المشروط من قبل المغلوب (وإن كانت لهذه الأحكام استثناءات) . كان همّ أولئك الحكام من الحرب هو الاستيلاء على الارض ، وذلك كان واضحاً منذ بداية الحملة الأولى ، إذ كانت تلك هي غاية قائد كبير مثل بيمند (Bohemend) كما كانت تمثّل طموح أبسط الحجّاج وأشدّهم تقوى وزهداً ، كان كل امرىء فيهم يرى أنّ الغاية الكبرى هي استرداد الأماكن المقدّسة ، وذلك يشمل الفتح العسكري لمدينة القدس مثلما يشمل تثبيت أقدامهم في الساحل ليؤمنوا اتصالهم بالغرب ، وسيطرتهم على الطرق التي تربط الموانيء الساحلية بالممتلكات الداخلية . وكانت حيازة الأرض ضرورة لتكوين قاعدة (ماديّة) لدولة ، فالدخل الذي يتجمع سنوياً مِن الأرض في يدي الحاكم الاقطاعي يُسَدد نفقاته الذاتية والنفقات التي تتطلبها الدولة ، وثَباته في الحكم يعتمد على ما تملّكه من أرض ، وهو بحاجة إلى تلك الأرض ليمنَحَها أو يمنحَ بعضَها اقطاعاتٍ للأتباع كي يخدموه في بلاطه وفي جيشه ، وبذلك يتحقق أساسُ القوة المسلحة الّتي تُعتبر المسوّغ النهائي لحكم شعوب شرقية تعيش في الدول الصليبية ، وتمثّل الوسيلة الوحيدة لصدّ الهجمات الخارجية (٢) .

ولم يكن لتلك الممالك أن تبقى كل تلك المدد الطويلة لولا عاملان كبيران ساعدا على ذلك، أولهما : إنشاء المنظمات العسكرية مثل الداوية والاسبتاريّة ، واعتماد المرتزقة عنصراً أساسياً في الجيش ، بعد أن كان الاعتماد الكليّ في البداية على الفرسان ، وأمّا العامل الثاني فهو توالي الامدادات التي كانت تَضُخّ بين الحين والحين دماً جديداً في عروق تلك الممالك ، وكانت السياسة النافذة المستديمة على منطقة ما تعتمد على حيازة ما فيها من مدن وقلاع ، نعم قد يقوم أحدهم بالهجوم على منطقة متنازع عليها ، وقد يلحق الأذى من جَرّاء ذلك بالفلاحة والقرى غير المحميّة ، ويضعف موارد ذلك الحاكم الذي انصَبّ الهجوم على أملاكه ، ولكن ذلك يُعدّ أذى مؤقتاً ضئيل الأهمية ، مادامت القلاع والمدن المسوّرة قد بقيت سالمة ، ومن أجل ذلك يضع المدافع كل ثقته في التحصينات والحاميات التي يبثّها في تلك الأماكن ، غير أن هذا الاستسلام إلى ذلك النوع من الثقة يتعرّض للامتحان القاسي حين تُترك القرية تحت رحمة محاصر صبور

---

(١) Prawer, P.P: 474 - 477 .

(٢) Smail, P.P: 20 - 23 .

٤١٦٦٥٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مطاول ، وحين يعرف المحاصَرون فيها أن الجيش المنقِذَ غيرُ متوقّع وصولُه (١) .

وقد أكثر الصليبيون من بناء القلاع فبنوا في منطقة القدس قلعة يُبنى وتلّ الصافية وبيت جبرين ، كما بنوا الكرك والشوبك (وهذه الأخيرة الواقعة شرقي البحر الميت إنما بُنيت لتسيطر على طريق القوافل بين مصر والجزيرة العربية والشام) وفي الشمال بنوا قلاعاً حصينة من أهمها قلعة صفد . وكان بناء القلاع على الجملة غير خاضع لخطة مرسومة ، بل كان يخدم حاجات عاجلة ، إلاّ أن القلاع كانت تهدف إلى تحقيق أغراض اقتصادية مثلما كانت تحقق أغراضاً عسكرية، فالقلعة مسكن للسيّد الإقطاعي، وثكناتٌ لعسكره، ومحرَسٌ يشرف منه الحُرّاس على المناطق المحيطة به ، ومخزن للمؤن والسّلاح ، وموطن اجتماع الجيش قبل الحملة ، ومركز للسيطرة على المناطق الريفيّة ، وهي وسيلة لمنع العدوّ من الاحتلال الدائم للمنطقة الريفيّة الّتي تقوم فيها القلعة (٢) .

وقد اقترن بهذه الظاهرة توجه حربيّ عامّ ، إذ كان معظم المواقف الحربية بين الفريقين يتمّ عن طريق الحصار ، وكان تجنب المعارك الميدانية قاعدة حربيّة مهمة ، مادام ذلك ممكناً . وقد استراح الفريقان : المسلمون والصليبيون إلى هذا الترتيب ، وإذا كانت هذه القاعدة قد انكسرت غير مَرّة أيام صلاح الدين ، فإن الانتصارات فيها رُبّما عادلت الهزائم .

هاهي سنوات عديدة قد مَرّت منذ بداية الغزو الفرنجي حتى ظهور عماد الدين (٤٩٢ - ٥٢١ / ١٠٩٧ - ١١٢٨) قد تصل إلى ثلاثين عاماً ، ثبت فيها الصليبيون أقدامهم في سورية وفلسطين ، فكيف كان ردّ الفعل الحربي ، وكيف كان ردّ الفعل الأدبي نحو وجودهم ، كانت السيادة في هذه الفترة في ما تبقى للمسلمين من مناطق لعدد من الأمراء ، منهم صاحب كل مدينة كبيرة ، كصاحب دمشق وصاحب حلب وصاحب حَرّان وهكذا ، وكان هذا التعدد يصرف الأفكار عن تصور شامل يتمّ به انقاذ البلاد أو محاولة انقاذها ، ولهذا كان أي أمير منهم لا يملك إلاّ الاستجابة للحدث ، لكنه لا يحاول تهيئة الأسباب له ، وكان هذا الوضع العام يُثير التوجّس والخشية في نفس هذا الأمير ضدّ ذاك . وكان مودود بن التونتكين★ صاحب الموصل من أبرز أولئك الأمراء وأكثرهم حرصاً على تخليص البلاد من كل عدوّ قوي، وكانت سياسة الحصار قد فرضت نفسها على الخطط الحربية ، ولم تترك مجالاً كثيراً لاختيار أيّة خطة أخرى، ولهذا كان مودود ينفق الوقت في حصار حصن بعد آخر . وحين اتفق مع طغدكين ★ (طغتكين) صاحب دمشق (٥٠٧ / ١١١٣) على العمل معاً ، استطاع المسلمون أن يجرّوا الفرنج إلى معركة . وقد استعدّ الفرنج لتلك المعركة وجمعوا لها فرسانهم ورجالتهم وملوكهم وقمامصتهم ، وفيهم بردويل (بلدوين)

---

(١) Smail , P.P : 23 - 24 .

(٢) Wise, T. The Wars of the Crusades. London (1978) P.P : 200 , 202 - 203 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صاحب القدس وعكا وصور ، وجوسلين صاحب تلّ باشر والرُّها ، وكان المصاف عند بحيرة طبرية ، وانهزم الصليبيون حتى وصلوا إلى مضيق دون طبرية فتوقفوا ، وفي اليوم التالي جاءهم مَدَدٌ من انطاكية ، وحصرهم المسلمون ستة وعشرين يوماً : المسلمون في الغور والصليبيون فوق الجبل ، وتذكرنا بعض مشاهد هذه المعركة بما حدث من بعد في حطين ، فقد اشتدّ الحرّ على المسلمين فرحلوا نحو بيسان ، ثم إن المسلمين لم تكن تصلهم مؤن لبعدهم عن بلادهم ، فآثروا الانسحاب المصحوب بخسائر قليلة ، وعلى أثر ذلك قُتل مودود في دمشق (١) . وكانت هذه المحاولة عند طبرية من أبرز المحاولات المبكرة التي تمت قبل أن يكون لعماد الدين شأن .

هذا مثل من ردّ الفعل الحربي قبل ظهور عماد الدين ، فأمّا ردود الفعل الأدبية فإننا نفتقر إليها . نعم . . قد نُقَدِّر أنّ هناك شعراً قيل في مدح بعض أولئك الأمراء ، وتمجيد ما يقومون به للذّبّ عن حياض الاسلام ، ولكن يبدو أنّه اجتمع على إظهار فقر الأدب في هذه الفترة أمران : أولهما صغر حجم البطولات التي كان يمثلها أولئك الأمراء ، وذلك يعني أيضاً عدم خوض معركة حاسمة أو الاستيلاء على مدينة يُعَدّ فتحها نقطة تحوّل . وثانيهما : الفقرُ في عدد الشعراء ومستوى الكُتّاب المترسلين القادرين على إبراز قيمة الأعمال الحربيّة . أضف إلى ذلك أن صوت الاستنفار إلى الجهاد كان مايزال خافتاً .

ولهذا فإنّ معتَمد الدارس هي المصادر التاريخيّة مثل الاعتبار لأسامة بن منقذ ، وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ، ويتميّز الاعتبار بتقديم صور حيّة من الفنّ الحربي .

٢ ـ مرحلة عماد الدين زنكي ونور الدّين محمود ـ الدولة الزنكية (٥٢١ - ٥٦٩ / ١١٢٨ - ١١٧٤) حين تسلّم عماد الدين زنكي الموصل وحلب من آقسنقر البرسقي بدأ عهد جديد ، أخذ يختفي فيه حكّام سورية واحداً بعد آخر ، ويحلّ محلّهم شخص واحد هو عماد الدين . وكانت أكبر أمنية لدى هذا القائد أن يستولي على دمشق ، ولكن لم يتحقق له ذلك ، وإنما قام بتحقيقه ابنه نور الدين بعد مطاولة عديدة (٢) .

ومن يتتبع تدرج عماد الدين زنكي في السّلطة ، وبخاصّة من خلال كتاب الباهر لابن الأثير ، يجد أنّ مدار أعماله الحربيّة إنما كان هو الاستيلاء على الحصون ، لأن الحصار كان هو المجال الوحيد المفتوح لنشاطه لا المعركة الميدانيّة .

وعندما تولىّ عماد الدين الموصل وسائر بلاد الجزيرة كانت مملكة الفرنج قد امتدت من ناحية ماردين

---

(١) عن الباهر : ١٨ ـ ١٩ بإيجاز .

(٢) Smail , P. : 31 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حتّى العريش ، وظلّت بعض المدن الكبرى مثل حمص وحماه وحلب ودمشق هي المراكز التي تمثّل السيادة الاسلامية ، لكن سيطرة الصليبيين على الرُّها عَرّض مدن الجزيرة لضغط شديد ، ولم يبق من الطرق الموصلة إلى دمشق سوى طريق الرَّحبة ، كما أنّ حصن الأثارب كان شديد المضايقة لمدينة حلب ، ولهذا اختار زنكي أن يبدأ به ، على الرغم من أنّه كان يعلم أن الفرنجة قد حشدوا فيه من الفرسان أهل البأس والسّطوة العدد الكافي لحمايته ، وكأن زنكي كان يُقدّر أنّ التغلّب على حصنٍ قويّ يَفتحُ الطريق لتسليم الحصون غير القوية ، ولهذا بدأ به ، ولشدّة إلحاح زنكي على الحصن أعاد الفرنجة النظر في موقفهم وعادوا إلى سياسة طالما اتبّعوها وهي التكثير من الحشود ، واعتماد المظاهر التي تدّل على أقصى درجات الاستعداد، وفعلاً كادت بطانة زنكي تضعف أمام تلك الامدادات، ولهذا أشاروا على قائدهم بأن يعودوا إلى حلب وأن يُطاولوا الفرنجة حتى يتفرّقوا ، فوصف زنكي هذه السياسة بأنها خُطّة خَسف ، واشتّد في موالاة الحملات على الحصن ، حتى ألجأ الفرنجة إلى قتال المستيْئس ، وكانت عاقبة المصابرة أن ملكَ عمادُ الدّين الحصن ، وتوجّه بعده إلى حصن حارم فسارع أهله إلى طَلَب الصّلح (١) .

واستمّر زنكي ينتقل من عمل إلى آخر دون كلل فاستولى على حصن شهرزور (٥٣٤ / ١١٤٠) وفتح حصن بارين في السّنة نفسها (٢) ، وفي كُلّ خطوة كان عماد الدين محارباً واقعياً يحسب لكل شيء حسابه ويُعدّ له عدّته ، فقد زلزل حصن بارين نفسيات المدافعين حتى اضطرهم إلى طلب الأمان ، ثُمّ رأى أنّ اعطاءهم الأمان يُفوّت عليه أخذ سائر حصونهم فَلم يجُبهم إلى ما طلبوه ثم جاءته الانباء بأن بعض الفرنجة قد توجّه في البحر إلى بلاد الروم والافرنج في طلب المدد ، وفعلاً وصلت الأمداد والمحصورون لا يعلمون بذلك ، وحين أعادوا مراسَلته في طلب الأمان أجابهم إلى ما سألوه (٣) . ولّما تحولت الأمداد عن حصن بارين قصدت مدينة حلب ، وكان زنكي يرى أنّ ضياع حلب يقضي على ما تبقّى من إسلام في الشّام (٤) ، فبعث يطلب النجدة من دار الخلافة ، وبينما كانت الامداد في طريقها إليه انسحب الفرنج والروم راحلين عنها .

وكانت ذروة النجاح الذي أحرزه زنكي في أعماله الحربيّة هي استيلاؤه على مدينة الرُّها (٥٣٩ / ١١٤٤) وقد تمكن الفرنجة بسبب وجودهم في الرُّها من الاستيلاء على عدّة حصون ، كما استطاعوا أن يضايقوا حَرّان ، ويبلغوا بغاراتهم مدينة آمد ورأس عين والرّقّة (٥) .

---

(١) الباهر : ٤٠ ـ ٤٢ .
(٢) المصدر السابق : ٥٧ ، ٥٩ .
(٣) المصدر نفسه : ٦١ .
(٤) المصدر نفسه : ٦٢ .
(٥) المصدر نفسه : ٦٦ ـ ٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولجأ عماد الدين إلى ربط عدّة خطط في خطّة واحدة ، فأعلن أنّه إنما يحارب لإعلاء كلمة اللّه ، وأنّ الجهاد هو هدفه الأكبر ، وبذلك رفع كثيراً من مستوى الغاية الحربيّة في نفوس المحاربين ونفوس الناس عامّة ، ثُمّ إنه كان يعتمد إضعاف المحاصرَين والحيلولة دون استمرارهم في المقاومَة بالنّهب والإحراق والتخريب (١) ، وأضاف في حصار الرُّها عنصراً ثالثاً حين رسم خُطّة تعتمد على الحيلة ، إذ كانت الرُّها لجوسلين ، وهو مشهور بالشجاعة ، ولا يمكن أن يغفل عن السّهر على مصلحة المدينة ما دام يتراءى له أنّ زنكي قد يجعل من الاستيلاء عليها هدفاً له ، ولذلك تظاهر زنكي بأن لا غرض له من الرُّها وتوجه نحو ديار بكر ، وقد أرصَد العيون على الرُّها لتبلغه بما يجري فيها ، واطمأن جوسلين إلى أنّ زنكي مشغول بغير الرُّها ، ففارقها إلى بلاده الشاميّة ومعه ذخائره وأمواله ، فأسرع زنكي بالتحوّل إليها وحاصرها ، وعرض على أهلها الأمان فرفضوا ، وحينئذٍ سَلّطَ النقّابين على سورها فنقبوه ، واستطاع أن يستولي عليها بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوماً (٢) . ولم تكن سياسة عماد الدّين تخريب البلد ، بل إنّه ردّ على أهل الرُّها كُلَّ ما استطاع إرجاعه ، وعامل أهلها الأصليين معاملة حسنة .

غيرَ أنّ عماد الدّين (الذي أحرز لقب الشهيد) لم يتمّتع طويلاً بلذّة الانتصار على الرُّها ، والقضاء على إحدى الممالك الصليبية ، إذ بينما كان يضرب الحصار على قلعة جعبر ، دخل عليه نَفَر من مماليكه فقتلوه ، وحين عرف الصليبيون بموت زنكي كان ردّهم المباشر هو أنْ جَمَع ابن جوسلين جموعاً كثيفة وفاجأ الرُّها واستولى عليها وذبح من كان فيها من المسلمين ، ولكن نور الدين لم يتوانَ عن الردّ ، بل هاجم المدينة بجيش قوامه زهاء عشرة آلاف وقضى على ابن جوسلين وفرسانه ، ونكّل بنصارى الرُّها أنفسهم لأنهم واطأوا ابن جوسلين على فعلته (٣) .

وأخذت الأمور تتجه نحو مزيد من توحيد الجهود لا ضدّ الصليبيين وحدهم بل ضدّ كلّ من يشايعهم من أمراء المسلمين أيضاً ، فقد تمّ التقارب بين نور الدين ومعين الدين بزواج الأول من ابنة الثاني، وصمم معين الدين دون أن يكشف نواياه على أن يستولي على صرخد وبصرى ، وكان صاحبيُها حليفاً للفرنجة ، وكان التعاون وثيقاً بين نور الدين ومعين الدين في هذه الوجهة ، فلما حقّقا غايتهما عادا إلى دمشق ، وبعد راحة قليلة فيها ذهب نور الدين إلى حلب (٤) .

وكانت اصداء سقوط الرُّها في يد عماد الدين قد تردّدت في أوروبا ، فاستجاب لها ألوف مؤلفة من الناس ، خرجوا في ما يُعرف بالحملة الثانية ونزلوا سواحل صور وعكا ، واستقرّ الرأي لديهم على منازلة

(١) الباهر : ٣٩ .
(٢) المصدر السابق : ٦٧ ـ ٧٠ .
(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق آمد روز (البدن ـ بيروت) (١٩٠٨) ص : ٢٨٨ .
(٤) المصدر السابق : ٢٩٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دمشق ، وزحفوا نحوها في ما لا يقلّ عن خمسين ألفاً (٥٤٣ / ١١٤٨) ولكن لم تكن نكايتهم شديدة كما كان مُتوقّعا لأوّل ظهورهم ، فقبلوا بعقد هدنَة مع معين الدّين ، سرعان ما نَقَضوها حين لجأوا إلى العبث في الأعمال الدمشقيّة . وكان نور الدين ومعين الدين كُلّما أحسّ أحدهما أو كلاهما بالحاجة إلى المدد استعان بخيّالة التركمان ، ويبدو أنّ هؤلاء لم يكونوا ماهرين في الكَرّ والفرّ وحسب ، بل كانوا أقدر على النكاية إذا أُطلِقَت أيديهم في أعمال النهب إلى جانب جماعات من الحراميّة وأهل الافساد ، فكانت هذه الجماعات غير النظامية تذيق الأعداء أنواعاً من التنكيل (١) .

وكان يضعف من قدرة نور الدّين على الحركة أنّ دمشق في يد غيره ، وقد تكشّفت جَهاراً نوايا أصحاب السّلطان فيها حين انضموا إلى الفرنجة وحالفوهم بعد وفاة معين الدين أنر . وقد كان في مقدور نور الدين أن يستولي عليها ، إذ كان لديه جيش قويّ ، وكان خيّالة التركمان على استعداد دائم لمؤازرته ، ولكنّه كان يخشى من إراقة الدماء بين المسلمين ، وأن تجرّ الحرب إلى الإضرار بالفلاّحين (٢) . وظلّ نور الدين يرعى هذه الشؤون حتى سنحت له الفرصة للاستيلاء على دمشق دون حرب ، وبضمّ دمشق ، ثمّ الاستيلاء على مصر فيما بعد ، أصبح مجال الحركة ضدّ الصليبيين أرحب ، وتعزّز جيش نور الدين بقوى جديدة .

لقد حكم نور الدين مدّة طويلة نسبياً ، كثرت فيها الأحداث ، وليس من غاية هذه الدراسة تتبع تلك الأحداث ، ولكن المراقب للسياق التّاريخي يجد أنّ هذا الرجل الفذّ لم يستطع أن يخرج في خططه الحربيّة كثيراً عن حصار الحصون واحداً بعد آخر كما كان حال أبيه ، إلا أنّ أعماله كانت تتراوح بين نجاح وإخفاق دون أن يشعر بضعف أو يدركه يأس ، ويحدثنا ابن الأثير أنّه كان كثير الاتّكاء على الحيل (٣) ، ويمكن أن نعدّ الاسلوب الذي اتبعه في حصار حصن حارم نوعا منها ، فقد قام في أثناء هذا الحصار بحركتين :

١ ـ حين استكثر الفرنج من الحشود وبخاصّة من الرَّجّالة وقاربت جموعهم حصن حارم ارتحل عنه نور الدين موهماً أنه يتوجّه إلى أرتاح (٤) ليستدرجهم ولكنهم حين أيقنوا أن لا طاقة لهم به عادوا إلى حارم فتبعهم نور الدين في تعبئة الحرب .

٢ ـ كشف الفرنج الحملة على ميمنة المسلمين ، وتخاذلت الميمنة أمام تلك الصّدمة القويّة ، ولاذت بالفرار، ولكنه كان فراراً متفقاً عليه ، وذلك لإبعاد خيالتهم عن رَجّالتهم ، فلما تحقق لهم ذلك مالوا على

---

(١) ذيل تاريخ دمشق : ٣٠٤ .

(٢) الباهر : ١٦٩ .

(٣) المصدر السابق : ١٦٩ .

(٤) تعد أرتاح من العواصم من أعمال حلب (معجم البلدان ؛ وانظر الخريطة المرفقة بهذه الدراسة) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرجالة وأعملوا فيهم القتل والأسر . وقد كفلت لهم هذه الخطّة نجاحاً مزدوجاً ، فإن الذين تظاهروا بالفرار من المسلمين عادوا إلى مراكزهم ، فأصبح العدوّ كلّه محاطاً به في الوسط ، وحالوا بين الفرنج وبين الفرار ، وكثر عدد القتلى منهم كما كثر عدد الأسرى ، وكان بين المأسورين عدد من عظمائهم مثل بيمند صاحب انطاكية والقمص صاحب طرابلس وابن جوسلين (١) .

وحين اتسعت الرقعة التي يحكمها نور الدين استحدث نظام الحمام الهوادي لكي يسيطر بسرعة على أخبار المناطق البعيدة (٢) ، وستُصبح الاستعانة بالحمام شيئاً دقيقاً في العهد الصّلاحي ، وسأوليها مزيداً من الشرح فيما بعد ، وقد فتح الاستيلاء على مصر أمام نور الدّين الإفادة من قدرة الأسطول المصري في مضايقة الفرنجة المقيمين في مدن السّواحل الشاميّة وعرقلة تجارتهم .

وكانت أعمال نور الدين الحربية تتمشّى جنباً إلى جنب مع أعماله العمرانيّة ، واصلاحاته المؤسسة على العدل ودفع المظالم والمكوس ، ورفع المستوى العلمي ببناء المدارس ودور الحديث ، والعناية بالصحة وبراحة الناس حين أنشأ البيمارستانات وأسس الرُّبَط والخانقاهات والخانات ، وفرضت عليه دعوتهُ الناسَ إلى الجهاد أن يحصّن البلاد بالأسوار ، وأن يغرس القلاع والأبراج حيث يرى ذلك ضرورياً ، وأن يكون قدوة في حسن الاستعداد الحربي والنفسي (٣) .

عند هذا الحدّ قد يكون من المستحسن أن نقف لنلقي نظرة على القوتين المتحاربتين على سبيل المقارنة ، فقد رَسَخ تطاول المُدّة في خوض الحرب بين الفريقين بعض المفهومات الأساسيّة ، إذ وضح مثلاً لكليهما أنّ الوجود الصّليبي قد فرض نفسه ، ولم يعد في الامكان اقتلاعُه بسهولة إذ يتطلب ذلك جيوشاً كثيفة جداً أو تغييراً جذرياً في أساليب القتال ، ولهذا اقتصر الفريقان على الهجوم والهجوم المضادّ ، وتلك حركة حربيّة قد تأتي بثمار آنيّة ، ولكنها تُبعد المكتفين بها عن بلوغ نقطة الحسم (٤) .

وقد تردد على هذه الصفحات القول بأنّ الفريقين وجدا أسلوب الحصار من أوفق الأساليب المناسبة لطوبوغرافيّة الأرض وتوزيع القلاع والحصون ، ولكن حين تكون التحصينات قويّة وأدوات الحصار ضعيفة ، يكون الحصار ذاته عمليّة صعبة (٥) .

كذلك بيّنت الدراسةُ غير مَرّةٍ تفضيل نور الدين للاستعانة بخيالة التركمان، وقد عرف هؤلاء بالمرونة والسرعة، وخفة حركة الخيل، وخفة الاسلحة. إذ كانوا في الأغلب رماة، ومعهم إلى جانب قسيّهم

---

(١) الباهر : ١٢٤ ـ ١٢٥ ، والعماد الأصفهاني : سنا البرق الشامي ، تحقيق د. رمضان ششن ، بيروت (١٩٧١) ص : ٦١ ـ ٦٢ .

(٢) الباهر : ١٥٩ .

(٣) المصدر السابق : ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ـ ١٧٢ .

(٤) Smail , P. : 66 - 67 .

(٥) Op. Cit .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدرعُ والرمحُ والسيف والهراوة، وكانوا يطلقون السّهام من على ظهر الفرس دون توقف أو ترجّل، وفي حالة التراجع كان يمكن للواحد أن يستدير في جلسته على السرّج ويرمي بالسهام مَن يُطارده (١) .

أمّا الجيش الصليبي فكان يتألف من المرتزقة ، ومن الحجاج وبخاصة من يأتون من المدن الإيطالية ، وكان الحجاج يفدون للاحتفال بالفصح كلّ عام في البلاد المقدسة ، غير أن المنظمات العسكرية أمثال الداوية (فرسان الهيكل) والاسبتاريّة كانوا من أشد المحاربين نكاية وترجيحاً لميزان الحرب (٢) . وحين كان يتمّ الاستنفار كانت الفرق التي تُدعى إلى الحرب تجيء من القلاع والمدن المسوّرة لتكوين جيش ميداني ، ولكن مبارحة تلك الفرق لمساكنها كان يترك تلك المساكن خالية من حامياتها ، وكان ذلك كلُه يعني أنها تعجز عن صدّ مَن يهاجمونها (٣) .

ها قد وصل البحث إلى الموطن الذي قد يعرض فيه التساؤل حول طبيعة مشاركة النثر والشعر في تصوير الناحية الحربيّة خلال هذه المرحلة (الزنكيّة) ، ويبدو أنّ عهد عماد الدين والجزء الأكبر من عهد ابنه الملك العادل نور الدين كان ما يزال يبحث عن الكاتب الذي يستطيع أن يتمثّل ما كان يجري من مخاض نحو خروج البلاد الاسلامية من ربقة الاسار الصليبي ، وما كان يواكب ذلك كلّه من حركة توحيديّة ، تمشي ببطء غير مجرّد من الثقة بالنجاح ، ولم يتمّ العثور على الكاتب الملائم إلاّ حين دخل العماد الأصفهاني في خدمة نور الدين (٥٦٢ / ١١٦٧) ، وقد شهد ديوان الرّسائل على يد العماد نقلة جديدة ، إذ كانت الكتابة قبل العماد على غاية من الرّكاكة، فاخترع لها اسلوباً لم يكن معروفاً من قبل، وصار نُواب ديوان نور الدين يستغربون طريقة العماد ويستهزئون بها ويهمزون ويلمزون، فقابل كلّ ذلك بالصّبر والمداراة (٤) .

ولقد قام المؤرّخ ـ مثل ابن الأثير ـ بدوره ودَور الكاتب المترسّل معاً ، لذلك سنحسّ أنّ النثر الفني لم يكن له دور واضح في تصوير فنّ الحرب أيام عماد الدين ونور الدين ، وهذا يعني أنّه لم يبق أمامنا سوى الشعر ، وقد واكب الأعمال الحربيّة للرجلين اثنان من الشعراء ، لم يتركا عملاً حربياً دون أن يتخذا منه فرصة لمدح كلّ من عماد الدين وابنه ، وذانك الشاعران هما ابن القيسراني ★ وابن مُنير ★ ، على أنّ وفاة الشاعرين عام ٥٤٨ / ١١٥٣ أي قبل وفاة نور الدين بحوالي عشرين سنة ، تركت الجانب الأكبر من جهود الملك العادل فاقدة للمواقف الشعريّة المنظّمة في تخليدها والتغنّي بها .

وأرى من المناسب أن أنشر هنا بعض الملاحظات عن الشعر في هذه الفترة ، وعن مدى علاقته بموضوع مثل فنّ الحرب ، لكي تتضّح أبعاد الدراسة وامكاناتها منذ البداية دون لبس ، على أن يتمّ ذلك

---

(١) Smail , PP. : 77 - 78 .

(٢) Op. Cit , PP. : 93 - 95 .

(٣) Op. Cit , PP. : 104 - 105 .

(٤) سنا البرق الشامي : ٦٧ ـ ٦٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بإيجاز فأقول : كان يعاصر عماد الدين في بدايات أمره عدد من الأمراء ، وكان لبعضهم وقفات ضدّ الصليبيين ، مثل تاج الملوك بوري الذي استطاع أن يصدّ الفرنج عن دمشق سنة ٥٢٣ / ١١٢٩ ، ولابن القيسراني قصيدة يمدحه بها في تلك المناسبة (١) ، وإنّما أذكر هذه الحقيقة في هذا الموطن لأنها مهمّة في إجراء المقارنة بين مدائح ابن القيسراني في عماد الدين أو نور الدين ، وبين ما قاله في تاج الملوك ، فلم يرفع تاج الملوك راية الجهاد ولم يكن لديه ما لدى عماد الدين من قدرة حربيّة فذّة ، ولم يكن يتمتع بما عرف عن نور الدين من تطبيق للعدل ورحمة للناس وغيرة على الاسلام ، ومع ذلك فإن قصيدة ابن القيسراني في تاج الملوك تُقدّم للدارس ما يتناسب مع الموضوع الذي تدور حوله هذه الدراسة بأكثر من معظم القصائد في عماد الدين ونور الدّين : إنها قصيدة لا تسأم الحديث عن الخيل ودورها في الحرب ، وهي من حيث التصوير تتمتع بِجَوٍّ يَشِي بالفرح والحبور لما يَشيع فيها من صور الابتسام والضحك ، ولا ريب أنّ ذلك كلّه مقترن بجوّ النصرّ (٢) :

وقفتَ في الجيش والأعلامُ خافقةٌ ... بالنصرّ ، كُلُّ قناةٍ فوقَها عَلَم
أتبعتَ جِنّ سراياهم مُضَمّرَةً ... فيها نجومٌ إذا جَدّ الوغى رَجموا
والنصرُ دَانٍ وخيلُ اللّه مقبلةٌ ... ترجو الشهادة في الهيجا وتغتنم

لماذا كان الأمر كذلك ؟ أكبر الظنّ لأنّ تاج الملوك لا يتمتّع بفضائل كثيرة يقف الشاعر عندها ، ولذلك فإنّ الشاعر يجعل هَمّه الحديث عن أبرز ما أدّاه ممدوحه وهو الاضطلاع بعبء الحرب ، بَيْنا لو أخذ يتحدث عن عدل نور الدين لاستغرق الموضوع كُلّ قصيدته ، ولم يحتج إلى أن يحدثنا بشيء عن فَنّ الحرب وما يتصّل به . إنّ ذكر الحرب قد يتضاءل أحياناً أمام ما كان يميز نور الدين من التحلّي بمكارم الأخلاق ، ولهذا نكاد نجد في كل قصيدة إلحاحاً خاصّاً على نشره للعدالة بين الناس ، وإيثاره التقى والصلاح حتى لكأنّه وليّ من الأولياء (٣) :

قد هديت الملوك للعدل لمّا ... سِرتَ في الناس سيرةَ الخلفاء
قاسماً ما ملكت في الناس حتى ... لقسمت التُّقى على الأتقياء
شِيَمُ الصّالحين في حَبَرَ التّرْ ... ك وكم من سكينة في قَباء
أنتَ حيناً تُقاس بالأسد الوَرْ ... د وحيناً تُعَدّ في الأولياء
وكأنّ القَباءَ منكَ لماضمّ ... من الطُّهر مسجدٌ بقُباء
رأفة في شهامة وعفافٌ ... في اقتدارٍ وسطوةٌ في حَياء

(١) أبوشامه المقدسي : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، صورة بيروت عن الطبعة المصرية (١٢٨٨هـ) ١ : ٥٤ .
(٢) كتاب الرّوضتين (دار الجيل) ١ : ٥٤ .
(٣) لابن القيسراني في الروضتين : ١ : ١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا نَسق جميل مسترسل في هدوء . والصورة تكبر وتتسع أبعادها على امتداد القصيدة . ولكن في حالة أخرى نجد أن تداعي الألفاظ والمعاني هو الذي يحكم بقيّة القصيدة ، وقد يشتطّ هذا التداعي فينأى عن حقيقة الجيش أو حقيقة المعركة أو أهميّة الأداة الحربيّة ، فكلمة «العوان» في وصف الحرب هي التي جَرّت في طريقها عبارة « المعقل البكر » واقتران « المهابة » بأن تكون « طليعة » هو الذي استدعى ذكر الجيش (١) :

ما زفّت الحرب العوان به ... إلاّ انجلت عن معقل بكر
ملك مهابتُه طليعتُه ... أبداً أمام جيوشه تسري

وهذا كلّه يوحي بجوّ الحرب ، ولكنّه لا يتعمقها ، ولا يمنحها خصائص جديدة ، ولا يستطيع ذلك ، وإنما يقف عند ظواهر الأمور ويربط بينها ربطاً لفظياً في أغلب الأحوال :

كم فَلّ كيدَهم بصاعقةٍ ... شَغَلت قلوبَهم عن الفكر
تركت حصونَهمُ سجونَهمُ ... فالقوم قبل الأسر في أسر
عصَم العواصمَ فهي ضاحِكةٌ ... تجلو الظُّبا ثغراً على الشَّغر
فإذا سرايا خيلِه قَتَلت ... نهضت سرايا الخوفِ والذُّعر
ورمى القلاعَ بمثل جَندلها ... حتّى استكان الصخرُ بالصَّخر

واضحٌ أنّ الشاعر يتحدّث عن حصار ، وأنّ الممدوح رمى المحصورين بصاعقة (منجنيقات أو ما شابه) تركتهم أسرى داخل حصونهم قبل أن يستسلموا لأسر حقيقي (ثم يأتي بيت «عصم العواصم» فيكسر تسلسل الأحداث) ولهذا الممدوح دَوْرتان في تناوب السّرايا ، فبعد سرايا الخيل المغيرة على هذا العدوّ ، تنقض عليه سرايا الخوف والذعر ، وهو ما يزال يدكّ القلاع الصخرية بمقذوفات صخريّة . ولا يخطىء القارىء أن يكتشف اهتمام الشاعر بالتركيز على عمليّات الرمي بالمنجنيق ، ولكن كم تراه أضاف إلى المعروف من فَنّ الحرب ، وكم قدّم لنا من جَديد في هذا السّياق ؟ .

وقد يقف من يعترض هنا على أن يكون من مهمة الشّعر الإضافةُ إلى المعرفة ، وهو اعتراض صحيح ، وإنما يلمح الدارس هنا دون أن يفيض في الإيضاح إلى أنّ الشعر تعتريه بحكم طبيعته ضروبٌ من القصور تقعد به عن أن يكون وثيقة تاريخيّة ، وكل محاولة لاخضاعه لهذه الغاية تكشف عن ضعف شديد ، وتفضح سطحيّة هذا التوجّه . ولهذا فلن يتعرّض البحث لاعطاء الشعر دوراً أكبر من دوره الفنّي ، وبخاصّة في الصّورة الكبرى ، والمقصود بالصّورة الكبرى أن يقف الشاعر وقفة المتنبّي عند «الحدث الحمراء» يمزج الصورة بالحقيقة التاريخيّة ، وينتقل في السموّ من مرحلة إلى أخرى ، ويخرج القارىء من

(١) لابن القيراني في الروضتين : ١ : ١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القصيدة وكأنّه شهد أدوار الحصار ومراحل القتال ، وثمّة شيء من هذا الذي أعنيه في قصيدة لابن القيسراني يمدح فيها نور الدين فيجمع بين حقيقة الاستعداد الحربي ، والسموّ المتدرّج الذي قد يبلغ بالناس أن يظنّوا إذا رأوا نور الدّين أنه هو القائم (الذي يملأ الأرض عدلاً بعد ان ملئت جوراً) وقد أظلّ زمانُه (١) :

حَصَّن بلادك هيبةً لا رهْبَةً ... فالدرع من عُدد الشجاع الحازم

هيهات يطمع في محلك طامع ... طال البناء على يمين الهادم

كلّفتَ همتك السموّ فحلّقت ... فكأنّما هي دعوة في ظالم

وأظنّ أنّ الناسَ لمّا لم يَرو ... عدلاً كعدلك أرجفوا بالقائم

هذه إشارات وحسب ، أردت منها أن تُحدِّدَ مسار الموضوع ، وتومئ إلى مرتكزات منهجه ، وأرجو أن تكون كافية في دلالاتها ، فلا أتعرّض لها بالتكرار في مواطن لاحقة .

٣ ـ المرحلة الأيوبية الأولى (الصّلاحية) ٥٦٩ - ٥٨٩ / ١١٧٤ - ١١٩٣ :

اتبّع صلاح الدين المنهج السياسي العامّ الذي وضع أسسه نور الدين ، وهو توحيد القوى الاسلامية في «الشرق الادنى» تحت قيادته ، ومن أجل تحقيق ذلك اعتنق كل منهما فكرة الجهاد ضد الفرنجة (٢) إلاّ أنّ صلاح الدين وسّع مجال التطبيق لتلك الفكرة ، وكان أسرع حركةً في تنفيذها ، وإن لم يعدم أن يواجه عقبات من نوع يختلف أحياناً عن العقبات التي واجهها نور الدين ، وكان في مقدمة تلك العقبات الإجهاد الذي يصيب العساكر ، وبخاصّة في حطين والسنوات الثلاث أو الأربع التي تلتها ، ففي هذه المدّة حقّق صلاح الدين أضعاف ما حقّقه في سنوات حكمه الأخرى ، وكان حركة دائبة لا تعرف الرّاحة أو الملل ، وكثيراً ما اضطرّ أمراء الجيوش إلى أن يطلبوا «الدستور» لجنودهم (أي تسريحهم للراحة) ، وأن يُلحّوا في الطلب أحياناً حتى يبلغوا به حدّ التذمّر . وقد عكست هذه الحقيقة نفسها على مجلس الشورى الذي كان يعقده صلاح الدين كلما واجه مسألة من المسائل ، إذ إنّ مجموع آراء ذلك المجلس قلّما وافق رأيه ، ولكنه كان ينزل على رأي الجماعة ولا يستبدّ برأي دونهم .

وقد كان اعتماد نور الدّين مقتصراً في الأغلب على العساكر الشاميّة ، وهي لا تستطيع وحدها أن تحقّقَ الغاية الكبرى التي رسمها كلٌّ من الرجلين ، ولذلك كان لابُدّ لكلٍّ منهما من ايجاد قوىً إضافية ، فكان اعتماد نور الدين – كما ذكرت من قبل – إلى جانب الجيوش النظامية على العناصر التركمانية التي تقنع

(١) لابن القيسراني يمدح نور الدين في الروضتين : ١ : ٢٠ .

(٢) Mayer , P. : 126 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالغنائم وبأعطيات غير نظاميّة . وظلّ صلاح الدين يفيد من العناصر التركمانية (١) ولكن على نحو أقلّ ، إذ أُتيح له أن يجمع جهود الجيش المصري إلى جهود الجيش الشامي ، وأن يبني الأسطول المصري أو أن يُقوّيه ، ويزيد في أنواع وحداته ، وأن يستغلّه في حصار صور ، بحيث يكون حصاراً مزدوجاً في البرّ والبحر (٢) . وكان بعيد النظر في عقد التحالفات الّتي تضعف من شأن العدوّ ، فقد حاول أن يقنع المدن الايطالية البحرية بأن تنقل تجارتها إلى مصر لكي يحرم الفرنجة من أي عون قد يأتيهم من تلك الناحية ، وقام باتصالات دبلوماسية مع بيزنطة (٣) . وطلب العون من أسطول الموحّدين ، وإن لم تتحقق أمنياته دائمًا ، بل إنّه طرح على أرباب الشورى ـ ذات مرّة ـ أيّ القاعدتين في الصلح يقبل : القاعدة التي طرحها ريكاردوس قلب الأسد ، أو القاعدة التي طرحها المركيس صاحب صور ، مع العلم بأن المركيس في الحالة الثانية يُصبح حليفاً للمسلمين على الفرنج ، يجاهر الفرنج بالعداوة ويقاتلهم (٤) ، وبذلك يحدث صدعٌ له أثره في الكيان الصّليبي ؟!

لقد كانت معركة شرسة تمّ تصعيدها ، وقبل هوَ التحدّي من جميع نواحيه : كان يعلم أن البحر مفتوح لوصول الأمداد والمؤن وأنه ليس له سيطرة قوية عليه ، ولهذا فلابُدّ من استباق الأحداث ، فكان يقول لمن يطمئن إليه : (٥) «هذا العدوّ إن بقي وطال أمره إلى أن ينفتح البحر جاءه مدد عظيم ، والرأي كلّ الرأي عندي في مناجزتهم» . وكانت أدوات القتال عند العدوّ تتغيرّ فكان لابُدّ أن تظلّ لديه أدوات تستطيع مواجهتها (٦) ، وكانت سفن الأعداء متنوعة ، فلابُدّ أن يكون لديه أسطول يقوم – على الأقل – بالخدمات البحريّة الضرورية ، وكان العدو يلجأ إلى الحيَل ، ولابُدّ له منها ، ولو جعل بعض عسكره يلبسون ملابس الفرنجة ويحلقون لحاهم مثلهم ويعلّقون الصُّلبان (٧) .

وكانت بعض الأساليب الحربيّة قد أثبتت أنها ماتزال صالحة ، فلا ضير من اللجوء إليها ، ولا بأس من بعض التحسين أو التغيير إن اقتضى الأمر ذلك ، كان يؤمن بسياسة الأرض المحروقة ، حين يقارن بين أمرين أحلاهما مُرّ : ولذلك قرّر في إحدى اللحظات أن يفسد جميع ماحول القدس من المياه ، فأخرب الصهاريج والجِباب ، بحيث لم يبق حول القدس ما يُشرب ، وأن يخرّبَ عسقلان ، ثم أن يخرّب اللّد

---

(١) النوادر السلطانية : ١٨٢ .

(٢) المصدر السابق : ٨٣ .

(٣) Mayer .P. : 126 .

(٤) النوادر السلطانية : ٢٠٣ .

(٥) المصدر السابق : ١١٤ .

(٦) سيأتي توضيح ذلك بالأمثلة في موضعه .

(٧) النوادر السلطانية : ١٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقلعة الرّملة وقلعة النطرون (١) ، وكان يعتمد أسلوب الكمائن (٢) ، وكان أحياناً يكثر منه (٣) ، ولهذا الإكثار أسبابه الداعية إليه ، وكان يرى أنّ أسلوب نصب الكمين يمكن أن يجتمع مع أسلوب التراجع الصّوري (٤) . كان يُنوّع ويجتهد ، ولكنه كان كثير الحمل على نفسه ، يرى الرأي الذي يُرضي اللّه ويخدم مصلحة الأُمّة ، ويضطرّ إلى مخالفته أو عدم تنفيذه لأنّ مجلس الشورى كانت له حسابات مختلفة ، ولعلّه لهذا السّبب كان يُصاب بما يسميّه ابن شدّاد «التياث مزاجي» بين الحين والحين (٥) .

ولم يكن يؤتى من غفلة أو تهاون ، فقد كان يقظاً متنبهاً ، بل شديد اليقظة والتنبّه ، فِكرُه معقودٌ ليل نهار بالغاية التي نصّب نفسه لتحقيقها ، يبثّ العيون ، ويطالع كلّ تغيّر ليستغلّه ، إذا حَلّ الشتاء شحن عكّا بالميرة والعُدَد والذخائر والأسلحة والرجال ، لأنّه يعلم تمام العلم أنّ العدوّ لا يمكن أن يصبر طويلاً على خروجها من يده ، ورتّب لها أسطولاً بناه بمصر ، يتّسع لناس كثيرين ، ثمّ هو يدخل المدينة مُراغمةً للعدوان ومُكايدةً له ، وهو يعلم أنّ الانصياع للثّقة الذاتيّة غيرُ عارٍ من الخطر (٦) .

ولمّا كانت بعض الاجراءات بين عدوّين متقابلين وليدة فعل وردّ فعل فإننا نزداد فهماً لحركات صلاح الدين والجيوش الاسلامية التي تقع تحت سيطرته إذا نحن فهمنا بعض ما كان يميّز العدوّ من النواحي المختلفة . وأول ما يجب ان نتذكره أنّ الحملة الصليبيّة الثالثة قد جاءت إلى المشرق بقائد قدير ذي شجاعة وبراعة وحزم ، قادر على استغلال المماطلة ليفقد خصمه بعض صبره ، مُتقلّبٍ عمداً في ما يراه اليوم عَماً كان رآه أمس ليزيد أعداءه نشوباً في الحيرة والاحباط وذلك هو ريكاردوس قلبُ الأسد .

فأمّا الفرنجة أنفسهم فكان عادتهم التشاور على ظهور الخيل ، ولا يُبرمون أمراً إلاّ بعد مشورة ، ويختارون من بينهم عدداً من الرجال يحكّمونهم ويَقبلون بما حَكموه ولا يخالفونهم (٧) وهم في حرصهم على الشورى لا يقلّون عن صلاح الدين احتكاماً إليها ، وكانوا قد تعوّدوا عاداتٍ لا يتنازلون عنها ، فإذا نزلوا إلى الارض يئس المسلمون من بلوغ غرض منهم لأنهم يحتمون في حالة النزول حماية عظيمة (٨) . يقول العماد الأصفهاني (٩) : «إذا نزلوا صَعُب نزالهم ، وإذا ثَبتوا تعذّر قصدُهم» ، أي لم يكن من السّهل استفزازهم ، بل كانت لديهم مناعة ضدّ الاستثارة ، فلم يكن من السّهل جرّهم إلى المعركة . ففي سنة

(١) النوادر السلطانية : ١٣ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢١٥ .
(٢) المصدر السابق : ١٠١ ، ١٥٠ ـ ١٥١ .
(٣) المصدر نفسه : ص : ٢٠٠ .
(٤) المصدر نفسه : ص : ١٠١ .
(٥) المصدر نفسه : ص : ١١٤ .
(٦) المصدر نفسه : ص : ١١٧ ، ١١٨ .
(٧) المصدر نفسه : ١٢ .
(٨) المصدر نفسه : ٢٥ .
(٩) الفيح القسيّ : ٢٩٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥٧٩ / ١١٨٣ توّجه الفرنج من صفورية الى الفولة ، فعبّأ صلاح الدين الجيش للّقاء ، وغرضه الوصول إلى المصافّ ، ولكنّ الفرنجة أبوا أن يفعلوا ذلك ، لأنهم كانوا يرون أنّ المصاف في غير مصلحتهم . ولّما رأى السلطان أنهم لا يخرجون ولا يُستدرَجون ارتحل نحو الطّور ، وأكثرَ من رَمي النُشّاب عليهم لاستفزازهم ، فلم يتحولوا وأبوا أن يخرجوا إلى المصافّ (١) ، ذلك كان دأبهم في كلّ مرحلة إذا رأوا أنّ المَصافّ ليس في صالحهم ، وذلك كان دأبه : الاصرار على استفزازهم بطريقة ما للدخول في معركة ، وقد ظلّوا على تمنعهم قبل حِطّين ، فلمّا هاجم مدينة طَبريّة نفسَها ، وامتدت الأيدي إليها بالنهب والأسر والحريق والقتل ، فقدوا صبرهم وتمّ الالتحام (٢) . وقد أشرت من قبل إلى أن الصليبيين كانوا أكثر ارتياحاً لخطط الحصار ، حاصروا هم أو حوصروا ، وأنهم كانوا يتجنّبون ما أمكن التورّط في معركة ميدانية ، ولكن استعداد الحصن المحاصَر أو المدينة المحاصَرة بتوفير المؤن والغذاء قلّما يصلُ بالحصار إلى النقطة الحاسمة ، لأن الجيش الذي يمارس الحصار لابُدّ له من التوقّف كُلّما حَلّ الشتاء ، كما أنّ الحصارَ قليلُ الجدوى إذا كانت المدينة المحاصرة كبيرة - بحجم الموصل - لا حيلة في إخضاعها إلاّ بإضعاف قلاعها واحدة بعد أخرى والاستيلاء على تلك القلاع (٣) .

إنّ شيئاً من تصوّر الخطّ البياني لتحركّات صلاح الدين يبدو ضرورياً في هذا المقام ، فبعد وفاة نور الدين كان همّ صلاح الدين أن يطمئن إلى أنّ الشام لن تكون خارجة عن حكمه ، ولهذا توجّه من مصر إلى الشام ودخل دمشق ، وتأكّد من ولاء حمص ، وتوجّه إلى حلب ، ولم يستخلصها لنفسه منذ أول زيارة، ولم يُصَب الخط البياني بانحدار جزئي في صعوده إلاّ سنة ٥٧٣ / ١١٧٧ حين أُصيب صلاح الدين بأوّل انكسار عند الرّملة ، وأخذ يتردد كثيراً بين مصر والشام محكماً توحيد الهدف بين البلدين ، بينما كان أخوه يحكم اليمن باسمه ، وأخذ يتمرّس بأمنع المراكز الصليبية ، وهي الكرك سنة (٥٧٩ / ١١٨٣) ثم أعاد عليها الكرّة في السّنة التالية ، وكان اهتمامه بالكرك ناتجاً عن توسّط هذا المركز بين مصر وشمال الشام، وتمكّنه من قطع طريق تجاري رئيسي أو التحكّم فيه ، إذ كانت قوافل التجارة لا تجسر على العبور بالكرك إلاّ في حماية عساكر كثيرة (٤) ، وكان حرص الفرنج على سلامة الكرك وبقائها في أيديهم ممّا أيأس صلاح الدين من الاستيلاء عليها ، فوجّه أنظاره إلى نقطة أضعف ، فهاجمت قواته نابلس وجانين (جينين) لكنه لم ييأس وعاود الكرّة على الكرك ٥٨٣ / ١١٨٧ ، وفي العام نفسه خاض معركة حطّين وأحرز أكبر انتصار وأبعدَه أثراً ، وبعد حطين أخذ عِقد الأماكن التابعة للفرنجة بالانفراط ، فسقطت عكّا وبيروت

(١) النوادر السلطانية : ٦٢ ـ ٦٣ .
(٢) المصدر السابق : ٧٥ ، ٧٦ .
(٣) المصدر نفسه : ٥٧ .
(٤) المصدر نفسه : ٧٩ ـ ٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعسقلان والرّملة ويبُنى والدّارون وغزّة وبيت جِبرين والنّطرون ، وهكذا وسّع دائرة نفوذه حول القدس فتمّ له فتحُها ، وامتنعت عليه صور ، وسَلّمت مدن ساحلية كثيرة مثلُ اللاذقية وجبلة وانطرطوس (١) .

هنا بدأ ردّ فعل الفرنج بمحاولة استرجاع عكّا ، فأحاطوا بالمدينة ، واستولوا على التلال المحيطة بها ، وفي أثناء تقلّب الأمور بين مَدّ وجزر وصلت الحملة الصليبيّة الثالثة وفيها ملك الفرنسيس وملك الانجليز ، وأخذت مقادير المدينة بل مقادير الحرب كلُّها بالتحوّل ، وبخاصة حين انحاز صلاح الدين بمعظم الجيش إلى تلّ العيّاضية ، ولم يعد قادراً على المبادرة السريعة ليُعين المحاصَرين في داخل المدينة ، وتوالت محاولات الافادة من أدوات حصار جديدة ، ولكنّ الوقت لم يكن حليفاً للمسلمين . ورأى الانكتار (ريكاردوس) أن يكتفي - مادام المدافعون عن المدينة قلّة ضئيلة - بمتابعة تسليط المنجنيقات على سورها بضرب متواصل ، وبعد مُدّة قصيرة تخلخل سور البلد وضعف بنيانه ، وتهيأ العدو للزحف على البلد من كل جانب ، وتناوبَ العملَ فِرَقٌ متعاقبة ، كلما تعبت فرقة أخلدت إلى الراحة ونابت منابها فرقة أخرى ، وكانت العلاقة بين صلاح الدين والمدافعين عن البلد هي دقّ الكوس ، وفعلاً دقّ الكوس وركب العسكر جميعاً ، وهاجموا خنادق الأعداء حتى دخلوا فيها ، وصلاح الدين يطوف على فرسه من طُلب إلى طُلبْ ويحثّ الناس على الجهاد ، ثم عاد فاستأنف الهجوم في السَّحَر بعد دقّ الكوس مرّة اخرى، وكان هجوماً عنيفاً لأنّ السُّلطان استيقن أنّ أهل البلد يحُدّثون نفوسهم بالتسليم ، وكان ذلك ضربة في الصميم إن تمّ ، لأنّ عكّا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر كما احتوت على كبار أمراء العسكر وشجعان الاسلام ، وقد ثبت النّاسُ بقيّة اليوم ، ولكنّ نفوس العساكر كانت قد خارت ، واشتدّ ضعف البلد ، واشتدّ بالمقابل ثبات الفرنج على عدم الصُّلح إلاّ بشرطين هما : (١) اطلاق جميع أسرى الفرنج . (٢) إعادة البلاد الساحلية إلى الفرنج . وتمّ الاتفاق على المصالحة مقابل أن يأخذ الفرنج البلد وكلَّ ما فيه من آلات وعُدَّة ومراكب ، ومائتي ألف دينار ، وألفاً وخمسمائة أسير مجاهيل ، ومائةً من الأسرى المعروفين ، وتسليم صليب الصّلبوت .

ولم يوافق صلاح الدين على هذه الشروط ، وجمع أرباب المشورة ليقف على آرائهم ، ويبدو أنّ المحاصَرين استَبَقوا كُلَّ إجراء آخر مخافة أن يسقط البلد عنوة في أيدي الأعداء ، ولهذا ارتفعت أعلام الصليبيين فجأة على أسوار البلد ، قبل أن يستطيع صلاح الدين تدبّر الأمر ، وفي مثل ذلك الموقف العصيب لم يكن في مقدوره أن ينقذ الناس ممّا صاروا إليه ، ولا أن يمنعهم من طلب النجاة لأنفسهم ، وكانت هذه النهاية من أصعب ما واجهه صلاح الدين ، خصوصاً وأنّ ريكاردوس حين استبطأ السّلطان في تنفيذ شروط الصلح أنحى على الأسرى بالسّيف فقتلهم جميعاً .

(١) النوادر السلطانية : ٦٣ ـ ٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ترى كيف يعلّل العارفون بفنّ الحرب ضياع عكّا ؟ مهما تكن تعليلاتهم فإنها قد لا تنسب ذلك إلى التقصير في بذل كل الجهود الممكنة للحيلولة دون سقوطها ، ولكن لعلّهم ينظرون إلى المسألة من زوايا أخرى ، منها : عدمُ تقدير صلاح الدّين لضخامة القوّة التي وردت من وراء البحر وجدّة معدّاتها ، واستمرار ضعف الاسطول الاسلامي بالنسبة إلى الأساطيل الأوروبية والانجليزية ، واتساعُ مسافة الخُلف بين القائد الأعلى المسلم وبين الأمراء التابعين له ، وقد حاول صلاح الدين أن يُعيد درس حطّين في زحفه على محاذاة الجيش الصليبي وجَرّه إلى خوض معركة عند أرسوف ، والحقيقةُ أنّ محاولاتِ صلاح الدين كانت جميعاً مؤيّدةً بحماسته الذاتية ، وهي حماسة تبددت عند الآخرين بسبب تراكم التعب ، وشيوع روح التّخاذل ، وهنا تبدأ مفاوضات عقيمة ، وكان الغرض منها في بعض مراحلها المطاولة ، وكانت مُغرية لمن يطلبون السّلامة ، ولم يعش صلاح الدين طويلاً بعد إبرام الصّلح ، وكان في نفسه منه الكثير (١) .

فإذا تحوّل الدارس - بعد هذا - إلى الحديث عن صورة فنّ الحرب اعتماداً على الأدب من شعر ونثر ، لم يكن في حاجة إلى وضع التحفظّات أو تقديم المعاذير ، ذلك لأنّ الفترة الصلاحية هي أغنى فترات الحروب الصّليبيّة بالنصوص النثرية والشعرية التي تضطلع بنقل هذه الصورة ، ولذا لم يكن من المستغرب أن تطغى على ما قبلها وما بعدها من عهود ، دون أن يكون في ذلك أدنى أثر لتحيّز الدّارس . وإذا كان النثر في ما سبقها من فترات غير ذي دور واضح في هذا المجال ، فهو في عهد صلاح الدين منافس قويٌ جدّاً للشعر ، صحيح أنّ الشعر اتسّع مجاله وكثر عدد المشاركين فيه من الشام ومصر والعراق ، أي أصبح مجال منافسة واسعة ، ولكنّ هذا لا يعني أنّ النثر كان أقلّ منه حَظّاً ، فقد أتيح لهذا العصر أن يكون له شاهدان قويّان هما العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل ، ويجيء في أعقابهما ضياء الدين ابن الأثير ، والأوّلان ممّن يصدق عليهما الجمع بين دوري المؤرّخ والنّاثر ، إذ الخط الفاصل هنا بين التاريخ والنثر الفني ضئيل جداً ، ثم إنّ النّاثِرَين الأوّلين قد شاركا - كما يقال اليوم - في القرار السياسي ، وحملا مسؤوليةً إداريةً كبيرة . وإذا كان الخطّ الفاصل لديهما بين التاريخ والنثر الفني ضئيلاً جدّاً ، فإنهما يكادان لا يرسمان أي خطّ بين الشعر والنثر ، ففي البرق الشامي للعماد الأصفهاني ـ مثلاً ـ نجد مع الشّعر والنّثر قطعاً من الترجمة الذاتية ، بل نجد للحادثة الواحدة عدّة صور شديدة التفاوت أحياناً في ما بينها ، والسّبب في تعدّد الصور أنّ الكاتب أرسل عدّة رسائل ، كل رسالة تتناول الموضوع نفسه مع اعتماد صياغات مختلفة .

---

(١) سياق هذا التصور كله يتفق والكتب التاريخيّة في سرد الأحداث وأكثرها في هذه الفترة عيال على النوادر السلطانيّة ، ص: ٥٠ ـ ٢٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤ - المرحلة الأيوبية الثانية (٥٨٩ - ٦٥٥ / ١١٩٣ - ١٢٥٨) :

على الرّغم من أنها مرحلة طويلة نسبيّاً فإنّ الدور الصّليبي فيها يبدو هامشياً في معظمه ، وقد شهدت تجزئة الدولة الصّلاحية بين أبناء صلاح الدين وعمّهم العادل ، ثُمّ بين العادل وبنيه ، وكانت عملية التّجزئة إلى وحدات أصغر مستمرّة ، وهذا كان يفسد العلاقات بين الاقرباء كما يستتبع التقلّب في التحالفات ، وفي أثنائها ظهرت قوى جديدة كانت إلى جانب الصليبيين فاعِلةً في تاريخ المنطقة وفي رسم علاقات جديدة للدوَيلات الأيوبيّة المتنافسة .

وكان من أهمّ الحملات الصليبية التي تَلت الحملة الثالثة، الحملةُ الخامسة، وقد توجهت إلى مصر، لأنها كانت تعتقد - مثلما اعتقد صلاح الدين ذات يوم - أنّ مفتاح البلاد المقدّسة موجود في مصر (١) ، وحين نزل الصليبيون منطقة دمياط وحاصروا المدينة كان العادل أبو بكر في الشام ، وكان ينوب عنه ابنه الكامل في حكم مصر ، وقد سارع الكامل لصدّ الغزو الفرنجي ، وطالت اقامة الغزاة حول دمياط حتّى بدأ المرض ينتشر بين الجند ويوهن من قدرتهم على المصابرة ، واجتمع ذلك عليهم مع قلّة الأقوات ، فاستسلم من بقي منهم على قيد الحياة ، وبذلك انتهى الوجه الأوّل من معركة دمياط .

وتوفي الملك العادل بعد قليل وخلفه في الشام ابنهُ الملك المعظم عيسى، وفي مصر ابنُهُ الكامل محمد، ثم في الجزيرة ابنُهُ الأشرف موسى ، وكانت مهمة الكامل أن يحاول إخراج الفرنجة من بلده ، ولهذا أخذ يوالي ارسال الرّسائل طالباً النجدّة من الدّويلات الاسلامية في الشام والجزيرة وغيرهما ، وبنى مدينة سَمّاها المنصورة وسَوّرَها ، ونجحت مراسلات الكامل إذ أخذت النجدات في الوصول ، وفي المقابل أخذت أفواج الفرنجة تتدفّق على دمياط ، وتبيّن الفرنجة أنّ الصّلحَ أجدى عليهم حين رأوا كثرة العساكر الاسلامية إزاءهم . وفي تلك الأثناء جرى تفجيرُ النّيل وفيضانُ مائه على ما حَوله من أرض ، فكان انحصارُ الفرنجة خلفَ مساحات غارقة في الماء أشدَّ عليهم من الحرب نفسها ، ولهذا تنازلوا عن شروط مُتَغطرسَةٍ كانوا يطالبون بها مقابل انسحابهم من مصر ، وجرى إرسالُ مقدَّمَي الداوية والتيوتون ليُعلنا تسليم دمياط ، وهكذا كان ، وانتهت الحملة الصليبية الخامسة إلى الإخفاق سنة (٦١٨ / ١٢٢١) وكان من نتائجها المباشرة أن خسر التجار الايطاليون مكانتهم في مدينة الاسكندرية (٢) .

وكان الخوف من تعرّض الأرض المقدّسة إلى تجدّد الحملات الصّليبية هو السَّببَ في إقدام المعظَّم عيسى على هدم سور القدس وتخريبِ ما أعاد إلى المدينة ألَقَهَا العُمراني إثر الفتح الصّلاحيّ ، وكل ذلك

(١) ابن واصل الحموي : مُفرّج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق د. جمال الدين الشيّال (القاهرة ١٩٦٠) جـ٣ ص : ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

(٢) ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة د. السيد الباز العريني ، بيروت (١٩٨٠) ٣ : ٣٠١ ـ ٣٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكي يتسلّمها الصليبيون إذا هم قرّروا ذلك ، وهي خراب لا ينتفعون بها كثيراً (١) . ولكنّ دور الصليبيين كان أقرب إلى الهدوء ، فإذا تعكّر ذلك الهدوء ببعض التحرّشات ، كان على المعظم عيسى أنّ يهدّد أو يضرب ، ولكنّ غلبة الهدوء على الجوّ العام فتح الفرصة لخلافات الايّوبيين فيما بينهم ، وتوفي المعظم عيسى (٦٢٤ / ١٢٢٧) وخلفه ابنُه النّاصر داود الّذي دخل حَلْبة الصّراع ، وتنازل عن مدن مقابل أخرى، ولكنّ أكثرَ نشاطه كان محصوراً في الكرك ، وإذا كان المعظم حريصاً على تشجيع العلم مشاركاً فيه، فإنّ ابنه النّاصر كان شاعراً مكثراً .

وظهر تفرّدُ الكامل بعد وفاة المعظّم أخيه ، إذ كان أقوى أولئك الحكّام الأيّوبيين ، يخطب رضاه حُكّام من مناطق بعيدة ، وتشير الروايات إلى أنّ رأسه دار بخمرة العظمة وازداد طُموحه (٢) .

بعد صفحة دمياط يمكن أن يتوقّف الدارس عند صفحة أخرى يقوم فيها الصّليبيون بدور بارز ولكن من منطلق سلمي ، وتلك هي زيارة فردريك الثاني (الأنبرور) صاحب الصّقليتين (صقلية وجنوب ايطاليا) واستردادهُ القدسَ سلمًا . ولهذه الرحلة مُقدّماتٌ تمّت والمعظّمُ على قيد الحياة ، وكان الكامل يريد أن يغيظ المعظّمَ ويُريه أنّه يستطيع القيام بتحالفات مع شخصيّات متميّزة ، وبذل الكامل لفردريك أن يردّ إليه القدسَ سلمًا ، ومَرّ الزمن وتوفّي المعظّمّ ، ولم يعد الكامل بحاجة إلى ذلك الموقف الذي أملتْه ظروف ذهبت إلى غير رجعة . لكن فردريك وصل إلى عكّا مطالباً بتحقيق وَعدٍ سابق ، وبعد مفاوضات وافق الكامل على أن يتسلّم فردريك القدس دونَ سور ، وأن تكون قرى القدس للمسلمين ويكونَ الاقصى والصخرة لهم ، وأن يكون للصليبيين خَطٌّ من القرى بين القدس ويافا . وكان ذلك سنة (٦٢٦ / ١٢٢٩) وبعد عقد هذه الهدنة عاد الإنبرور إلى بلاده (٣) . وقد شنّع الناصر داود على عمّه لإقدامه على هذا العمل وأثار مشاعر الناس ضدّه ، ولكنّ ذلك لم يكن سوى استغلال للحادثة من أجل اجتذاب الناس إليه .

وحين توفي الكامل (٦٣٥ / ١٢٣٨) في دمشق ، طوى الموت آخر أقوى شخصية أيّوبية . فقد كان رجلاً شجاعاً محبّاً للعلم سَخِيّاً عادلاً ، وقد استطاع أن يبثّ الاحترام والهيبةَ في نفوس الناس والعساكر ، وكان يكره الحرب والمؤامرات ، ويؤثر أن يحصل على ما يريده بالتفاوض (٤) .

وكانت أبرز شخصية أيّوبية بعد الكامل هي شخصية الصّالح أيّوب الذي شُغل كثيراً بإعادة تنظيم مملكته وجيشه ، وفي هذا الوقت ظهر على مسرح الأحداث جماعات الخوارزمية ، تلك الفلول التي

---

(١) مُفرّج الكروب ، تحقيق د. حسنين محمد ربيع ، القاهرة (١٩٧٢) ٤ : ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) Sir Hamilton A.R. Gibb, The Aiyubids in a History of the Crusades, ed. by K. M. Selton, The University of Wisconsin Press (1969) Vol. II, P. 703 .

(٣) مُفرّج الكروب ، ٤ : ٢٤١ ـ ٢٤٦ .

(٤) Gibb , P. 705 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انهزمت في أواسط آسيا أمام الزحف المغولي ، وقد كان الخوارزميّة حلفاء للصّالح أيّوب فهاجموا حلب وألحقوا بالجيش الحلبي هزيمة نكراء عند بُزاعَة (٦٣٧ / ١٢٤٠) ونهبوا ريف حلب واستولوا على مَنبج . وفي فلسطين تحالف فرسان الهيكل والناصر داود صاحب الكرك لصدّ حملة مصريّة آتيةٍ من غَزّة ، وبعدها هاجم الصليبيون نابُلُس (١) ، كما أصبح للخوارزميّة دَورُهم في تحالفات الامارات وفي أحداثها .

وفي عام (٦٤١ / ١٢٤٣) اتفق الملكُ الصّالح نجمُ الدّين أيّوب والمنصورُ صاحبُ حمص ، والناصر داود مع الفرنجة على تَسلُّم القدسِ وطبريّة وعسقلانَ وكَوكب ، فتسلّموا ذلك كلّه ، وعمروا قلعتي طبرية وعسقلان ، وكانت كوكب من نصيب الاسبتاريّة (٢) .

وقد نجم عن الزّحف المغولّي سقوط المدن الإسلامية الكبرى : بغداد وحلب ودمشق ، ثم احتلّت جيوشٌ مغوليّةٌ فَرعيّة نابُلُس وغزّة (ولم تصل إلى القدس) وبذا أحاط المغول بالفرنج من كُلّ الجهات (٣) . وبهذا الانتصار المغولي أُضيف إلى محرّكي الأحداث عنصرٌ قويٌّ لم تُنهِكْه الصرّاعات . وكانت هذه القوى الجديدةُ بالاضافة إلى محاولة الملك الصّالح بناءَ أساسٍ مملوكيٍّ ترتكز عليه السيطرة الأيّوبيّة ، قد عجّلت بذهاب الأيّوبيّين ، وأثبتت عينُ جالوت (٦٥٨ / ١٢٦٠) أنّ زمام الأمور أخذ بالتحوّل إلى أيدي أُناسٍ آخرين .

هذا موجز وحسب وهو لا يحاول أن يُغَيّرَ شيئاً فيما يمكن أن تحقّقَه هذه الدراسةُ من نتائج ، وإنّما هو وحسب استكمالٌ لصورة الأيّوبيين من زاوية صِلَتهم ـ في أغلب الأحيان ـ بالحروب الصليبيّة ، وهو من هذه الناحية لا يدّعي أنّه يُقدّم تحليلاً أو يهدف إلى استخراج نتائج .

وحين نلتفت إلى مواكبة الأدب للحرب وفنونها في هذه الفترة ، نجد أنّ هناك شعراءَ كثيرين عايشوا الأحداث ، منهم من اشتهر منذ أيام صلاح الدين أمثال الشاغوري وابن السّاعاتي ، ومنهم من أدركته الشُهرَةُ في الفترة التّالية كابن عُنين والملكِ الأمجد . لكّن الشعرَ الّذي يتحدّث عن الجهاد والحرب قليل ، لأنّ انحساراً عامّاً أصاب العلاقات الحربيّة بين الطرفين ، ولهذا لا نجد إلاّ اشاراتٍ قليلةً كالإشارة إلى أحداث دمياط وأحداث التيمون في قول ابن عُنين (٤) :

وأذكَرْتُـه أيـامَ دمـيـاطَ بـيـنَـنـا ... وبـيـنَ الـعِـدى والموتُ تهوي عـقـابـه
وجـيـشٍ خـلـطـنـاه رحـابَ صـدوره ... بـجـيـش من الأعـداء غُلبٌ رقـابُـه
وقـد شَـرقَـت زرقُ الأسـنّـةِ بـالـدّمـا ... وأنـكـر حَـدَّ المـشرفيّ قِـرابُـه

---

(١) . Gibb , P. 708 - 709 .

(٢) مُفرّج الكروب ، تحقيق د. حسنين محمد ربيع ، ٥ : ٣٣٢ .

(٣) تاريخ الحروب الصليبيّة ٣ : ٥٢٨ .

(٤) ديوان ابن عنين ، تحقيق خليل مردم ، دار صادر ، بيروت (ط٢) ص ٢٠ ـ ٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعـــرَّدَ إلاّ كـــلَّ ذِمْرٍ مُغـــامِـــسٍ ... وَنـــكَّـــب إلاّ كـــلَّ زاكٍ نِـــصـــابُه
تـركـنـاهُـم في الـبَـحـر والبَـرُّ لُحْمَةٌ ... تـقـاسَمُهـم حـيـتـانُه وذئابـه
ويـومـاً عـلى القـيـمـون مـاجَت متـونُه ... بـزرقِ أعـاديـه وغَـصّت شـعـابُه
نَـثـرنـا عـلى الـوادي رؤوسـاً أعـزّة ... لـكُلّ أخـي بـأس مـنـيـعٍ جـنـابُه
ورضـنـا مـلـوك الأرض بـالـبـيض والقنا ... فَذلّ لـنـا مِن كـلّ قـطـرٍ صـعـابُه

ويـمـكـن أن يـسـجّل الـدارس مـلاحظات على الاتّجاه الشّعـري عـامّة في هذه الفترة ، من أهمهـا : التطويلُ في شرح المواجـد العـاطفـيّة ، حـتى لا يكاد الشاعر يقف فيها عند حدّ ، وهذه ظاهرة تستمرّ منذ ابن القـيسراني حـتى الملك الأمجد دون اسـتـثناء كـثير ، ولا يشـذّ عنهـا العماد الاصفهاني ، بل هو من أشدّ الشـعـراء إمعاناً فيها ، على الرُّغم من خصب الموضوع الجهاديّ لَديه ، وقُدرته على أن يحجب اللَّياذَ بالمواجد الذاتيّة أو أن يطغى عليـهـا . ومنهـا أن كـثرة المتميّزين من أمراء الأيّوبيينّ حكمت على الشعراء بأن يتوجهوا بمـدائحـهم إلى الجماعـة الأيّوبيـة لا إلى الفـرد ، وأن يُعمّموا كثيراً ، وقد عادت المدائح تهتَمّ بصفات السّلم كـالكرم والحِلم والسُّؤدد وغير ذلك من مكارم الأخـلاق ، فإذا تحـدث الشـاعـر عن الحرب كان حديثه عامّاً لا تحديدَ فيه ، كقول ابن السّاعاتي في مدح الظّافر : (١)

كـم وقـعَـةٍ أقـدَم فـيـهـا مُصلِتـاً ... حـيـث الـسـهـامُ خـيـفـةً لا تُقـدِم
تـبـكـي الـسـيـوفُ والـعـوالي شـجـوَهـا ... ويـضـحـك الـذئبُ بـهـا والـقَـشـعـم

❊ ❊ ❊

(١) ديوان ابن السـاعاتي ، تحقيق د. أنيس المقدسي ، الجامعة الأميركية ، بيروت (١٩٣٨) ٢ : ٣٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

العسكر الاسلامي في عهد الزنكيّين والأيوبيّين

١ ـ استدعاء العسكر :

كان الجيشُ الاسلاميُّ النظاميُّ في عهد الزنكيينَ والأيوبيين يُمَثّلُ الإمارات التّي دخل أصحابها في علاقة ولاء أو حلفٍ مع السلطان ، ومن الطبيعي أن يكون عددُ تلك الإماراتِ في بداية الدولةِ الزنكيّةِ قليلاً ، وأنّه أخذ يتكاثرُ أيامَ نور الدين ، ثم بلغَ أقصى عدده أيّام صلاح الدّين ، وكان حشدُ الجيوش واستنفارُها للتّجمع يتمّ حسب انتمائها إلى إمارات، ومجموعُ الأعدادِ المستنفرةِ يسمى «العسكر» أو «العساكر» وهي تُطلق في هذا العصر على الجند النظامي . وفي الإعداد الذي تمخّضت عنه حطينّ اجتمعت «العساكرُ الشاميةَ والفراتيّة والجَزْرّية والموصليّة والديار بكريّة» وانضمّ إليهم العسكر المستدعى من الديار المصرية (١) ، وهذا يشمل جميع المناطق التّي تعترف بصلاح الدّين سلطاناً أو دخلت معه في عَقْدٍ من نوع ما ، وهذه الوَحَداتُ وِلاياتٌ أو أقاليم كبيرة . تضمّ مدناً ، ولكل مدينة أيضاً عسكرُها ، فلسنجار عسكر ولشَيْزر عسكر ولدارا عسكر وهكذا (٢) . وينضمّ إلى هذه الوحدات النظاميّة حشود غيرُ نظاميّة من العرب (أي الأعراب) والتركمان (٣) وكان صاحب حَرّان يستطيع أن يُنزل إلى المعركة الأصناف الثلاثة : الجُندَ والعربَ والتركمان (٤) .

ولهذه العساكر قائدٌأعلى أو مُقدّم، ولكلّ وحدة فيها أمير أو أمراء بحسب عددها ، ويختار القائد الأعلى مكاناً صالحاً للمصافّ ، ويجري عرض العساكر في تلك السّاحة ، وليس من الضّروري أن يكون موضع المصافّ والعَرض هو موضعَ المعركة ، لأنّ المعركة تتحكّمُ فيها عوامل مختلفة ، ودائرة المصّاف تُسَمّى «البيكار» كما قد تُطلق هذه اللّفظة على الحرب نفسها (٥) ، وقد يُطلق على البيكار كلّه أو على جُزء منه «الحَلْقة» (٦) .

---

(١) الفيح القُسّي : ١٩٢ .
(٢) المصدر السابق : ٣٦٢ .
(٣) المصدر نفسه : ٣٦٢ .
(٤) الفيح القُسّي : ٣٦٩ .
(٥) المصدر السابق : ١٩٩ ، ٥٥٣ وفي هذه الاخيرة : «وقد نهك العسكر طول البيكار» . وانظر : محمد قنديل البقلي : التعريف بمصطلحات صبح الاعشى ، القاهرة (١٩٨٣) ص : ٧٠ .
(٦) الفيح القُسّي : ٤١٣ ، ٤٢٥ ، ٤٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبسبب مناخ الشام فإن استدعاء الجند كان يتمّ في الرّبيع ، حتّى إذا بدأ فصل الشتاء واشتّد البرد سُرِّحَت الجنود في شهر كانون الأول وعادت إلى أوطانها لتقضي فيها شهرين (١) . وقد وصف العماد الأصفهاني أثر البرد في حال الجند بقوله (٢) : «وقَبَضَ البردُ الأيدي عن الانبساط ، وأعدم الهممَ دواعي النشاط ، وعادت العزائمُ المتوهجة تبرد ، والصرّائم المتأججةُ تخمدُ ، والنخواتُ المتحرّكة تجمُد ، والحميّاتُ المتيقظةَ تبرُد» ، ولهذا كان الجند يتلهّفون إلى التّسريح ، وكان بعض أمرائهم يُلِحُّ كثيراً في طلب الدّستور (أي الإذن بالعودة إلى بلادهم) (٣) . وقد ترتب على توقف القتال في الشتاء انتهاز الفرصة لإدخال البَدل والميرة والذّخائر والنّفقات إلى ميناء مثل عَكّا ، ومعنى البدلِ اخراجُ مَن فيها من أمراء الجيش وغيرِهم مِمّن أدركَهم التّعبُ والارهاق وادخالُ مجموعة جديدة بدلاً منهم (٤) .

لنتصوّر هذا الجيش وقد جرى عرضه ، وهَمّ بالمسير ، فَإنّ علامة تحرّكه هي دَقُّ الكوس ونَعرُ الأبواق (٥) ، وأوّلُ ما ينطلق من وحداته في الزّحف هي الطّلائعُ الّتي تتقدّم لتكشفَ المناهل (٦) ، أو تستطلعَ تحركاتِ العدوّ ، وتُسمّى أيضاً «اليزك» أو «اليزكيّة» (٧) ولابُدّ أن تكون شديدة اليقظة ومتحسّبة لكل الاحتمالات ، فهي بمثابة الرّقيب الّذي لا تفوتُه لمحة . فإذا كان الجيش في حالة نزول ترتّب في ميمنة وميسرة وقلب ، وعُيّن لكل أمير مكانُه في هذه المواقف بحيث لا ينتقل عنه (٨) ، وإذا كان في حال ركوب تَرتّبَ على شكل أطلاب (٩) ، وهي وحدات تتكوّن كلّ واحدة منها من مائتي فارس عليهم أمير ، وقد يكون العدد أقلّ من ذلك ، ويُفهم من هذا أنّ الأطلاب من محُاربي الخيّالة الأشدّاء (١٠) ، ويرى ابن إياس أنّ هذا اللفظ (طُلب - أطلاب) ظهر لأوّل مرّة في أيّام صلاح الدين (١١) . وبعد تميُّز الأطلاب يتمّ تميّزٌ آخرُ إذ يبرز الجاليشيّة وهم مَهَرة الرُّماة في كُلّ طُلْب (١٢) ، وغالباً ما يكونون من الأتراك رُماة الحَدَق(١٣)

---

(١) النبيح القُسيّ : ١٩٩ .
(٢) المصدر السابق : ١٧١ . وانظر وصفاً آخر في البرق الشامي ٣ : ١٣٥ .
(٣) النوادر السلطانية : ٦٠ ، ٩٤ ، ١٤٦ . ولم ترد بهذا المعنى في مصطلحات صبح الأعشى .
(٤) المصدر السابق : ١٥٢ - ١٥٣ .
(٥) المصدر نفسه : ١٨١ .
(٦) النبيح القُسّي : ١٩١ .
(٧) المصدر السابق : ٣٦٧ ، ٤١٤ ، ٤٢٥ ، ٤٤١ .
(٨) المصدر نفسه : ٧٠ .
(٩) النبيح القسيّ : ٣٦٣ .
(١٠) المصدر السابق : ٦٩ ، ٧٢ ، ٤٤٦ ، وانظر التعريف بمصطلحات صبح الاعشى (أطلاب) ص ٦ .
(١١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، تحقيق محمد مصطفى (القاهرة) ، ٣ : ٢٤ ، ٢٥ .
(١٢) النبيح القسيّ : ٧٠ ، ٧٨ ، ٤٤٣ .
(١٣) المصدر السابق : ١١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو من التركمان ، ويُسَمّي بعضهم الجولاتِ المتبادلةَ بين الرُماة من الجهتين باسم «قلبات» (١) ، ونعرف أن عدد الجاليش في غزاة عين جالوت (٥٧٩ / ١١٨٣) كان خمسمائة رجل (٢).

٢ ـ طَلَبُ النّجدة :

قد تلتبس هذه أحياناً بالاستنفار أو الاستدعاء ، ولكن الفرقَ بينها واضح ، فطلب النجّدة مرحلةٌ تالية للاستدعاء ، لأنها تجيء لأسباب مُستجدّة ، كأن يكتشف القائد أنّ العدوّ قد حشد جيشاً كثيفاً لا يستطيع جيشُه القليلُ العدد مواجَهته ، وتعبّر عن ذلك رسالة للقاضي الفاضل إلى سيف الاسلام باليمن يطلب منه على لسان صلاح الدين أن يوافيه بالمدَد حين كان يُزمع التوجّه إلى عكّا : «فالبِدارَ إلى النجدة البِدارَ ، والمسارعةَ إلى الجنّة فإنها لا تُنالُ إلاّ بإيقاد نار الحرب على أهل النّار ، وإلهِمّةَ الهمّة ، فإنّ البحارَ لا تُلقى إلاّ بالبحار ، والملوكُ الكبار لا يقف في وجهها إلاّ الملوكُ الكبار :

ومـاهـي إلاّ نهـضـةٌ تـورِثُ الـعُلا لسيومك ما حَنّت روازمُ نيبُ (٣)

ولا غنى عن أن يكون المجلسُ السيفيّ - أسماه الله - بحراً في بلاد السّاحل يزخَر سلاحاً ، ويجرّد سيفاً يكون على ما فتحناه قُفلاً ، ولمالمَ يُفتح بَعدُ مفتاحاً» (٤) .

وفي كتاب القاضي الفاضل هذا نجدةٌ غير محدّدة ، ولكن في حالات أخرى يتمّ تحديدُها ، كما في كتاب القاضي الفاضل على لسان صلاح الدين كذلك إلى خليفة الموحّدين بالمغرب ، ليُعينه على الفرنجة المحاصِرين لعكّا (٥٨٦/ ١١٩٠) وفي هذا الكتاب يطلب منه أن يمدّ المسلمين في الشّام بالأسطول المغربي، وإن لم تكن هناك موانع فبالمال والرّجال . يقول القاضي الفاضل (٥) : «وإنّ هذا العدوّ لو أرسلَ اللّهُ عليه أسطولاً قوياً مستعداً يقطعُ بحرَه ويمنعُ ملكَه ، لأخذنا العدوّ إمّا بالجوع والحصر ، أو بَرَزَ فأخذناه بِيَد اللّه تعالى التي بها النّصر . فإن كانت الأساطيلُ بالجانب المغربي مُيَسّرة ، والعُدّةُ منها مُتَوفّرة ، والرّجالُ في اللّقاء فارهةٌ ، وللمسير غيرُ كارهة ، فالبِدارَ البِدار ، وأنتَ أيها الأميرُ أَوّلُ من استخار اللّه بها وسار . وإن كانت دون الأسطول موانع ، إمّا مِن قِلّةِ عُدّة ، أو مِن شغْلٍ هناك بمهمّة ، أو بمباشرة عدوٍّ ما تُحَصَّن منه العَورة ، أو قَد لاحَتْ منه الفُرصة . فالمعونَةُ ما طريقُها واحدة ، ولا سبيلُها مسدود وَلا أنواعُها محصورة ، تكون تارةً بالرجال وتارةً بالمال . . . » .

---

(١) النوادر السلطانية : ١٠٥ ، ١١٠

(٢) المصدر السابق : ٦٢

(٣) الرّوازم : جمع رازمة وهي الناقة التي تحنّ إلى أولادها ، والنّيب : النّياق المُسنّة .

(٤) القلقشندي (٨٢١ هـ) صبح الاعشى في صناعة الانشا ، تحقيق : محمد حسين شمس الدين ، دار الفكر (بيروت ١٩٨٧) ٧ : ٢٦/٢٣ .

(٥) كتاب الروضتين ٢ : ١٧٠ ـ ١٧١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣ ـ عناصر العسكر الاسلامي :

كان لابُد من ذكر بعض عناصر الجيش في العهد الزّنكي والأيوبي في مقام الحديث عن استدعاء العسكر ، فقد استدعى السياق أن نذكر بعض العناصر النظاميّة وغير النظاميّة . ولاريب في أنّ الاكراد بقبائلهم المختلفة كالمهرانيّة والهكّارية كانوا من أبرز العناصر النّظامية في ذلك الجيش (١) ، كما كان فيهم مرتزقة أيضاً وقد شاركوا في جيوش أمراء آخرين عدا أمراء البَيتين الزنكي والأيّوبي (٢) .

ومع أنّ التركمان كانوا عاملاً مساعداً في الجيش ، فقد دلّت شواهدُ ذكرتُ بعضها فيما سبق أنّ نورالدين كان يعتمد عليهم اعتماداً كبيراً ، وظلّ صلاح الدين يُوالي هذه السياسة ولكن على نحو أقلّ ، وكان لليارويّة منهم دورٌ بارز في الحملة الصليبيّة الثالثة ، وقد كان صلاح الدّين يشجّعهم ببذل المال ، إذ يذكر العماد أن صلاح الدين في سنة ٥٧٥ / ١١٧٩ أرسل إليهم أُلوفاً من الدنانير المصرية تُفرَّق في جموعهم وحشودهم ، وأمر بإعداد الدّقيق وتكثيره لهم (٤) .

وقد كان في الجيش النظاميّ عناصُر عربيّة مثلُ بني مُنقذ الكنانيين أصحابِ شَيزَر ، غيرَ أنّ المصادر حين تذكر العرب في الغالب تعني الأعراب وبخاصّة أعرابَ الشام ومصر ، وقد كانوا يمتازون بخِفّتهم على الخيل . ولكن بعضهم كان مصدر إزعاج أحياناً، فقد كانت حملة صلاح الدّين على الكرك (٥٦٩/ ١١٧٣) إنما تهدف إلى إبعادهم عن تلك المنطقة ، ومنعهم أن يعملوا أدلاّء للفرنجة (٥) .

إلى جانب ذلك كلّه اعتمد صلاحُ الدين - بعد أن توسّعت المنطقة الخاضعة لحكمه على عساكر من الشّام والجزيرة والموصل ، ولا بُدّ أن يُمثّل هؤلاء جنسياتٍ مختلفة ، من ابرزها الأتراك ، وأن تكون وحداتهم المهّمة هي التي يتكوّن منها الخيّالة ، أمّا المشاة أو الرَجّالة فتبدو أهميتُهم واضحةً في أعمال الحصار ومنهم الحجّارون والنقّابون (٦) .

ومنذ عهد نور الدين كان يخصصُ لكلّ واحد من الأمراء الكبار اقطاعٌ مقابلَ خدمته العسكرّية ، وكان هذا الاقطاعُ متوارثاً ، كما أنّ المماليكَ كانت تُصرفُ لهم جامِكيّاتٌ ونفقات وعَليقٌ لدوابّهم ، وقد وسّع صلاحُ الدّين العمل بنظام الاقطاع ، وكان كبيرَ الاعتماد على المُقطَعين بتزويد الجيش بالخيّالة الرُماة وبالرمّاحين من المصريين .

أمّا حجمُ العسكر فقد كان يتفاوت قِلّة وكثرَةً من عهد سلطان إلى عهد سلطان آخر ، فهو في عهد

---

(١) النوادر السلطانية : ١١٠

(٢) H.A.R. Gibb, Saladin, Beirut (1974) P. 152 .

(٣) Op. Cit .

(٤) البرق الشامي ٣ : ١٧٥

(٥) Gibb, P. 153 - 154 .

(٦) op.Cit . P. 155 - 156 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السّلطان صلاح الدّين أكبرُ منه في عهد سَلَفه الملك العادل نور الدين لاعتباراتٍ ذُكرت آنفاً ولعلّ من أبرزها انضمامَ عسكر مصر إلى عسكر الشّام ، وإن كان اعتماد صلاح الدّين على الجيش المصري يفوق اعتماده على سواه (١) فكم كان حجم الجيش المصري لدى صلاح الدّين ؟ عرض صلاح الدين كتائبه سنة ٥٦٧ / ١١٧١ القديمة منها والجديدة ، فبلغت مائة وأربعةً وسبعين طُلْباً ، وغاب عنها عشرون (ومعروف أنّ الطُّلبَ يتراوح بين سبعين ومائتين) . وعندما ورث صلاح الدين السيّادة الفاطميّة بكل عناصرها ، كان مما ورثه أيضاً حرسُ القصر ، وكان في هذا الحرس فرقةٌ سودانيّة وفرقة أرمنيّة ، إلاّ أنّ هناك أحداثاً أدّت إلى إبادة بعض هاتين الفرقتين أو ترحيلها (٢) فكوّن صلاح الدين حرساً جديداً للقصر ومنه حوالي ألفِ كُردي وألفين من الموالي الأسدية والنوريّة عملوا حرساً خاصّاً للسلطان (٣) . ويُقدّر العنصُر السّوداني في جيش صلاح الدين بثمانيةَ عَشَر ألفاً (٤) . وبعد صلاح الدّين قام الصّالح أيوب بشراء عدد من المماليك أكثرهم من الأتراك ، واختار ما بين (٨٠٠ - ١٠٠٠) مملوك منهم من مهرة المحاربين وكوّن منهم حَرَساً خاصّاً أسكنهم في جزيرة الرَّوضة وأصبح هذا الحرسُ يُعرَف باسم الصّالحيّة (٥) .

ومن الطبيعي أن تكون بطانةُ القائد الأعلى (وهو في أكثر الحالات السلطان نفسُه) مكونةً من أمراء الجيوش ومنِ أفراد خواصّ أثبتوا قدرتهم في ميدان المعركة أو في سداد الرأي أو فيهما معاً ، وهؤلاء الخواصّ يُسمَّوْن أيضاً (الجاندارية) (٦) ، وقد تُجمَعُ اللفظتان معاً كما في قول العماد الأصفهاني (٧) : «وجئنا في خواصّنا والجاندارية» وهذا الجمعُ بينهما قد لا يتجاوز اللجوء إلى التّوضيح ، ومثل هذا التمييز لا يُعَدّ عسيراً في جيش تميّز كثيرٌ من رجاله بالبطولة مثل : مظفّر الدين كُوكُبوري ★ وقاياز النجمي ★ والدرم الياروقي ★ وعز الدين جُرديك ★ وغيرهم (٨) ، وبعض هؤلاء الذين شُهروا بالبطولة ، إنما كانوا مماليك للسلطان أو لغيره من الأمراء مثل إياز الطويل ★ الذّي استفاضت أخبارُ شجاعته لدى العسكرين الاسلامي والصليبي (٩) ، ومثل المماليك الأسديّة الذين كان يُضَربُ بهم المثلُ في الشجاعة والثّبات (١٠)

---

(١) Gibb, p. 140 - 145 .

(٢) كتاب الروضتين ١ : ٢٤٢ .

(٣) Wise, T. P. 54 .

(٤) Op. Cit . 55 .

(٥) Op. Cit . P. 57 - 58 .

(٦) مركّبة من كلمتين : (جان) بمعنى روح ، و (دار) بمعنى حافظ ، فجاندار تعني حافظ الرّوح ، وهم الحرس والعَسَس . (النجوم الزاهرة : ٥ : ٢٣٠) .

(٧) الفيح القسيّ : ١٩٤ ، وانظر ايضاً : ١٩١ ، "سرنا في الامراء والمفردين الخواص" ، وانظر التعريف بمصطلحات صبح الأعشى : ٨٢ .

(٨) الفيح القسيّ : ٦١ ، ٦٢ ، ١٧٢ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ .

(٩) النوادر السلطانية : ١٨٠ .

(١٠) المصدر السابق : ١١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكذلك المماليك النوريّة (١) .

إلى جانب العناصر السّابقة في بنية الجيش الاسلامي كانت هناك عناصُر أخرى يمكن أن توصف بأنها غيرُ نظامية ، ومن أهمها الغزاةُ المُطوّعَة و السّوقَة (٢) ، وهذه عناصُر لم تكن تُستدعى للانخراط في الجيش ، بل كان السلطانُ صلاحُ الدين يحرصُ على ردّهم من حيث أتوا فلا يستجيبون . والأغرب حالاً من هؤلاء انخراطُ اللّصوص في الجيش ، ويسميهم ابنُ شّداد ثلاثمائة لِصٍّ من شُلوح العرب (٣) ، ومهمتهم أن يدخلوا معسكر العدوّ ويسرقوا الرِجالَ أحياءً ويسرقوا المال والخيول ، ومن اللافت للنظر حَقاً أنّ هؤلاء قد دَيّنوا (أي جُعِل لهم ديوان) ومعنى ذلك أنّ الدّولة هي التّي تجنّدهم وتفرض لهم عطاءً ، وهم مفضلون على المُطوّعة والسّوقة لأن اللّصوص يبلغون النكاية في العدوّ بينما الفريق الثاني قد يعجز عن استعمال السلاح ومن ثمّ يعجز عن حماية نفسه (٤) .

ولعلّ التساؤلَ عن دور المرأة المسلمة في الحروب الصليبية إنماّ يثور بسبب ما كان للمرأة الفرنجية من دور في تلك الحروب ، وبسبب مشاركة المرأة نفسها في كثير من الحروب قبل الفترة الصليبية ، والجوابُ عن هذا السّؤال قد يكون بالنفيّ دون تردُّد ، وعندئذ يصبح البحث عن أسباب ذلك هو موضوعَ الدّراسة ، ولقد بَذَل أسامةُ بن منقذ جهداً متعَمّداً وهو يحاول أن يجمع حكاياتٍ عن بطولة النساء وغَيرتهن الدينيّة ، وبعض حيلهنّ في القضاء على بضعة أفراد من الفرنجة (٥) ، فأمّا مشاركتُهنّ على نحو مُنَظَّم ، وخُروجُهن مع الرّجال إلى ساحات القتال فأمرٌ لا وجود له . حتّى أعمالُ الاسعاف والتمريض التي كنّ يقمن بها في معارك الفتوح لا وجود لها في هذه الفترة ، وقد صَمَت الأدبُ عن هذه الناحية صمتاً له دَلالته ، مع أنّ التّمدحَ بها من قبل كان مجالاً أدبياً لا تنقصه الحيويّة .

تُرى ما الذي تغيرّ ؟ أشياء كثيرةٌ ، في أوّلها المرأة نفسُها إذ لم تعد المرأة عربيّة كما كانت من قبل ؛ وتغيرّت طبيعة المعارك وعواملُ الحسم فيها ، فإن كان قد بقي للمرأة دورٌ فقد يكون في بعض مواقف الحصار ، لأنها قد تقف مع الرِّجال في صّد المعتدي ، ولكنها لا تستطيعُ عملياتِ الهجوم كالنّقب للأسوار والرّمي بالنفّاطات وغير ذلك من الأساليب .

---

(١) النوادر السلطانية : ٦١

(٢) المصدر السابق : ١١١ ، ٢١٤ .

(٣) مفرج الكروب ٢ : ٢٨٥

(٤) النوادر السلطانية : ١٩٢ .

(٥) الاعتبار : ١٢٦ - ١٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤ ـ كثافة العسكر الاسلامي :

قد تكون أعدادُ الجيش بالأرقام خيرَ وسيلة لتصور مدى كثافته ، إننا نقرأ مثلاً أنّ جيش صلاح الدين في حطّين قد كان اثني عشر ألفاً من الخيّالة (١) دون أن يُذكر كَم كان عددُ الرّجالة ، وفي التقدير أنّ جيش صلاح الدين كان أكبَر من جيش الصّليبيين ، وعلى الرُّغم من أنّ الأرقام في مصادرنا القديمة تُواجه غالباً بالشّك فإن هذا التقدير غيرُ مُبالغٍ فيه ، كما أنّ معظمَ الأرقام التي تتحدثّ عن الجيوش في الجانبين تظلّ تحت مستوى المبالغة . وقد ذكر بعضهم أن الجيش المصري في زمن صلاح الدين بلغ حوالي أربعة عشر ألفاً ، وأنّ عددَ الخيّالة لديه بعد أن احتلّ دمشق (٥٧١ / ١١٧٥ - ٧٦) بلغ ستة آلاف (٢) .

أمّا التقديراتُ الوصفيّة التي تصوّر كثافة الجيوش في مرحلة دون أخرى فالأمرُ فيها واضحُ التفاوت. فالقاضي الفاضل يصف الجيش الذّاهب إلى حطينّ بأنه «يتجاوز أن يُحَصّلَه النّاظرُ إلى أن لا يَحُصِلّه الخاطر» (٣) ويصف فتيان الشاغوري جيشاً سيرّه صلاح الدّين وهو في مصر ، ليصدّ الفرنجة عن دمياط (٥٦٥ / ١١٧٠) فيقول (٤) :

جحافلُه أُسْدٌ تَزَأْرُ في الوغى ... وما غيلُها إلاّ القَنا والقنابلُ (٥)
يسيرُ بجيشٍ يرجِفُ الأرضَ بأسُه ... وتبدو لها في كلّ قُطر زلازلُ
خَمِيسٌ له الراياتُ ظِلٌّ وفوقَهُ ... مِن الطّير ظِلٌّ يحجبُ الشّمسَ سادلُ
تراطَنُ فيه العُجمُ من كلّ جانبٍ ... وترتجزُ العُربُ الكِرامُ البواسِلُ

وإذا تأملنا الكلمات التي يستعملها الشّاغوري للدلالة على الجيش (مثل جحافل بصيغة الجمع ، وخَميس) وجَدنا أنها بطبيعتها تدّل على الكثرة فكيف إذا أضيفَ إلى ذلك رَجفانُ الأرض من بأس ذلك الجيش ، وإحداثُه الزلازل في كلّ قطر ، وجَمْعُه أصنافاً من الناس يَتَراطنون إلى جانب الناطقين بالعربيّة ؟ وهذه الصورة لا توازي بدقّة ما يقوله أبو شامة ★ إذ يذكر أنّ الفرنج عندما ضيّقوا على دمياط ، «أرسل إليها صلاح الدين العساكر في النّيل ، وحشر فيها كلّ مَن عنده» (٦) فقوله : «وحَشرَ فيها كلّ من عنده» لا يُعيّن شيئاً دقيقاً .

---

(١) Mayer, P. 134 .
(٢) Gibb, pp. 144, 146 .
(٣) كتاب الرّوضتين ٢ : ٣٥ ، ومفرج الكروب ٣ : ٣٢٦ .
(٤) ديوان فتيان الشاغوري ، تحقيق أحمد الجندي ، دمشق (١٩٦٧) ص : ٣١٧ - ٣١٨ .
(٥) القنابل : جمع قنبلة ، وتعني جماعة الخيل .
(٦) كتاب الرّوضتين (دار الجيل) ١ : ١٨٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا بأس أن أورد مثالا آخر على تصوير الشعر لكثافة الجيش الاسلامي ، وذلك هو قول سعادة الأعمى ★ (١) :

أوسعْتَ فرعونهم لمّا طغى غَرَقاً ... بزاجرٍ لُجتاه النَّقعُ والنُّجُدُ
حَبّاته البَيْضُ والبيضُ الحدادُ لَه ... خُلجٌ ، وامواجُه لمّا طغى الزَّبَدُ
إذا تلاقَح موجُ السّابغات به ... على الكُماةِ عَلاهُ من دمٍ زبَدُ
عَرَمرمٌ كالدّبا الطيّار منتشرٌ ... تُحصى الرّمالُ ولا يُحصى له عَدَدُ

فقد نقَلَ الشاعرُ كلّ تصوره لكثافة الجيش إلى «صورة بحر» غرق فيه العدوّ ، والسيوفُ فيه خلجان ، وانتهى إلى العجز عن إحصائه ، مقارناً بالرّمْل ، وهذا الاتجاه لا يُنكرُ في الشّعر وبخاصّة إذا نحا الشاعر فيه نَحو التّصوير ، وهنا لا بُد من التنبيه على أنّ الشاعر إذا غالى في تصوير كثافة الجيش الاسلامي فإنما يرمي من ذلك إلى التمدّح والفخر بالقُدْرة على الاستعداد وإلى أهميّة اليقظة الضرورية لحماية البلاد ، وإلى ابراز عَظَمة الممدوح أو الدولة التي تستطيعُ كلّ ذلك ، وإذا غالى في تصوُّر كثافة الجيش الصليبيّ فإنما ليقول : إن النّصر لا يحْرزُ إلاّ بالتضحيّة ، وأنّ الكثرة لا تستطيعُ أن تقفَ في وجهِ نُصرة الحقّ .

وقد يَستعين الأديبُ لِتصوير كَثافة الجيش بالحديث عن عناصر غير بَشريّة كالرايات والأسلحةِ والغُبار ، كقول القاضي الفاضل : «كالغاب المُشَجّر أعلاماً ، وكالنّهار المانع حَديداً وهّاجاً ، وكاللّيل الشامل عَجاجاً عَجّاجا» (٢) ، وقد يَلجأُ إلى مقارنة الجيش بالظواهر الكبيرة مثلِ النّجوم والبُحور ، وذلك كما في قول ابن بُصاقة ★ : «في عساكرَ تُضاهي النجومَ إشراقاً وعَدَداً ، والبحورَ إغراقاً ومَدَدا» (٣) .

وقد تجاوزَ النثرُ الفنّي على يد العماد الاصفهاني كُلّ حدّ بَلَغَهُ الشّعرُ في تصوير كثافة الجيش الاسلاميّ في مواقف مختلفة ، وسأكتفي هنا بمَثَلٍ واحد ، من هذا القبيل ، يَقول فيه (٤) : «وقد جاش الجيشُ بقساوِرِ قَساوَة ، وضَراغمِ ضَراوَة ، ولُيوثِ كِفاح ، وكباشِ نِطاح ، وأقرانِ قِران وقِراع ، وأَخْدان مِصالٍ وَمِصاع ، وفُرسانِ طِراد ، وأجادِلِ جِلاد ، ومُثيري عَجاج ، ومُديري هَياج ، ومُعتَقلي أنابيب ، ومُشْتَمِلي شآبيب . . .» فإنّ الجمعَ بينَ الحركة الجيّاشة وبينَ تَنَوُّعِ ضُروب الفِعل في هذا النصّ ، يُلمحُ بطريق غيرِ مُباشر إلى أنّ الكثافة في النهاية هي نتيجةُ عَمَل وليست نتيجةَ عَدَد ، إنّ العمادَ يُوهِمُنا وهو

---

(١) العماد الاصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر (قسم الشام) ، تحقيق د. شكري فيصل . المطبعة الهاشمية (دمشق ١٩٥٩) ص : ٤٠٦ .
(٢) صبح الأعشى ١ : ٥١٠
(٣) مفرّج الكروب ٥ : ١٩
(٤) البرق الشامي ٣ : ١٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يَصِف ، أنّ كلّ عُنصرُ - في لحظة ما - قد شاركَ بطريقته في المنظر الذي يَصفُه .

وخلاصةُ ما هنالكَ أنّ الأرقامَ يُمكن تحويلُها في ضوء مقارناتٍ أُخرى لتقترب من الواقع ، فأمّا التصويرُ فلا يمكنُ استخلاصُ حقيقةٍ واقعيّةٍ منه ، وهو ببَساطَةٍ يُواجَه بعبارة «شديد المُبالغة» أو ما أشبه .

فقد قال فتيانُ الشّاغوري في معرض مدحه للملِك الأشرفِ موسى ، وقد كان نازِلاً على الطّور استعداداً للغزو (١) :

كأنّ كُماةَ التُرْكِ عندَ نِزالهم ... ملائكةٌ بالشُّهب تَرمي الأباليسا
وقَد جالَتِ الأكرادُ بالسُّمرِ والظُّبا ... تصيد الملوكَ الصّيدَ والأُسُدَ الشّوسا
إذا العَرَبُ الشُّمُّ الأنوفِ تنمّروا ... به ، كان كُلٌّ بالمُثَقّف دِعّيسا

وقال العماد في مدحه العادل نور الدين (٥٦٨ / ١١٧٣) (٢) .

وكأنّما الأكرادُ فوق جِيادِها ... عِقبانُ مُلْحَمَةٌ على عِقبان
لم يَترِكِ الأتراكُ فيهم غايةً ... بالفَتك والإرهاق والإثخان
ولَكَ المَمالِيكُ الّذين بهم عَنَتْ ... أملاكُ مصْرَ لمالِكي بَغدانِ

إذ يذكر فتيانُ كُماةَ الترك ويَقرنُ بهم رَميَ السّهام كأنهم ملائكةٌ يَرجُمون الأباليسَ بالشُّهب ، كما يَذكُرُ الأكرادَ والعَرَب ، ولا يكتفي العمادُ يذكر الأكرادِ والأتراك ، بل يتوصّلُ إلى ذكرِ المماليك ، ولا ينسى اليارِقيّةَ التركمان حين يقول :

واليارقيّةُ أرْقَتْهمُ في الدُّجى ... بِسهام كُلِّ حَنِيّةٍ مِرْنان

وحين أراد طلائعُ بنُ رُزّيك★ أن يُشيدَ بَدوْر العرب في الحرب ، نوّه بعدد من القبائل تمييزاً لها ، فقال (٣) :

وبَرْقِيّةٌ شاموا السيوفَ فلم يَعِشْ ... لِبارِقِها في ساحة الشام شائِمُ
وسِنْبِسُ قد شادوا المعالي بفعلهم ... وليس لهم إلاّ العوالي دعائمُ

---

(١) ديوان فتيان الشّاغوري : ٢٣٣ .

(٢) ديوان العماد الاصفهاني ، جمعه د. ناظم رشيد ، الموصل (١٩٨٣) ص : ٤١٤ .

(٣) ديوان طلائع بن رُزّيك (٥٥٦ هـ)، جمعه وقدّم له محمد هادي الأميني، مطابع النعمان ـ النجف (١٩٦٤) ص: ١٣٥ .
وانظر كذلك : ديوان أسامة بن منقذ ، تحقيق : د. أحمد احمد بدوي وحامد عبد المجيد ص : ٢٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وثـعلبةٌ أضـحوا بنـا قد تـأسّدوا ... فما لهمُ في المـشركـين مُقـاوِم
وإنّ جُذامـاً لم يـزَلْ قطُّ منـهـم ... قـديماً لحِبْل الكُفـر في الشـام جاذِم

والسرّ في هذا التـمـيـيـز أنّ طلائعَ يتـحدّث عن الجيش المصري ، وفيه إلى جانب المغاربة والسّودانيين عناصُر عـربيّة كـثيرة ، بينما هذه العناصُر العربيةُ في بلاد الشام لا تستطيع منافسةَ الأتراكِ والتركمان في دَورِها الحربي .

٥ ـ تعبية العسكر الاسلامي :

يستـعـملُ ابنُ مَنْكَلي كلمـةَ «تَعابي» (أي صيغةَ الجمع من تَعبئة) ويُورد قواعدَ أوّليّةً في هذه النّاحية ، منهـا : مـراعاةُ الانسجام في توزيع الوحدات ، كأن تكون كلُّ قَبيلة مع اختِها ، وأن يكون مقدّمُ كُلِّ طائفةٍ منهـا ، ويوردُ فيما يوردُه هذه الحكمـة : «الأصلُ في ثُبوت الأحكام حسنُ انتظامِ التّعابي» ، ثم يورد صنوفاً مـن الـتـعـبئة مـثـلَ : الـصفّ المسـتـوي الأطراف ، والصفّ الخـارجِ الصّـدرِ ، والصفّ المعطوفِ الدّاخل الجناحين ، ويذكـرُ قـواعـد في تعبية العَدَد القليل من الجند ، وهكذا (١) ، وعـلى الرّغم من أنّ وصـاياه في هذه النّاحـيـة موضحّة برُسوم ، فإن غموضَ مَرماهُ يجعَلُ الأشكالَ التوضيحيّة ضئيلة الدّلالة .

وتـتـمُ في أثناء نهوضِ العـسـاكـر إلى الانتظام في الـتـعـبئة خطواتٌ تمهـيـديّة ، ذَكَرْتُ بعـضَـهـا كضرب الكوس ونَعْر البـوقـات ، وإشـارة البـدء بالتـحـرك كـقـول صـلاح الدين : «ياللإسـلام» وارتفاع الأصوات بالتهليل والتّكبير (٢) . وربّما كـانت كلُّ هذه الخطوات إشـاراتٍ لبـداية معركة لا لِتَعبئة ، بل أُرَجِحُ أنّ هذا هو الأصـوب ، وبعـد هذه التـمـهـيدات يتمُّ اختيارُ المكان الصّالح للمصافّ ، كأن يكون مُشرفاً على العدوّ يمنَحُ المسلمين التـحكمّ فيه ، غيرَ مفتقرٍ إلى الماء ، وكان كلٌّ من الفريقين يُدركُ تمامَ الادراك «أن السّابقَ إلى الماء محُاصِرٌ المسبوق» كما يقول القاضي الفاضل (٣) .

ويبـدو أن التّعـبـية التّقليديّة إذا لم تَـحُل حوائلُ من طبيعة الأرض أو ما شابهَها - هي شركةٌ عامّةٌ بين جـيـوش الأمم المختـلفـة ، أعني قـسـمـة الجـيش إلى مـيمنة و ميسرة وقلب ، وهذه القسمةُ الثلاثيّة تتحوّلُ بسـهـولة إلى خماسـيّة ، إذ لا بُد من إضافَة طليعة (أو مقدّمة) وساقةٍ (أو مؤخرّة) ، وقد كان الاسراع إلى تنظيم الجـيش على هذا النحـو يتمُّ ولو لم تكن هناك مـعـركـة ، لكي لا يُفـرضَ الأمـرُ الواقعُ على القائد في اللحظات الأخيرة إذا اضطُرّ إلى خـوض مـعـركـة ، يقـول ابن شدّاد في الحديث عن المصافّ الأعظم (٤) :

---

(١) الأدلة الرسمية : ١٧٦ - ١٨٨ .
(٢) النوادر السلطانية : ١٠٩ ، ١٨٠ .
(٣) البرق الشامي : ٥ : ١٤١ .
(٤) النوادر السلطانية : ١١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

«وكان ـ أي صلاح الدين ـ قد أنزل الناس في الخيم مَيْمنة ومَيسَرة وقلباً تعبية الحرب ، حتى إذا وقعت صَيحَةٌ لا يحتاجون إلى تجديد ترتيب» ، وتتحكم في توزيع المقاتلة في هذه التعبئة أمورٌ رَسّختْها التجاربُ السابقةُ ، فاختيارُ صلاح الدّين أن يكون هو نفسُه في القلب لا يعني أنّه كان دائمًا يفعل ذلك ، ولكن حين يكون هو في القلب ومعه الفقيهُ عيسى الهَكّاري ★ الرجلُ الصّالحُ فلذلك دَلالَتُه .

والقولُ بأنّ صلاحَ الدّين قد لا يكون دائمًا في القلْب يعتمد على حاجَةِ القائد للتمويه على العدوّ ، وتضليلِهِ إن تعمَّد أن يُسَدِّدَ إلى القائدِ نفسِه ضربةً قاضيةً . غير أنّ هناك اعتقاداً كان شائعاً بين المحاربين وهو أنّ القائدَ يختارُ القلب دائما موضعاً له .

ولمّا توجّه أسد الدين شيركوه إلى مصر، وكان على وشك خوض معركة مع المصريين والفرنجة، قال لرِجاله (١) : « إنّ الفرنج والمصريين يظنّون أنّني في القلب ، فهم يجعلون جمرتهم بإزائه وحَملتهم عليه . . » . لهذا فإن تقويةَ الجناحين وجعْل القلْب ضعيفاً هو في ذاته خُطّةٌ في خِداع العدوّ أحياناً ، ومن أجل ذلك نَجدُ أسدَ الدين يَضَعُ ابن أخيه صلاحَ الدّين في القلب ويُوصيه قائلاً (٢) : «لا تَصدقوهم القتال ولا تهْلكوا أنفسكم ، واندفعوا بين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم» . وقَوّى أسدُ الدّين الميمنة حيْن حَشَدَ فيها جماعةً من شُجعان أصحابه وزيادةً في التمويه جعَلَ أسدُ الدّين الاثقال في القلب ، لإنه لَمْ يشأ أن يتركها في مكان آخر فينهبها أهل البلاد ، كما كان منظرُها مُوهماً بأن القلبَ حافلٌ بمقاومة قويّة (٣) .

والقلبُ جِسمٌ كَبيرٌ يمكن أن تجدَ لَه ميمنةً ، وكان في ميمنة القلب في التعبئة المشار إليها الملكُ الأفضلُ والملكُ الظافرُ ابنا صلاح الدّين ، ثُمّ عَسكَرُ المَواصِلةِ يتلوهم عَسكَرُ دِيار بكر . وكان للمَيسرة أوائلُ ، وفي أوائلها فرسانُ الاكراد وجماعةُ المماليك ، وفي أواخرها كبار المماليك الأسَديّة (٤) .

ويبدو أنّ نقطة الضعف بحسب هذا التوزيع إنّما كانت في الميمنة ، وبالذّات في عسكَر دِيار بكر فقد انكسروا كسرة عظيمة ، وسرى الأمرُ حتّى انكسر معظمُ الميمنة (٥) .

وتوزيعُ العَسكر في قلبٍ وميمنة ومَيسرة لا يعني أنّه لا يُقسَمُ قبلَ ذلك في وحدات أخرى ، فقد كان الفرنجة يعتمدون القسمة الثلاثيّة ، ولكنّهم كانوا يجعلون في كُلّ قسمٍ عدداً من الفيالق (Corps) أو السرايا (Squadrons) ، يُقابل هذا أيام الدّولة الزنكيّة والأيوبيّة القسمَةُ إلى أطلاب ، وتتكون السريّة من

---

(١) كتاب الروضتين (دار الجيل) ١ : ١٤٣ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) النوادر السلطانية : ١١٠ .
(٥) المصدر السابق : ١١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عدد من المحاربين (عشرين مثلاً) من كلّ طُلب (١) .

وقد يُلاحظُ في اثناء القتال أنّ أحدَ أقسام التعبئة قد بدأ يظهر عليه الضّعف ، أو كانت خطّةُ العدوّ تتمثّل في الضغط على أحد الأقسام حتى تضعف قدرتُه على الثبات والاستمرار في حفظ الانتظام ، ففي هذه الحالة يأمر القائد بنقل أطلاب من أحد القسمين الآخرين إلى القسم الذي بدأ يشكو شيئاً من الوَهَن، ولكنّ هذا الاجراء غيرُ خالٍ من الخطَر ، إذ يكون في حقيقته استجابة لخطة العدوّ نفسه .

وقد يعرض هنا لسائل أن يسأل : هل يمكن للجيش أن يزحف دون أن يلتزم بالتعبئة الثلاثية أو الخماسيّة ؟ قد سبقت الإشارة إلى أنّ الاهتمام بالتعبئة إنما يوحي بشدة الحيطةِ والتحرّز ،وأنّه يمنح المقاتل شُعوراً بالاستعداد الدائم والتأهب الذي لايُدركه التراخي .

ولكن تكثر في المصادر الإشارة إلى أنّ السلطانَ «أقامَ جريدةً» (٢) أو «وأقام هو بالمنزل جريدةً إلى الصّباح» (٣) أو «أمر بأن يسير الجيشُ جَريدةً » (٤) أو ما شابه ذلِكَ من عبارات . ومن معاني الجريدة الفرقةُ من العسكر الخيّالةِ لا رَجّالةَ فيها (٥) . ويذهبُ الظّنُ إلى أنّ هذا التفسير قاصرٌ على تحديد المعنى الأصلي بدقةٍ ، ولهذا قد يعني الخروجُ جَريدةً عدمَ التقيّد بأقسام التعبئة التقليدية والزّحفِ قطعةً واحدةً ونَسَقٍ واحد .

وكان من عادة صلاحِ الدّين أنْ يظَلّ مُتَتبّعاً لحركات القتال ، مُدركاً لكلّ ما قد تتَعَرّضُ لهُ من تغيُّر ، ولذلك فإنه كان لا يكُفّ عن التنقل بين الأقسام وإثارة حماسة الجُند والحثّ على الجهاد وتقوية الرّوح المعنويّة بحضوره وكلامه (٦) ، ولعّل ذلك كان عادةً عامّةً بين من يُشرفون على سَير معركة .

وفي بعض مراحل المعركة ، ويبدو أنّ ذلك كان مصاحباً للالتحام ، كان بَعضُ الفرسان يترجّلُ عن فرسه ويُقاتل راجلاً (٧) .

وقد لا يُحسَمُ أمرُ المعركة نهاراً ويخيمُ اللّيلُ على المتقاتلين ، فيبيتون على التعبئة نفسِها ، وهم شاكو السّلاح بكامل لأمَةِ الحرب .

ولعلّ من أهم ما يتّصل بالتعبئة معرفةَ الجغرافيّة العامّةِ والخاصّةِ ، فالجغرافية العامّةُ تشمل معرفةً أوليّةً عن البلاد أو المنطقة التي تجري فيها الحرب ، وبأي شيء تتميز ، يقول أومان : إن من الأسباب

---

(١) النوادر السلطانية : ١٠١

(٢) المصدر السابق : ١٧٢ .

(٣) المصدر نفسه : ١٧٧

(٤) المصدر نفسه .

(٥) التعريف بمصطلحات صبح الاعشى : ٨٤

(٦) النوادر السلطانية : ١٨٠ ، ١٨٣ ، ٢١٢

(٧) المصدر السابق : ١٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرئيسية في المصائب التي ألمّت بالجيوش التي خرَجَت في الحروب الصليبيّة ، الجهل التامّ بالمعرفة الجغرافية (١) . والجغرافية الخاصة هي معرفة طوبوغرافية الأرض التي سيجري فيها المصافُّ أو المعركة وهل يتصل بها ماءٌ أولا ، وما هي مميزاتُ الطرق المؤدية إليها ، وهل الأرضُ مُصَدّعَةٌ أو سهلة ، إلى غير ذلك من أمور تؤثر كثيراً في سير المعركة ، وهذه ميزة كانت تخص سكان الشّام ومصر في البداية ، ولكن لم يلبث الصليبيون حين أسسوا الممالكَ وبنوا الحصونَ والقلاع وخاضوا المعارك أن تحسنت معرفتُهم كثيراً في ما يتّصل بهذه الأمور ، وزادت عما كان يعرفه أفراد من الحُجّاج من خلال زيارتهم للبلاد المقدسة .

وقبل أن يقدم صلاح الدين على السّير في محاذاة جيش قلب الأسد من عكّا إلى أرسوف ، وجد لديه مُتسعاً من الوقت ليتفقد بعض الأماكن فسار إلى الملاحّة جنوبي حيفا ، وهي منزلة لا بد أن ينزل فيها العدوُّ لدى رحيله ، وعايَن المكان وهل يصلحُ للمصافّ أولا ، وتفقد أراضي قيساريّة كلها إلى الشّعراء ، وعاد إلى المنزل بعد العشاء الآخرة ، ولم يكتف بهذا بل أخضع كُلّ شيء للتجربة العمليّة ، فحين وصل تلّ الزلزلة نادى الجاووشُ بالعسكر للعرض فركبوا على ترتيب المصافّ واصطفّوا ميمنة وميسرة وقلبا (٢)، وفي المنزل الثالث ارتاد الطريقَ الذي سيسلُكه العدوّ في ضرب المصافّ (٣) وكذلك فحص طبيعة المكان في المنزل الخامس والمنزل الثامن .

وحين لا يكون هنالك مصافٌّ ولا نيّةَ فيه ولا توقّع له ، ينزل السلطانُ في خيمة خاصّة به ، ومن تعبيرات العصر عن ذلك أن يقال : «ضُربَ له الدِّهليز» (٤) ويُعملُ له شُقّةٌ دائرةٌ حولَهُ ، ولا تنصب خيمٌ أُخرى قريبةٌ منها .

ويتحدّث العماد الاصفهاني عن التعبئة والمصافّ ، بطريقته الخاصّة ، وسأكتفي بايراد مثل نموذجي يقول فيه (٥) :

«أصبح بالمخيّم عارضاً من العسكر كعارض ثَجّاج ، وبحرٍ بالعَجاج عَجّاج ، وخِضَمّ بالصّواهل السّوابح ، والمناصِل والصّفائح ذي أمواج وقد رَتّبَ أبطاله وأطلابه ، وسَحَبَ على وجه الأرض سَحابَه ، وأطار إلى النّسر الواقع من الغُبار غُرابه . . . ووقف السُّلطانُ يومَ العَرضِ يُرتّبُ العَسكَر ترتيباً ، ويُبوّبُه تبويبا ويُعبّيه بعيداً و قريبا وقرّر لِكُلّ أمير أمْراً ، ولكلّ مقدامٍ مقاماً ، ولكلّ مُوفّقٍ موْقفاً ، ولكلّ

---

(١) Oman I. P. 235 .

(٢) النوادر السلطانية : ١٧٦ .

(٣) المصدر السابق : ١٧٧ .

(٤) المصدر نفسه : ١٧٦ ، وفي التعريف بمصطلحات صبح الاعشى ص ١٣٨ ، أن الدهليز هي الخيمة التي ترافق السلطان في الحرب .

(٥) الفتح القُسّي : ٦٩ - ٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كَمين مَكاناً ، ولكل قِرنٍ قِرانا ، ولكلّ جمْرٍ مُطفئاً ، ولكِلّ جَمْع مُكفِئا ، ولكُلّ زَنْدٍ موريا ، ولكلّ حَدٍّ مُهيا ، ولكلّ قَضيّة حَكما ، ولكُلّ حَنيّة سَهما ، ولكلّ يَمين مقضِبا ، ولكلّ يَمان مَقْبِضا ، ولكلّ ضامرٍ مِضمارا ، ولكلّ مِغوارٍ مغوارا ، ولكلّ رامٍ مُرتمَى ، ولِكُلّ نامٍ مُنتَمى ، ولكل سامٍ مَسْمى ، ولكُلّ اسم مُسَمّى . وعَيّنَ لكلّ أمير موقفاً في الميمنة والميسرة لا ينتقل عنه ، ولا يغيب جمعاً ، ولا يَبْرَحُ أحدٌ منه ، وأخرجَ الجاليشيّة الرُّماة الكُماة من كُلّ طُلب ، ووَصّى كُلّ حزب بما يُقَرّبُه من حِزب . . . وقوّى الآمال بما بذله من الأموال ، ووهبَ الجِياد . . . ونثرَ الخزائن . . . وقَسم أحمالَ النُّشّاب» .

من الواضح أنّ نصّ العماد احتوى الحقائق التي تجري في مثل موقف التعبئة والعَرض والمصافّ ، فقائد العسكر قد رَتّب الأطلاب وعيّنَ لكلّ أمير مكانَهُ في الميمنة والميسرة (ولم يذكر القلب) ، وميّز رُماةَ السِّهام الفُرسان ، وسَمّاهم «الجاليشيّة» بحسب المصطلح المألوف حينئذ ، وفَرّق الأموالَ تشجيعاً للنّاس ، ووهَب الخُيول ، وفرّق الأسلحة ، ومن أهمّها النشّابُ ، وكُلّ هذه أمورٌ واقعية تُصاحِبُ عمليّة التعبئة ، فلماذا طال النصّ عند العماد ؟ لأنّه بطريقته القياسيّة ، استكثر من الجزئيّات : قرّر لكلّ كمين . . . قِرن . . . جمع . . . زَند . . . حَدّ . . . قضيّة . . . حنيّة . . . الخ ، وهذه الجزئيّات تسمح له بأن يستمر طويلاً ، ويزيد فيها ما يشاء . وإذا لم يُدركه السّأم (أو الاكتفاء) لم يتوقّف ، ولكن هذه الأمور القياسية ليست مهماتٍ واقعيّة ، بل هي أمورٌ مجازيّة تحور في علاقتها بالواقع إلى كناية عن أمورٍ محدّدة ، ولكنّ التكثيف التصاعديّ الذي يعتمده العِمادُ يوحي بالاستغراق ، حَتّى كأنّه لا يكاد يخلُصُ من نَشوة الكلمات ، وسحرِ العبارات ، وقد يبدو للقارىء أنّه ينثُرُ - بالاسهاب والتّطويل - حقيقتين أو ثلاثاً ، ويُولّدُ من هذه الحقائق المحدودة ظِلالاً لها ، ولكنّه في الواقع يَنظِمُ حبّات عقدٍ كثيرة ، ويُذهِلُ القارىء (أو السّامع) عن التدقيق فيما يقرؤُه ويسمعه .

لقد أراد النثرُ على يد العماد أن يتجاوزَ دورَه ويُمعِن في تَشقيق العباراتِ المتعدّدةِ المتفرّعة من أصل واحد ، أمّا الشعرُ فيكادُ يتخلّى عن دوره في التصّوير ، مع أنّ مناظرَ العرضِ والتعبئةِ وتوزيع الجامكيّاتِ والنفقات منظرٌ مثير ، فقد تعرّض الشعراءُ لذكر القلب والجناح ، والميمنة والميسرة ، وكأنهّم يذكرون هذه الترتيباتِ على استحياء ، يقول ابنُ الأثير في وصف جيش عماد الدين الذي سار به إلى الرُّها (١) :

وكانَ ثَباتُه للقلب قلباً ... وهيبتُه جَناحاً للجَناح

ويقول ابنُ سَناء المُلك ★ في مدح الملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين (٢) :

ولقد كفاكَ اللّهُ تعـ ... ـبئة الميامِن والمياسِر

---

(١) كتاب الرّوضتين (دار الجيل) ١ : ٣٧ .

(٢) ديوان ابن سناء الملك . صحّحه د. محمد عبد الحق ، دار الجيل ، بيروت (١٩٧٥) ٢ : ١٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما لم يَفُتهم أن يذكروا بعض وحدات الجيش كالفرسان والرجّالة ، يقول ابن سناء الملك (١) :

وما شرقوا بالماء والرّيق إذ رأوا جيوشك لكن بالفوارس والرَّجْل

لكنّا رُبّما لم نجد في الشعر كثيراً من المصطلح العسكري الذي يُمثّل العصر ، والسبب في ذلك أنّ لغة الشعر «محافظة» ، وكثير من الألفاظ التي درجت حينئذ تعودُ إلى أصول غير عربيّة ، مثل : طلب وجاليش ، فإذا ذُكر في الشعر شيء منها فإنّما يُذكرُ تَمَلُّحاً . لهذا عاد الشعر إلى ذكر ألفاظ أستقرّت منذ زمن بعيد ، وإن فقدت الدقّة العددّية في دلالتها ، فاستعمل أسامة بن منقذ لفظة « السريّة (٢) » ، واستعمل ابن سناء الملك « الكتيبة (٣) » ، وذكر ابن الدّهان ★ «الفَيلق (٤) » ، ولو رجعنا إلى الألفاظ العربيّة التي يستعملها المؤرّخون والاخباريّون في هذا المجال ، لوجدنا لَفظة « الجحفل » من أشيعها عند ابن شَدّاد، وأنّ لفظة « عسكر » و « عساكر » تُشبه أن تُعَدّ مصطلحاً ـ كما ذكرت في مكان سابق ـ وأنّ كثرة ترداد هاتين اللّفظتين قد قَلّل اللّجوء إلى لفظتي جيش وجُند .

ومّما يُميز كُلّ واحدٍ من الفريقين المتحاربين ، الرّاياتُ ورُموزُها وألوانها ، فكانت راية صلاح الدّين صفراء ، وراية الصليبيينّ ذاتُ أرضيّةٍ بيضاءَ ملَمّعَةٍ بِحُمرةٍ على شكل صُلبان (٥) ، وتتقدّمُ الراياتُ الجيشَ مادام في حالة زَحف ، فإذا تهيأ للمعركة ، جُعِلت الرّايةُ في مكانٍ بارز في ميدان القتال ، وبُذِلت كلُّ الجهود لابقاء الرّايةِ عاليةً ، ففي عُلُوّها ارتفاعُ معنويّات الجيش .

٦ ـ قائد العسكر ومجلس الشورى الحربي :

شغلَ هذا العصَر ثلاثةٌ من السّلاطين ، كانوا هم أنفسُهم قُوّاداً لجيوشهم وهم : عمادُ الدين زنكي وابنُه نورُ الدين محمود وصلاح الدّين الأيّوبي ، ولكل منهم سماتٌ تتميّز بها شخصيّته ، ولكن حين يُنظَرُ إليهم من زاوية الرّوح الحربيّة تجدهم متقاربين من حيث الشجاعةُ والاستهانة بالتعب ، والصّبرُ على تقلُّب الحُظوظ ، وتحدّي المصاعب ، وكلُّهم يصدقُ عليه قولُ ابن الأثير في عماد الدين (٦) : «فإنّه كان لا يَرَى المُقام بل لا يَزال ظاعناً ، إمّا لردّ عدوّ يقصِدُهُ ، وإمّا لقصد بلادِ عَدوّه ، وإمّا لغزو الفرنج وسَدّ الثغور ، فكانت مياثِرُ السُّروج آثر عندَه من وَثير المهاد» . وهم جميعاً يشتركون في اكتشاف الرّجال أولي الكفايات وتقريبهم واصطناعهم (٧) .

(١) ديوان ابن سناء الملك : ٢ : ٢٢١

(٢) ديوان اسامة : ٢٢٤

(٣) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ٢٢١

(٤) ديوان ابن الدّهان (٥٨١ هـ) ، تحقيق : عبدالله الجبوري ، مطبعة المعارف - بغداد (١٩٦٨) ص : ٢٢١ .

(٥) النوادر السلطانية : ١٤٩ .

(٦) الباهر : ٥٨

(٧) المصدر السابق : ٦٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا كانت شخصيّة نور الدين تفترقُ عن شخصيّة أبيه بشدّة التّقوى والزُّهد وتحرّي العدالة ، والسّهر على راحة الرعيّة ، فإنّ مميّزات شخصيّة الفارس كانت ممثّلةً على أتمّها فيه ، لا أعني فقط غرامَه بلعب الصّولجان (١) واقباله على الصّيد من قبيل الرّياضة ، وإنّما في طريقة تَعامُله مع جنده ، ورأفته بالضّعيف ، وإشاعةِ روح الانصاف في المعاملات اليوميّة ، وقدرته الحربيّة في التخطيط ، واهتمامِه ببناء قواعد السّلم مثل اهتمامه بشؤون الحرب ، وعلى الرّغم من تواضعه الشّديد ، فقد حفظت له هيبتُه الاعترافَ بتفرّده حتّى عند مَن يُدانيه في الصّلاح وفي اجتماع القلوب من حوله .

ولكنّ حائزَ أدوات الفارس المثالي ، وخصائص الانسان ذي القلب الكبير ، المُفعَم بالاخلاص والتّضحية من أجل الجماعَة ، والإيمان العميق بالخير ، ومعقدَ إعجابِ الصّديق والعدوّ ، على السّواء ، فذلك هو صلاح الدّين ، وإذا كانت هيبةُ نور الدّين هي الّتي حدّدت كثيراً من علاقاتِه بالآخرين ، فإنّ تلك المشاهدَ اليوميّة الحميمة الّتي ربطت بين صلاح الدّين ومَن حولَه هي الّتي منحته بساطةً عجيبة اخترقَ الاعجابُ بها حجابَ العصور .

كان كُلٌّ من الرجال الثلاثة يبني سياسَته الحربيّة وسياسة الحكم على مبدأ الشّورى ، ولكنّ صلاح الدّين كان أشدّهم احتكاماً إليها وتعويلاً عليها . ولمّا كانت أكثرُ سيرة صلاح الدين التي وصلتنا وهو في الميدان ، فإنّ أرباب الشّورى لديه كان أكثرُهم من أمراء الحرب ومقدّميها .

وكانت مواقفهم في الشّورى متفاوتةً ، ولكنّ أكثرَها وبخاصّة - حين سئموا الحرب - ضدّ رأيه ، ومع ذلك فإنه لم يستقِلّ برأيه دونهم ، وإنّما كان ينزل على ما يَرَوْنه مناسباً ، وهو يحُسّ في قرارة نفسه أنّهم لا يرَون إلاّ مصلحة صغيرة تتضاءلُ أمامَ ما يَعُدّه مصلحةً كُبرى ، وسأوردُ هنا بعضَ نماذج من تلك المجالس الشّوريّة :

١ ـ حين ضايق الافرنج عكا سنة ٥٨٥ / ١١٨٩ ومنعوا الدّخول إليها والخروجَ منها ضاق صدرُ السّلطان، وكان من رأيه العملُ على فتح الطّريق مهما يُكلّفه الأمر ، فجمع أمراءَه وأصحابَ الرّأى من دولته ، وشرحَ لهم الوضع ، فاتفقت الآراء على أن يضايقهم مضايقةً شديدة ويحسمَ الأمرَ حسماً تاماً ، ولم يكفّ عنهم حتّى تحقّق فتح الطريق (٢) .

٢ ـ لمّا تمّت المعركة الكبرى على عَكّا ، جمع صلاحُ الدّين الأمراء وأرباب المشورة ، وسألهم رأيهم في الاستمرار في القتال حتّى يقلَع الأعداءَ جملةً من الأرض المقدّسة ، وصرّح لهم بأنّ الرّأي عنده هو مناجزتهم ، وطلب من كُلّ واحد ان يتقدّم برأيه ، فجرى بينهم حوارٌ ، وكان أكثرهم يرى أن

---

(١) الباهر : ١٦٨ - ١٦٩

(٢) النوادر السلطانية : ١٠٥ - ١٠٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يتوقفوا عن القتال ، وينسحبَ العسكر إلى الخَرّوبة للاستجمام ، فقد أخذ منهم التعب واستولى عليهم الضّجر ، وقد أمضوا خمسين يوماً تحت السّلاح ، وفي هذه الاثناء يُمكنهم الافادة من المدد الذي سيجيء به الملك العادل ، ويعود إلى العسكر مَن شَذّ عنه من الجُند ، ولم يُعارض صلاح الدّين هذا الرّأي ، بل رآه يُمثل المصلحة العامّة ، فقبل به وأمضاه (١) .

٣ ـ لمّا بلغه الخبر بأنّ العدوّ يقصد عكّا جمع أصحاب الرأي بمرجعيون وشاورهم بعد أن طرح رأيه وخلاصته : «المصلحة مناجزة القوم ومنعُهم من دخول عكّا ، وإلاّ فإنهّم إذا نزلوا جعلوا الرّجّالة سوراً لهم ، وحفروا الخنادق وصَعُبَ علينا الوصولُ اليهم» ، فقالت الجماعة في معرض التّباهي : «إذا نزلوا البلد واجتمعت العساكر قَلعناهم في يوم واحد» ، فقال ابن شدّاد مُعلّقاً : «وكان الامرُ كما قال السّلطان رحمه الله» (٢) .

٤ ـ تكاتب أهل عكا المحصورون مع الفرنج المحاصِرين لهم ، وكان في المكاتبات تسليمُ البلد للعدوّ ، ودفع كميّة من النّقود وغير ذلك ، ووقف السّلطان على هذه الكتب ، فأنكر ذلك انكاراً عظيماً ، ولَعلّ أكثر ما ساءه أنّ كلّ شيء يُبرَمُ وهو لا يدري ، فجمع أرباب المشورة وأطلَعهم على تلك المراسلات ، ولم تسنح الفرصة للمجتمعين كي يُبدوا رأيهم ، إذ ارتفعت أعلام الفرنجة على المدينة (٥٨٧ / ١١٩١) وأدركت الناسَ جميعاً بهتَةٌ وحَيرة (٣) .

٥ ـ في بعض مراحل الحرب كان الفرنج على مقربة من القدس ، فوصلت الأخبار إلى السّلطان أنهم عازمون على محاصرَة المدينة ، فأحضر الأمراءَ للمشورة ؛ ويُصَرّح ابنُ شدّاد أنهم جاءوا بمجامَلَة باطنُها غيرُ ظاهِرها ، وأصّر الجميعُ على أنّه لا مصلحة في إقامته بنفسه ، وإنّما يقيمون هم ويخرج هو إلى عكّا ، ولكنّه أصّر على الإقامة ، ثم جاءته الأخبار بتردُّدِهم ، واشتراطِهم أنهّم لا يُقيمون إلاّ إذا أقام أخوه العادل (٤) .

كانت معركة أرسوفَ خاتمةَ انحدار استغرق زمناً ، ففيها كان ريكاردوس مصمماً بتكتيكه الحربيّ المدروس أن لا يسمح لصلاح الدين بحطّينَ ثانية ، ومنذ أمدٍ قَبْلَها أصبح صلاحُ الدين يُحَسّ بالتياثٍ مِزاجي ، ولعّل أعظمَ سبب في ذلك هو شعورُه بأنّه يُواجه الخذلان (٥) ، لقد تباعدت المسافة كثيراً بين أهداف القائد وأهداف عساكره ، حتى أصبح التوفيقُ بينهما عسيراً .

---

(١) النوادر السلطانية : ١١٤

(٢) المصدر السابق : ١١٨

(٣) المصدر نفسه : ١٧٠ ، ١٧١

(٤) المصدر نفسه : ١٠ - ١١

(٥) المصدر نفسه : ١٨٣ - ١٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا ريبَ في أنّنا حين ندرسُ صورةَ صلاح الدّين في أدب ذلك العصر : شعرِه ونثره ، نجدُ تنافساً بين معاصريه لإبراز جوانب تلك الشخصيّة الفذّة ، فقد خصّص العماد الاصفهاني كتابين وجانباً من شعره للحديث عن مآثر صلاح الدين ، واجتمعت حولَه كوكبةٌ من الشّعراء يتبارَوْن في مدحه ، وكتبَ القاضي الفاضلُ في أعماله رسائلَ ضافية كيفاً وكَمّاً ، ولكن لابُدّ لنا أن نقترب من هذا التراث الأدبي لنُحسن تقديره وتقييمه ، ولنأخذْ شاهدين متفاوِتَيْن من العماد ، يقول في الأوّل منهما (١) :

« . . . ثُمّ قويت عزمة السّلطان على قَصْدهم في مخيّمهم ، وكَبْسِهم في مجتمعهم ، وعُبورِ الخَنْدَق إليهم ، والاحداقِ بهم مِن حَواليهم ، وشاعَ صيتُ هذا العزمِ وصوتُه ، وأسرعَ الناسُ إلى مَوْسمِه وحُشِيَ فَوتُهُ ، وتَسامَعَ أهلُ البلاد بتصميم عزيمةِ الجهاد ، فتباشروا وتبادروا ، وتسابقوا وتسارَعوا ، وأتوا من كُلّ فَجّ ، وجاءوا من كُلّ نهج ، وسالوا في كُلّ واد ، وجالوا في كُلّ يَفاعٍ ووِهاد ، ووافَت مطوّعة دمشق وحوران ، يجَرون إلى مُرّ الموت ويجرُّون المِران ، وتوافد مَن بالبرُج والغوطة على الحالة المربوطة وقالوا : هذا أوان إحضار الضّوامر» .

وعلى الرّغم من بناء هذا النصّ على الازدواج فإنّا نُحِسّ فيه اقتصاداً في الغرق في حومة الثّراء اللّفظي ، وبدلاً من ذلك نحسّ بعظمة هذا الشعور المشترك بين القائد والنّاس في نُبل الغاية .

ويقول العمادُ في الثاني (٢) : « . . فحَثّ السلطانُ العزائم وقال : لعلّنا نلحَقُهُم ونُوهقُهم ، وبالقتل نُوبقهم ، وبالأسر نوثقهم ، وفي بحر عسكرنا المجرّ نُغرِقهم ، وبنار الحديد نَحرقُهم ، وبجمْعنا الجمّ نُفرّقُهم ، وبشَباتِنا في الملتقى نُقلقُهم ، ونُروّى الصّعادَ ، ونحوي البلادَ ، ونُديمُ الاجتهادَ ، ونُقيمُ الجهادَ ، ونُطيّر على سنابل الهام من سَنابك الجُرد الجِراد ، ونُعَرّي الحديدَ ونُلبسُهم الحِداد ، ونُجري الجياد ونجُر الأجْوادَ ، ونُحضِرُ القَنا ونَخرُطُ القَتاد ، ونُهلكُ المُرّادَ ونُدْرِكُ المُراد ، ونخلّ بالأغماض ونُخلي الأعماد ، ونُحيي الأجناد ونُنجي الأجناد ، فاستكثرنا العَدَدَ والأزواد . . . » ببساطة يحسّ المرء بعد قراءة هذا النصّ أنّ صلاحَ الدّين أبعدُ الناس عن أن يقولَ مثلَ هذه الأقوالِ ، وإنّ كان العمادُ يُريدُها حكايةَ حال ، وبخاصّة لأنّنا نعرف مستوى كلامِه البسيط في الحياة اليوميّة عندَ ابنِ شدّاد ، وأوّلُ ما يتبادر إلى أذهاننا أنّ صلاحَ الدين يفعل أضعاف أضعاف ما يقول ، وأنّ تواضعه يحول بينه وبين مثل هذا التمدّح القائم على المغالاة ، والتمجّد الذي محا كُلّ خفقة عَطف او دمعة رثاء لدى صلاح الدّين الواقعي ، إنّ العماد لا يُحسِنُ أن يكتب «فصلاً» مسرحياً صغيراً ينقل فيه لمحة من شخصية إنسان متميّز في إنسانيته .

ذلك هو حال النّثر في بعض صوره ، أمّا الشّعر فلَم يكن بحاجة إلى قائدٍ أكفأ من صلاح الدين

---

(١) الفتح القُسّي : ٢٩١ .

(٢) البرق الشّامي ٣ : ٥٦ - ٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليرتفع إلى مستوىً لم يعرفه من قبل ، ولهذا ذهب يكشف عن نواحي تلك القيادة الناجحة كما في قول الجلياني ★ (١) :

وأنتَ المليكُ الناصُر الحقَّ مُعِناً ... يرى دُهم شوك الحربِ مهدَ النّواعم
أتعشقك الهيجاء أم أنت عاشقٌ ... لها في وصالٍ من حَبيبَين دائم
شتاءً وصيفاً لا نزال نراك في ... مساءٍ وصُبحٍ كالأذان الملازم
فهجّرت حتى قيل ليسَ بقائلٍ ... وبَيّتَّ حتّى قيل ليس بنائم

فهذه صورة صادقة في التحدّث عن الواقع المتمثّل في المثابرة على الجهاد دون سأم أو تعبٍ أو استنامة إلى الراحة الطبيعيةّ التي يتطلبها الجسمُ الانساني ، وقد بلغ الجلياني منزلةً شعريةً عاليةً حين تساءل : أصلاحُ الدّين هو الّذي يعشق الهيجاء أم الهيجاء هي الّتي تعشقه .

وأشاد ابنُ الدهّان بإسراع صلاح الدين إلى نُصرة الحليف ، فقال (٢) :

لم يَثْنِهِ عن نصرِه حلفاءَهُ ... عِظَمُ العدوّ ولا بِعادُ الموضِع

ومثلُ نُصرة الحليف اغاثةُ المستغيث في قول الشاغوري (٣) :

للّه يوسفُ كم أغاثَ وغاثا ... وأبادَ مَن عَبدَ الصّليب وعاثا

فأمّا الشجاعة فهي صفة ملازمة له عند الشاغوري ايضاً (٤) :

هو المَلْكُ عند السِّلم حُلوٌ مَذاقُهُ ... ولكنّه في حَومة الحرب باسلُ

وتقترن بها رباطة الجأش في قول ابن الدّهان (٥) :

ثَبْتُ الجَنان إذا القلوبُ تطايرّت ... في الرَّوع يعدِلُ ألفَ ألفِ مُدَرَّعِ

ولو مضينا نعدّدُ صفاتِه التي وقف عندها الشعراءُ لوجدناه حائزاً كُلّ فضيلة وكُلّ عُنصر من مكارم

(١) ابن أبي أصيبعة ،عيون الانباء في طبقات الاطباء ، تحقيق : د. نزار رضا ، دار مكتبة الحياة - بيروت - (د.ت). ص ٦٣١ -
(٢) البرق الشامي ٥ : ١٩
(٣) ديوان فنيان الشاغوري : ٦٩ .
(٤) المصدر السابق : ٣١٥ .
(٥) ديوان ابن الدهان : ٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاخـلاق . وهذا كلّه سـائغٌ مقبول ، ولكنّ الشيءَ الّذي يُثير الاستغرابَ أنّه لا يوجد في هذا الشّعر ما يميز صـلاح الدين عن الممـدوحين الآخـرين ، وأنّ هذا الشـعـر عـامّةً ليـست له طريقـةٌ لطيـفـة في الخروج من المواجـهـة والتّكرار ، وأنّ عناصَر التـصّوير فـيـه قليلة ، وليس فـيه قصيدةٌ ذات كيان ، وإنما أكثر القصائد أبيـاتٌ جُمعت في نطاق لأنّها تُوَحّدُها القافية والوزن .

ومن الصعب ، بل من المُمِلّ أن أقف عند أمثلة أخرى من مدح الآخرين للتمثيل بها ، وإنما عَدَدْتُ صـلاح الدّين بحقّ النمـوذج الأعلى الذي يجب أن يُفـرده المدحُ بالتّمـيز فلم يفعل ، وعلى هذا فإنّه سيكون في مـدح غيره شعراً يستمدّ في أحسن حالاته من قاموس القيم ويُسبِغُها على ممدوحه بحق أو بغير حَقّ .

❊ ❊ ❊

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

الجيش الصّليبي

١ ـ استنفار المحاربين :

كان توقّد المشاعر الدينيّة وسيطرةُ الكنيسة من جهة ، ونظامُ التَّبعيَّة الاقطاعية والتفتيش عن أرض جديدة من جهة أخرى ، عاملين مهمين في استثارة الناس من اوروبا إلى الحرب ، وانخراطِهم في جيوش بعضُها نظاميٌّ وبعضُها غيرُ نظاميّ . وكانت هناك ضروب من اللّعب على عقول الجماهير السّاذَجة ، مثل تصوير المسيح وهو يُضطَّهد ، وقبره وهو يتعرّض للأذى (١) ، وغير ذلك من اختلاقاتٍ ودعاياتٍ ، ساعَدتْ على إثارة هيجانٍ عامٍّ لا يُكبَح ، حتى النّساءُ خرَجْنَ ليثأرْنَ ممّن أهانوا المسيحَ وقبره (٢) ، ومن لم يستطعْ الخروجَ استأجر مَنْ يخرُجُ بدلاً منه ، أو قدّمَ مالاً على قَدر حاله ، إنّ أساليب الاستنفار والتهييج التي تعتمد استغلال السَّذاجة متعدّدة ، ومع ذلك فإنّ الباباواتِ كانوا يلجأون إلى التَّهديد بالحرمان ، مع أنه عنصر مُستغنىً عنه في فورة تلك الحماسة (٣) ، وبخاصة أنَّ طرحَ فكرة الغفران ـ لمن يشارك في الحرب ـ مقابلَ فكرة الحرمان ، كان له أثر كبير في النفوس ، هذا إلى تعليق كثير من الأمور بالغَيب والأحلام وأنواع الكرامات ، وقد كان طابع الشمول في المشاركة الحربيّة هو الغالب ، فإنه لم يبق مدينة ولا بلدة ولا جزيرة ولا خِطّةٌ صغيرة ولا كبيرة إلاّ جهّزت مراكبها وأنهضَت كتائبها (٤) .

إنّ موجات الاستنفار كانت تكفُل كثرة الاعداد الخارجة في الحرب ، وهذه الكثرة المذهلة هي التي توقف عندَها الكُتّابُ والشعراء والمؤرّخون المسلمون حتى قال أحدهم (٥) : «واجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغربيّة والألسنة الأعجمية مَن لا يُحْصَر معدودُه ، ولا يُصَوّر في الدنيا وجوده» ولكنّ الذي كان يجعل نكاية الجيوش أشدّ ، حرصُ نبلاء الاقطاع على أن يجدوا أرضاً لهم ولأبنائهم ، ثم تنظيمُ جمعياتٍ دينية محاربة ذاتِ قدرة على الاثخان في المسلمين .

إنّ خروج الفرنجة وخاصة في الحملة الأولى لم يكن استدعاءً للانخراط في جيش محارب (إلاّ لأقلية من نبلاء الاقطاع وأتباعهم) بل كان استنفاراً عاماً لعناصر متفاوتة في فهمها لأصول الحرب والقتال ،

---

(١) مُفَرّج الكروب ٢ : ٢٨٨ والنوادر السلطانية : ١٣٦ - ١٣٧ .
(٢) مُفرّج الكروب ٢ : ٢٨٩ .
(٣) كتاب الرّوضتين ٢ : ١٦٢ .
(٤) المصدر السّابق ٢ : ١٤٥ .
(٥) من كتاب فاضلي في الرّوضتين ٢ : ١٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وليس الأمر كذلك بالنسبة إلى العساكر الاسلامية ، فقد كان معظمها خاضعاً لدواوين وأعطيات منظمة ، ولم يحدث أن اتكأ القائد المسلم على الاستنفار التلقائي إلاّ نادراً ، فقد حدث مرّة (٥٥٢ / ١١٥٧) أن أمر نور الدين بالنداء في دمشق في الغزاة والمجاهدين ، فتبعه من الأحداث والمطّوعة والفقهاء والصوفيّة والمتدينين خَلق كثير (١) .

كان المسلمون معذورين في الرّبط بين الصليبيين والكثرة ، لأنهم فوجئوا في الحملات المختلفة بأعداد كبيرة جداً ، ولكنّ استمرار هذا الرّبط يدلّ على أنّه ليس وحسب وليد صدمة نفسيّة ، بل على أنّه وليدُ إيمان عميق بأنهّ ليس من الفخر في شيء أن تجد أحداً يفتخر بأنّه انتصر على عدوّ قليل العدد ، فالذين يخبر فتيان الشاغوري أنهم هاجموا دمياط كانوا (٢) .

يزيدُ عن الاحصاء والعدِّ جمعُهم ... ألُوفُ ألُوفٍ خيلُهم والرّواجلُ

وفي دمياط الأخرى (٦١٩/ ١٢٢٢) يقول ابن عنين: أنهم لقوا جَحفلاً «لا يحُصى يقيناً ولا ظَنّا» (٣).

وأفاض الكتّاب ايضاً في الحديث عن الحشود الفرنجيّة وتفنّنوا في وصفها ، وربّما بالغوا ، ولعلّهم فعلوا ذلك استنهاضاً للهمم وشحذاً للعزائم .

فقد وصف القاضي الفاضل في بعض كتبه التي أرسل بها بأمر من الملك الناصر صلاح الدين إلى ملك المغرب ، استنفار الفرنجة من سائر بلاد الغرب إلى ديار الاسلام في الشام ومصر ، فذكر أنّهم هبّوا يلبّون النداء كباراً وصغاراً ، وشيباً وشباباً ، رجالاً ونساءاً ، باذلين كلّ ما يملكون من أجل إنجاح أهداف حملاتهم، وقال (٤) : «. . . ولمَ يؤخّر فتحَ البلاد بَعدَها ، إلاّ أنّ فَرعَ الكُفّار بالشام استصرخ بأصل الكُفّار من الغرب ، فأجابوهم رجالاً وفرسانا ، وشيبا وشُبّاناً ، وزرافات ووحدانا ، وبَرّاً وبَحراً، ومَركَباً وظهراً ، وركبوا إليهم سَهْلاً وَوعراً ، وبَذَلوا ما عوناً وذُخرا . وما احتاجوا ملوكاً ترتادهم ، ولا أرساناً تقتادهم ، بل خَرَجَ كُلٌّ بلُبّي دعوة بَطرَكه ولا يحتاج الى عَزمة مَلِكه . وخرجت إليهم عِدَّة ملوكٍ اقفلت العُجمةُ على أسمائها ، وأتت العزيمة بحمد الله على أشخاصها . . .» .

ووصف القاضي الفاضل زَخَمَ الامدادات الفرنجية التي كانت تتوالى من أوروبا أيّام قاد الحملة ملك ألمانيا فردريك الأوّل ، إذ كتب بتكليف من السّلطان النّاصر صلاح الدّين إلى ديوان الخلافة ببغداد يُعلم

---

(١) كتاب الرّوضتين ١ : ١٠٧ .

(٢) ديوان فتيان الشاغوري : ٣١٥ .

(٣) ديوان ابن عنين : ٢٩ .

(٤) كتاب الروضتين ٢ : ١٧١ - ١٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخليفة بخبر الحملة الجديدة . ومّما جاء في هذا الكتاب (١) : « . . . ومن خَبرَ الكُفّار أنهم إلى الآن على عَكّا ، يُمِدّ البحرُ بمراكبَ اكثرَ عِدَّةً من امواجه ، ويُخرِج للمسلمين منهمَ أمرٌ من أُجاجه . فقد تعاضدت ملوك الكفر على أن ينُهضوا إليهم من كُلّ فرقة منهم طائفة ويقُلّدوا لهم من كُلِّ قِرْن يُعجِز بالكَرّة واصفه . فإذا قَتَل المسلمون واحداً في البحر ، بعث البحرُ عِوضَه ألفاً ، وإذا ذهب بالقتل صنفٌ منهم ، أخلف بدله صِنفا ، فالزّرع أكثر من الجِداد والثّمرةُ أنمى من الحَصاد . . . » .

وتحدث العماد عن كثرة الصليبيين الذين نزلوا على عكا محاصرين (٥٨٥ / ١١٨٩) فقال (٢) : «وكانوا في عدد الرّمل ومَدد النّمل ، وهم في كل يوم في ازدياد والبحر يُمدّهم بالامداد» .

ويقول العماد أيضاً متحدثاً عن الفرنج في معركة حطينّ (٣) : «حشدوا الفارسَ والرّاجل ، والرّامح والنّابل . . وخرجوا عن العدّ والاحصا ، وكانوا عددَ الحصى ، وصاروا في زهاء خمسين ألفاً أو يزيدون» .

وقد صوّر الكُتّاب المسلمون تتابع أفواج الصليبيين أنهم لا ينقصون ، وأنّ استمرار المدد يعني استمرار البلاء (٤) «وليس هذا العدوّ بواحدٍ فينجَعُ فيه التّدبير ، ويأتي عليه التدمير ، وانّما هو كُلّ من وراء البحر ، وجميعُ مَن في ديار الكُفر» ، ولعلّ أقربَ صورة كانت حاضرةً الى أذهان الكُتّاب حينئذ هي تشبيه هؤلاء الصليبيين برجل الدّبا (الجراد) (٥) لا في الكثرة وحسب ، بل في القضاء على الأخضر واليابس ، وكانت المشجّعاتُ على تَتابُع المدد متجدّدة ، كُلّما فقد عامِلٌ قدرته على الاستثارة والاستنفار جَدّ عاملٌ حقيقيٌّ أو مُنتَحل .

٢ ـ عناصر الجيش الصليبي :

تعدّدت الأجناس التي شاركت في الحروب الصّليبية ، صَحيحٌ أنّ أكثر المندفعين في الحملة الأولى كانوا من الفرنجة ، وبهذا الاسم عرف العرب هذه الحروب ، وظلّت كذلك في نظرهم ، ولكن بعد الاندفاعة الأولى شارك في الحرب أجناسٌ أخرى : ألمانية وانجليزية وإيطالية ، وتعدّدت لغات المشاركين فيها ، حَتّى كانت الترجمة بين بعضهم البعض وسيلةً ضروريّة للتّفاهم . وما دام الحديث عن الجيش ، فلا بُدّ من الأخذ بالدقّة في تصنيف المقاتلة الصّليبيين ، ذلك أنّ ميل بعض الكُتّاب إلى التكثير من خلال السّجع ـ وخاصّة لدى العماد الاصفهاني ـ يُبهم على القارىء حقيقة الوحدات التي كان يتكوّن منها ذلك

---

(١) صبح الاعشى ٧ : ١٣٥ .
(٢) كتاب الرّوضتين ٢ : ١٤٤ .
(٣) الفيح القسيّ : ٧٣ - ٧٤ .
(٤) كتاب الرّوضتين ٢ : ١٤٩ .
(٥) المصدر السابق ٢ : ١٦١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجيش ، فالعماد مثلاً يذكر في الرّجالة : الناشبَ والنّابل ، والأوّل يستخدم القوس والنشّاب ، والثّاني يرمي بالنّبل ، اي أنّ كليهما من فئة الرّماة ، ويُعُدّ في الفرسان ألفاً وخمسمائة رامح ، ثم يعدّ التركوبلي (١) ، وهم فريق من الفرسان أيضاً وإن كان الرّمح ليس من أسلحتهم .

لنقرّر أوّلاً أنّ الجيش الفرنجي قسمان بحسب ركوب الخيل وعدم ركوبها ، الفرسان : وهم الأقلّ عدداً ، والأكثر أهميّة ؛ وقد اقتبستُ فيما تقدّم ما ذكره أسامة بن منقذ عن منزلة الفارس عند الفرنجة ومَبلغ تقديرهم له ، ثُمّ الرّجالة : وهم المشاة وعددهم في الجيش الواحد كبيرٌ جداً ، ولهم دَورٌ مُهّم في الجيش ، ولكنّه دورٌ أقلّ شأناً من فريق الفرسان ، ويستمدّ الفرسان أهميتهم من كونهم عصب النظام الاقطاعي ، فهم موجودون في أوروبا وانجلترا قبل أن تبرز الحاجة إليهم في الحروب الصليبيّة ، ولكنّ الحملة الصّليبيّة الأولى كشفت عن تبلور نواة منظمتين أو أخويّتين هما : فرسانُ المعبد (الهيكل) أو الداويّة ، وفرسانُ الاسبتاريّة ، أمّا الأوّلون فنذروا أن يدافعوا بالسّيف عن الحجّاج المسيحيين وعن الطّرق إلى الأماكن المقدّسة ، وأن لا يُحجموا عن خوض أيّة معركة وإنْ كان عدوّهم يفوقهم عدداً ، فهم منذ البداية تنظيمٌ حربيّ ، ولذلك خافهم المسلمون أكثر من أيّة منظمّة أخرى ، وأمّا الجماعة الثانية فقد كانوا من البداية يَرون من واجبهم تعهّد المرضى والعناية بهم ، ولكن منذ أن بدأوا يشاركون في المناوشات والحروب ضدّ المسلمين ، فإنهّم سرعان ما عُرفوا بأنهم فرسانٌ ذوو حماسة دينيّة (٢) .

ثُمّ ظهرت منظمّة ثالثة دينيّة عسكريّة في طابعها هي منظمة الفرسان التوتون ، وتربط الروايات في نشأتها بينها وبين مركز استشفاء ألماني أُنشيء في القدس ، أو مستشفى ألمانيٌ كان في عكّا ، أولهما أنشأه التجّار الألمان ، وثانيهما أنشأه الصليبيّون الألمان ، وكان الأوّل لمعالجة المرضى من الحجّاج والفقراء ، وكان الثّاني لمعالجة المرضى والجرحى من محاربي الصليبيين ، وهكذا تحوّل الثاني إلى أخويّة عسكريّة مثل الدوايّة ، وأبقوا على العناية بالمرضى تشبّهاً بالاسبتاريّة (٣) .

وقد كان فرسان المنظّمتين الأوليين شديدي النكاية في المسلمين ، ولهذا نجد أنّ صلاح الدّين لم يكن يعفو عن أيّ أسير منهما ، إلاّ نادراً ، ففي إحدى المرات أُسر اثنان من مُقدمي الاسبتار ، فقالا للسّلطان: « ما نظنّ أنّنا بعدما شاهدناك يلحَقُنا سوء ، فَرَقّ لهما واستبقاهما» (٤) .

---

(١) البرق الشامي ٥ : ١٤٨ .

(٢) Sterns, I. The Teutonic Knights in the Crusader States, in The History of the Crusades (K.M. Stern, G. ed.) Vol.V, PP. 315 - 316 .

(٣) Op. Cit. PP. 317 , 322 .

(٤) الفتح القسّي : ٢٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويذكر العماد بين فئات الصليبيين فئة يسمّيها البارونيّة (١) «والبارونيّ يُقدم على البوار» ، ولا أظنّه يعني فئة عسكريّة ، وإنّما يُطلَق هذا الاسم على طبقة البارونات ، وهم السّادة الاقطاعيّون ، الّذين قد يكونون في فئة الفرسان . كما يذكر الفريريّة (٢) : «وما للفريريّة من الموت فرار» والمرجّح أن اللفظة تعني الأخويّة الرهبانيّة عامّة أو تخصّ واحدة من الأخويّات، كذلك يذكر العماد أيضاً «السّرجندي» (٣) : «وسرجندي كرّار» وهو من فئة الرّجالة ، وقد يكون أحياناً ممّن يقومون بمهمات الشرطيّ ، وبعضهم يقومون بخدمات عسكريّة (ولعلّهم من هذه النّاحية كانوا يشملون التركوبوليّة) ووظيفة السرجندي قد يكون صاحبُها أحدَ الفرسان (٤) ، وكان التركوبوليُّ فئاتٍ مقاتلة مستقلّةً تعمل في خدمة الأخويّات الدينيّة الحربيّة ، أي أنهم كانوا فئة الخيّالة الخفيفة ، في نظام تلك الأخويّات ، ويعملون تحت توجيه الأخويّات في الدفاع عن الدول الصليبيّة ، ولعلّهم كانوا ممّن اعتنقوا النصرانية من العناصر المحليّة الممتزجة بدماء لاتينيّة ، وكان لهم قائدهم (Turcopolier) ، وهم يعملون في خدمة سَيّد الأخويّة ، فأحدهم حامل ترس، والثاني مراسل، والثالث حاجب وهكذا . كما كان لقائد التركوبوليّة خادمٌ في البيت وآخر في الميدان، ولّما كان السرّجندي أو التركوبولي جندياً خفيف السلاح، فهو يركب في المقدّمة أو في السّاقة (٥) .

بقي أن نميز فئات أخرى يذكرها العماد مثل الألمانيّة والفرنسيسيّة (٦) : «وزادت آلام الألمانيّة وعادت أسقام الافرنسيسيّة» ، وهذان أيضاً شعبان شارك جنود كثيرون منهم في الحروب الصليبيّة ، وليسا أخويّتين عسكريّتين .

ويقول العماد ايضاً (٧) : « وقرنصت بُزاة البيزانيّة ، وتقلّصت جُناة الجنويّة » وواضح أنّه يعني أهل بيزا (بيشة) وأهل جنوة بإيطاليا ، وقد شاركت المدينتان بأسطوليهما في التجارة ونقل الحجّاج والمحاربين ، وكان لهما قطع حربيّة تحمي تجارتهما ، ثم اشترك أسطولاهما في بعض الحروب .

وأوجز فأقول : إنّ الجيش الصّليبيّ كان يتكوّن من العناصر الآتية :

١ ـ المنظمات أو الأخويات العسكريّة .

٢ ـ المرتزقة الذين أصبحت الحاجة ماسّة إليهم بعد الحملة الأولى .

٣ ـ الحجّاج الذين يأتون سنوياً إلى الأرض المقدّسة .

---

(١) النبيح القسّيّ : ٢٦ ، ١٢٥ ، ١٦٤ ، ٤٠٣ .

(٢) المصدر السابق : ١٢٥ .

(٣) المصدر نفسه : ٤٠٣ .

(٤) Riley - Smith, J. The Fendal Nobility and the Kingdom of Jerusalem, Macmillan (1973) P. 5 .

(٥) Sterne / pp. 338 - 339 . وانظر النبيح القسّيّ ، فقد قرن العماد بين السرجندي والتركبولي ، ص ٤٠٣ .

(٦) النبيح القسّيّ : ١٦١ .

(٧) المصدر السابق : ١٦١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤ ـ طبقة الفرسان الخفيفي السلاح ، وهم من أبناء البلاد الأصلية ، وقد نجموا عن زواج أبوين من دينين مختلفين ، وهم الذين تطلق عليهم مصادرُنا اسم التركبول .

ولامراءَ في أنّه كان للفرسان بحكم دورهم الحربيّ نفوذٌ كبير في الجيش الفرنجي ، ولكن لعلّه إنما كان على حساب السلطة المدنيّة التي كان يمثلّها الملك ، والدينيّة التي كان يمثلّها البطاركة . وعلى الرغم من أنّ الدافع المبكّر لخروج الفرنجة من بلادهم إلى ديار المسلمين كان دافعاً دينياً استجابةً لدعوة رجال الدّين كما نفهم من نصّ كتاب فاضليّ بأمر من صلاح الدين أرسله إلى بغداد جاء فيه (١) : « وقد بُلي الاسلامُ منهم بقوم قد استطابوا الموت واستجابوا الصّوت ، وفارقوا المحبوبين : الأوطانَ والأوطار ، وهجروا المألوفين : الأهلَ والدّيار ، وركبوا اللّجَجَ ، ووهبوا المُهَجَ ، كلُّ ذلك طاعةً لقسّيسهم ، وامتثالاً لأمر مركيسهم ، وغيرةً لمتعبَّدهم وحميّةً لمعتقدهم . . . ». أقول: على الرّغم من ذلك فإنّ المكاسب الدنيويّة والنزعاتِ الاقطاعيّة سرعان ما أدّت إلى ظهور تنافس بين أصحاب الأمر من الفرنجة (٢) ، فكلّ سعى إلى الحصول على أكبر قدر من المكتسبات على حساب غيره ، وانعكست آثار ذلك على الجيش قياداتٍ وأفرادا، إضافة إلى الخلافات التي كانت تنشأ في الحين بعد الحين بين رجال السلطتين الدينية والمدنيّة (٣) ، وما أن اقتربت الحروب الصليبيّة من نهايتها حتّى أصبح نفوذُ الملك على قوّاته ضعيفاً (٤) ، على خلاف ما كان قائماً في جيش المسلمين الذي كان أفرادُه وقادتُه يثقون في قيادة ملكهم ثقةً مطلقة ، ويطيعونه طاعة عمياء (٥) .

وكان جيش الفرنجة إلى جانب قوّاته الرئيسيّة يعتمد في كثير من الأحوال أيضاً على المرتزقة (٦) ليشاركوه القتال ، أو يتخذ منهم أدلاّء يرشدونه إلى مواقع المسلمين ، أو يدلّونه على مسالك الطرق ، وأولئك المرتزقة هم في الغالب من المولّدين (٧) أو من العبيد (٧) أو من البدو (٨) . وقد روى أسامة بن منقذ عن أحدهم أنّه بعد مقتل سيّده انتقل إلى خدمة فرنجي ذي نفوذ ، فكان يرشد الفرنجة إلى مواقع المسلمين ، ويشاركهم عملياتِ النهب والسّلب (٩) .

وفي كتاب فاضليّ أمر بتوجيهه صلاح الدين من مصر إلى الملك العادل نور الدينَ ذِكرٌ لبعض أولئك

---

(١) كتاب الرّوضتين ٢ : ١٦٢ ، وانظر : الكامل في التاريخ ١٢ : ٣٣ .

(٢) فولفغانغ مولّر - فيتر ، القلاع أيام الحروب الصليبية ، ترجمة محمد وليد الجلاّد ، دار الفكر - دمشق (١٩٨٤) : ٩ .

(٣) مُنَرّج الكروب ٣ : ١٤٥ ، وانظر الكامل ١٢ : ٧١ .

(٤) د . جوزيف نسيم ، هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل، مؤسسة المطبوعات الحديثة، القاهرة (١٩٦٣) ص ١١١ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) جوناثان سميث ، الاستبارية ، ترجمة العميد الركن صبحي الجابي ، طلاس للدراسات دمشق (١٩٨٩) : ٣١٦

(٧) المرجع السابق .

(٨) النوادر السلطانية : ١٨١ .

(٩) الاعتبار : ١٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المرتزقة (١) : « وأكبر الأسباب المعينة على ما يَرونه من هذه المصلحة ، أن لا يبقى في بلادهم أحَدٌ من العُربان ، وأن ينتقلوا من ذُلّ الكُفر إلى عزّ الإيمان . وممّا اجتهد فيه غاية الاجتهاد ، وعَدّه من أعظم أسباب الجهاد ، ترحيلُ كثير من أنفارهم ، والحرصُ في تبديل دارهم إلى أنّ صار العدوّ - اليومَ - إذا نهضَ لا يجد بين يديه دليلاً ، ولا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً » .

كما كانوا يوظّفون بعض عناصرهم لكشف أحوال معسكر المسلمين ، فيلجأون إلى الحيلة والخداع من أجل تحقيق هذا الهدف (٢) ، ولربّما اندسّ بعضهم في صفوف المتمرّدين من غير الفرنجة الذين كانوا يثورون في وجه العساكر الأسلاميّة ، لأنّهم يتّفقون معهم في الهدف ، وهو إلحاق الهزيمة بهذه العساكر وإضعافُ سَطوتها ، كما يُفهَم من كتاب فاضلي على لسان صلاح الدّين مُوجّهٍ إلى الخليفة ببغداد ، وممّا جاء في هذا الكتاب (٣) : « . . . مع مَن انضمّ إليهم من ألفاف وأطراف وأوشابٍ وأوباش ، من جنديّ كَسَبه سيفُه ذِلّه ، وطَرَدَه من مواقف الكرام وبمحالّ الخزي أحَلّه ، ومن أرمَنيّ يفزع إلى نُصرة نَصرانيّته ، ويعتمدون منه على ابن مَعمودّيته . . . » .

وقد ذكرت لنا المصادر التي أرّخت لهذه الفترة ، أنّ المرأة الفرنجيّة كانت تقاتل جَنباً إلى جنب مع الرّجل الفرنجي فوارسَ وراجلاتٍ فقال العماد (٤) : وفي الفرنج نساء فوارس ، لهن دروعٌ وقوانس ، وكنّ في زيّ الرجال ، ويَبرزن في حومة القتال ، ويعملن عمل أرباب الحِجا وهنّ رَبّاتُ الحجال ، وكُلٌّ هذا يعتقدنه عِبادة ، ويخَلْن أنّهنّ يستزدْنَ به سعادة » .

وقد ذكر القاضي الفاضل في كتاب مُوَجّه إلى ديوان الخلافة ببغداد أمرَ أولئكَ النسوة ، وبَيّنَ أنّ من بينهنّ ملكاتٍ حَشَدْنَ الحشود وجَمَعْنَ الجموع ، وسَيّرْنَهم تحت امرَتهنّ ، فقال (٥) : « . . . حتّى خرجت النساءُ من بلادهن مُتبرّزات ، وسِرْنَ إلى الشام في البحر والبرّ متجهّزات ، وكان منهنّ ملكة استتبعت خمسمائة مقاتل ، فارس وراجل ، ورامحٍ ونابل ، والتزمت بمؤونتهم ، فصودفَ مركبُها بقرب الاسكندرية ، فأُخذت برجالها وأراحَ اللّهُ من شرّ احتفالها . وفيهنّ ملكة وصلت مع ملك الألمان ، وذوات المقانع من الفرنج مُقنّعاتٌ مقارعاتٌ يُحمَلْنَ إلى الطِّعان الطّوارقَ والقنطاريّات (٦) ، وقد وُجدَ في الوقعات التي جَرَت عِدّةٌ منهنّ بين القتلى ، وما عُرفْنَ حتّى سُلِبْن . . . » .

---

(١) كتاب الروضتين ١ : ٢٠٦ .

(٢) المصدر السابق ١ : ٢٢١ .

(٣) صبح الاعشى ٦ : ٥٠٤ .

(٤) الفتح القسّي : ٣٤٩ .

(٥) كتاب الروضتين ٢ : ١٦٢ .

(٦) سيأتي تفسير الطوارق والقنطاريات عند الحديث عن الاسلحة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد كانت المرأة الفرنجية تقوم بدور آخر، غير دور مباشرة القتال إلى جانب الرجل، إذ كان بعضُهن يجُلَب من أجل الترفيه عن الجنود الذين نأت بهم الحملات الصليبيّة عن بلادهم (١) ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنهن كُنّ يُسبِلْنَ أنفسَهُنّ لإغراء أصحاب النفوس الضعيفة من عساكر المسلمين (٢) ، وهنّ يعتقدن أنهن بذلك يكُنّ قد قدّمن خدمة جليلة في تثبيت عساكر الفرنجة ، وإفساد عساكر المسلمين، وقد رسم العماد صورة غريبة لأولئك النِّسوة حيث قال (٣) : «وصلت في مركب ثلاثمائة امرأة افرنجيّة مستحسَنة ، متحلّية بشبابها وحُسنها مُتزيّنة ، قد اجتَمَعْنَ من الجزائر وانتدُبن للجزائر ، واغتَرَبْنَ لاسعاف الغُرباء ، وتأهّبْنَ لإسعاد الأشقياء . . . فَوَصَلْن وقد سَبَلْن أنفسُهنّ ، وقَدّمْنَ للتبذّل أصونهُنّ وأنفسَهُنّ . . . » ثم ذكر العماد : « أنّهن لا يَمْتَنِعْنَ من العُزبان ، ورأيْنَ أنهنّ لا يتقرّبْنَ بأفضل من هذا القربان . . وزَعَمْن أنّ هذه قُربة ما فوقها قُربة ، لا سيّما فيمن اجتمعت عليه غربة وعُزبة ، وسَقَيْنَ الخمر ، وطَلَبْنَ بِعَيْنِ الوزر الأجر . وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضيّة ، وعجبوا كيف تعبّدوا بترك النخوة والحميّة ، وأبق من المماليك الأغبياء والمدابير الجهلاء ، جماعةٌ جَدّ بهم الهوى ، واتّبعوا من غَوى ، فمنهم من رَضِيَ اللّذة بالذلّة ، ومنهم مَنْ نَدِمَ على الذلّة فتخيّل في النّقلة ، فإنّ يَدَمَن لا يَرتَدّ لا تمتَدّ وأمرُ الهارب إليهم لاتهامه يشتَدّ ، وباب الهوى عليه يَسْتَدّ . . » .

٣ ـ تعبئة الجيش الصليبي :

كانت قسمة الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب قاعدةَ التعبئة لدى الصليبيين مثل ما كانت عند غيرهم، ولكنّ هذه التعبئة مؤيّدة بأمور أخرى يتميّزون بها عن غيرهم ، إذ لدى ترتّب العسكر للزّحف ، تصطفّ الرّجالة حوله كالسّور ، وعليهم الكُبورة الشخينة ، والزّرديات السّابغة المحكمة (٤) « بحيث يقع فيهم النشّاب ولا يتأثّرون . . . وينغرز في ظهر الواحد منهم النُّشّابة والعشرة ، وهو يسير على هينته من غير انزعاج . . والخيّالة في وسطهم لا يخرجون عن الرجالة إلاّ في وقت الحملة لا غير » .

وفي هذا النوع المحكم من التعبئة عُرفوا بالتزامهم الدّقيق بهذا النظام الذي اختاروه ، فكُلّ محاولة لاستدراجهم تذهب عَبَثاً ، ومن الصّعب جرُّهم إلى معركة لأنّ مناعتهم ضدّ الاستفزاز أقوى من ذلك ، ولهذا كانوا في أغلب الأحيان هم الّذين يتحكّمون بمقادير المعركة ، وشُهرت عنهم صفات تبعث الرّعب

---

(١) الفيح القُدسي : ٣٤٧ .

(٢) المصدر السابق : ٣٤٨ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٤٧ / ٣٤٨ ، وقد حذفت من كلام العماد الكثير ، والحقيقة في ذاتها قد لا تجد مشكّكاً فيها ، ولكنّ الانسياق وراء الايغال في التصوير هو الّذي يُثير شيئاً من التشكيك .

(٤) النوادر السلطانيّة : ١٧٩ وكتاب الرّوضتين ٢ : ١٩٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في نفوس أعدائهم قبل بدء القتال ، يقول العماد (١) : « فإنهم إذا نزلوا صَعُب نزالهم ، وأتعَبَ قتالهُم ، وإذا نَبتوا تعذّر حصدُهم ، وإذا ثبتوا تعذّر قصدُهم ، وإذا لَصِقوا ببطن الأرض صاروا كالقراد ، وإذا حَلّقوا في جَوّ الدوّ صاروا كالجراد » ، ولهذا كان من خطّة صلاح الدين أن يحول بينهم وبين النزول ما استطاع ، وأن يؤخرّهم عن الوصول إلى موضع يستقّرون فيه ، وخالفه مستشاروه في الرّأي ، ولم يدركوا صواب رأيه إلاّ بعد فوات الأوان .

ويؤكّد العماد رأيه هذا فيهم بقوله في موضع آخر (٢) : « وقد ألحت عليهم الرّماة ، وراجِلُهم محدق بخيّالتهم كالأسوار ، إنّ المسلمين كانوا يقولون لأنفسهم لعلّ هؤلاء الفرنجة يغضبون فيجهلون ، فتتمكن عندئذ من تفريق جماعتهم » ، ولكنهم حتّى عندما عزّ عليهم أن يثبتوا واضطرّوا إلى الهرب كانوا (٣) «مجتمعين في مسيرهم ، يتحرّكون في سُكون ، ويتظاهرون في كمون » .

وفي مصافهم على عكّا ، نرى ملكهم في القلب ، حسبما كان يفعل صلاح الدين (٤) ، « وبين يديه الانجيل محمولاً مستوراً بثوب أطلس مغطّى ، يمسكه أربعة أنفس بأربعة أطراف ، وهم يسيرون بين يدي الملك » .

ولا يشبه حرصهم على إيلاء الانجيل تقديراً خاصّاً إلاّ حرصُهم على العَلَم (٥) « وهو مرتفع على عجلة هو مغروس فيها ، وهي تُسحَبُ بالبغال ، وهم يذبّون عن العلم ، وهو عالٍ جداً كالمنارة » .

وكان اختيارهم لِسَرْدٍ يُغطّي كُلّ جسم الفارس ، بحيث لا تؤثر فيه النّبل ، ويبدو وقد عَلِقَت به النّبال كالقنفذ ، يشبه أيضاً حرصهم على سلامة الحصان ، إذ كان يُلبّس بالزّرد إلى حافره (٦) .

إنّ صلابة هذه التعبئة وتماسكها وتلاحم أجزائها ، ووقوفَها كالبنيان المرصوص لم يكن هو وحده الّذي رسّخ للفرنجي صورة خاصّة - أقربَ إلى إثارة شيء من الرعب الخفيّ في نفوس أعدائهم - بل إنّ اقتران تلك التعبئة بعوامل أخرى مثل الوحشيّة في تقتيل النساء والاطفال ، ومعاملة المستأمنين بالغدر ، وتسليطِ التعذيب على الأسرى ، هو الذي أعطى لتلك الصّورة بشاعةً لا تكاد تزول .

وليس بخافٍ كم كانت طريقة الفرنج في التعبئة حريصة على تمييز الفرسان ، فمن أجل الفرسان وسلامتهم يقف الرَّجّالة يتلقّون السّهام بثبات عجيب ، ثمّ تخصيصُهم بذلك اللون من اللّبس وتخصيص

(١) الفتح القُسّي : ٢٩٧ والنوادر السلطانية : ١٨٠ « فإنهم كانوا إذا نزلوا أيسَ النّاسُ من أمرٍ يتمّ معهم ، ورجعوا عن قتالهم » .

(٢) الفتح القُسّي : ٤٤٣ - ٤٤٤ .

(٣) المصدر السابق : ٤٤٤

(٤) النوادر السلطانية : ١٠٩ .

(٥) المصدر السابق : ١٤٩ .

(٦) المصدر نفسه : ١٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خيولهم بمثله ، وحرمانُ الرَّجّالة من عناية مماثلة ، دليلٌ واضح على أنّ النهاية السارّة للمعركة إنّما كانت في نظرهم تتعلّق بالفرسان وخيولهم ، وكانوا يعتقدون (١) « أنّ فارسهم مادام فرسه سالماً لم يذلّ للصرعة ، فإنّه من لبس الزردي من قرنه إلى قدمه كان كأنه قطعة حديد ، ودِراكُ الضَّرب إليه غير مفيد » .

أمّا المشاة فكانت مجموعاتهم تضمّ أناساً متفاوتين في الدّربة ، متفاوتين في درجة التسلّح ، وفي أوّل معركة خاضها الصليبيّون ضدّ الاتراك لم يشارك فيها الرَّجالة ، بل إنّ بيمند القائد في تلك المعركة اقتصر في خوضها على الفرسان ، وهذا جعل بعض الدارسين يستنتج أنّ دور الرَّجالة لم يزد على مساندة الفرسان وتكوين جدار حاجز دونهم ، ولكن حتّى لو لم يصحّ مثل هذا التقدير ، فإنّ دورهم ظلّ دائماً دفاعياً ولم يتحوّل إلى هجومي (٢) .

٤ ـ قائد الجيش ومجلس الشورى الحربي عند الصليبيين :

في الفقرة المخصّصة لدراسة هذه الناحية في النظام الحربي الاسلامي كان من السّهل اختيار قائد نموذجي ، يتخذه الدارس مقياساً للقيادة العسكريّة جُملة . ليس معنى هذا أنّ الدارس يجد في كلّ حقبة رجلاً من وزن صلاح الدّين ، ولا يزعم هذا الدارس أيضاً أنّ القوّاد الآخرين كانوا جميعاً يقاربون في شخصياتهم شخصيّة صلاح الدّين في بعض عناصرها الجزئية ، ولكنّ محاولةَ اختيار شخصيّة قياديّة نموذجيّة عليا في الجانب الصّليبي أمرٌ مُتَعَذّر ، فقد كان هناك قادة كثيرون يتميّزون بالشجاعة ، وخدمة دينهم ، وبالتفوّق في رسم الخطط الحربيّة ، وبروحٍ تخضَع للشّورى وتُقرّ بفوائدها ، ولكنّ هذه الصفات الايجابيّة وغيرها كانت موزّعة في عِدّة شخوص ، بحيث يتميّز واحد منهم بشيء لا يوجد في الثاني ، واذا جمعت خصائصهم تلك لتمثّل شخصيّة واحدة ، ظلّت هناك خصائص تميّز بها صلاح الدين مفقودة لديهم : كانوا كلُّهم أو أكثرهم يستمّد خير ما فيه من روح دينه ، ولكن لا أجد منهم مَن استطاع تدينّه أن يمنحه عشر ما كان لدى صلاح الدّين من نظرة انسانيّة تتجاوز أبناء دينه إلى أبناء الدّين الآخر ، فكان صلاح الدّين نموذجاً للوفاء وصون قيمة الكلمة ، ولكن أقدر قائد في الصّليبيين مثل ريكاردوس قلب الأسد لم يتورّع عن الغَدر وهو مُستَغنٍ عنه .

ولهذا فربّما كان خير ما يُصوّر مبدأ القيادة أن ندرس بإيجاز المميزات الكبرى لدى ثلاث شخصيّات قامت بدور القيادة : كان غودفري من أبرز القادة في الحملة الصليبية الأولى ، وكان من حيث التكوين الجسديُّ بالغَ الطّول عريض الصّدر قوي العضلات ذا شعر أشقرَ ذهبيّ ، ولحية شقراء ، وكان محارباً

---

(١) الرّوضتين ٢ : ٥٨ من كلام للعماد في وقعة حطّين .

(٢) Smail, P. 119 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

باسلاً وصّياداً ماهراً ، كما كان في نظر أصحابه شديد التقوى ، يتمتّع باللطف وحبّ الخير والتواضع ، أبى أن يلبس تاجاً في مدينة لبس فيها المسيح اكليل شوك ، ومع أنّه كان ملكاً غير متوج للقدس ، فقد ظلّ حريصاً على البساطة في عيشه ، يجلس على الأرض العارية ، ويتكيء على كيس من القشّ .

وقد اختير ليكون أوّل ملك للقدس مع أنّه كان أقلّ طموحاً وتشوّقاً إلى السلطة من زميله ريموند . وحين سُئل عنه زملاؤه في الكنيسة صرّحوا بأنّه لا يُضايقهم فيه إلاّ مُغالاته في التعبّد ، وكان إذا قارنته بريموند العنيد الحقود المتهوّر وجدْته سهل الجانب صبوراً طيّب العشرة ، وفي ميدان القتال أسداً هصورا (١) . تلك صورة تشترك مع صلاح الدّين في بعض خصائصه وتفارقه في بعضها الآخر ، ولو وقفنا على أحداثٍ ممّا مَرّ به كما وقفنا على أحداث ممّا مَرّ بصلاح الدّين ، لوضح التّلاقي والتمايز بين الصّورتين على نحو أدق .

أمّا أخوه البارون بلدوين (بغدوين الأول) فكان كُلّ شيء حوله يوحي بالوقار والرّزانة ، حَتّى إنه لم يكن يُرى بين الناس إلاّ والعباءةُ على كتفيه ، ولهذا إذا رأيته ظننته أسقفاً لا فارساً ، وكانت نقطة الضعف فيه ميلُه إلى النِّساء ولكنّه تجنبّ طول حياته سوء السُّمعة ، فلم يعرف أقرب الناس إليه شيئاً عن مغامراته ، وفي سبيل التفرّد بالسّيادة لم تكن تصّرفاته فَوْق الشبهات ، فبعد أن اطمأن إليه صاحب الرُّها وقاسمه الحكمَ في المدينة تخلّص منه بطريقة تُمثّل نُكرانَ الجميل (٢) .

وكان بلدوين معتّداً بشجاعته وجرأته ، ولكن كثيراً ما جَرّه ذلك إلى التهوّر وعدم تدبّر العواقب ، ففي سنة ٤٩٦ / ١١٠٢ واجه جيشاً عند الرملة كثيف العدد مؤلّفاً من العرب والسّودانيين آتياً من مصر ، فخاض ضِدّه معركة ليس فيها تكافؤ في العدد ، وقُتل أكثر أصحابه ، ولم يُنجه هو إلاّ سرعةُ حصانه العربيّ المسّمى بـ « الغزال » (٣) . كان يعتمد على المفاجأة وعلى البيات ، وبخاصّة إذا علم أنّ قافلة تجاريّة يمكن لضعف حاميتها أو عدم وجودها أن تقع في يديه غنيمة سائغة .

ولم يتعلم بلدوين كثيراً من عاقبة التهور الذي واجهه في سهل الرّملة بل إنّه حين زحف إليه جيش مُوَحّد من قوات الموصل وقوات دمشق سنة ٥٠٥ / ١١١٣ ارتكب خطأً مماثلاً ، فواجه جيشاً بقوات مملكة القدس وحدها ، وهي تتألف من سبعمائة فارس وأربعة آلاف من الرجالة ، وسارع للقائد الجيش الاسلامي عند الصّنبرة (٤) ، فاستطاعوا استدراجه فوقع في كمين مُعَدّ وحاول أن يستجمع جيشه ، ولكنه وجد نفسه في مضيق ، ومرّة أخرى كان لحصانه الفضلُ في نجاته (٥) .

---

(١) Grousset , Rene , The Epic of the Crusades , Newyork (1970) pp . 12 - 13 .

(٢) Op. Cit. pp. 38 - 40 .

(٣) Op.Cit. pp. 45 - 46 .

(٤) يحدد ياقوت الصّنبرة بأن بينها وبين طبرية ثلاثة أميال .

(٥) Grousset , p . 65 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد استطاع بلدوين الأول أن يحقق أشياء كثيرة اعتماداً على الناحية الحربيّة ، ولم يكن ذلك ناجماً عن براعة في التخطيط ، وإنّما هناك ظروف مختلفة ـ ليس من السّهل دراستها ـ منها : عدمُ قدرة الأمراء المسلمين على التّوحد ، وضعف الجيش المصري وغير ذلك ، وكلّها عوامل سهّلت اتساع المناطق التي يسيطر عليها الصليبيّون بالتّدريج .

وكان ممّا يشغل بال بلدوين بعد الاستيلاء على معظم مدن الساحل هو مَلءُ الفراغ الحادث في المدن بسبب استئصال العناصر العربيّة أو نفيها ، فاستدعى إلى فلسطين مسيحيّي البلاد الأصليين الذين كانوا يعيشون موزّعين في سوريا وعبر الأردن (١) ، وقد استطاعت هذه الاجراءات أن تقوّي اليد العاملة في المملكة اللاّتينيّة ، وأن تعيد شيئاً من النشاط الاقتصادي الذي عَطّلت الحربُ كثيراً من جوانبه .

لهذا يمكن أن يقال : إنّ بلدوين الأول كان ملائماً تماماً للظروف التّي وُجد فيها وإن التقت في شخصيّته ثنائياتٌ متضادّة مثل العنف والصّبر ، والتّهور والحذر ، والجريمة والفضيلة ، ولكن يظّل في نهاية المطاف هو المؤسّس الحقيقي للمملكة اللاّتينيّة ، وهي مملكة لم تحاول أن تبني وجودها على أُسس المدينة الفاضلَة ولا تدّعي ذلك ، وقد عاش بلدوين في فترة نمّو المملكة الصليبيّة لا في فترة انحدارها ، ولذلك توازى صعودُ نجمه ونجمها معاً ، واستمدّ واحدُهما مادّة النمّو من الآخر .

وهذه الحقيقة الأخيرة تضع الفرق الكبير بينه وبين قلب الأسد ، فهذا الثاني أكثر شجاعة من بلدوين ، وأحكم خططاً ، وأقلّ تهوّراً ، ومع ذلك فإن مجيئه إلى المشرق ، والمملكةُ اللاّتينيّة تنهار جعله يبدو وكأنّه لم يفعل شيئاً في سبيل انقاذها . أضف إلى ذلك أنّ بلدوين كان يقاوم أعداءه من داخل مملكة ذات مواردَ متنوّعة ، وجيش قد تعّود على ما يميز الأرض من خصائص ، ولم يكن قلب الأسد كذلك . وكان قلب الأسد يتعاون مع فيليب أغسطس ملك فرنسا في محاولة الاستيلاء على عَكّا ، وهي المحاولة التي جَرّت إلى استرداد معظمَ الساحل ، وكان الثاني يتمتّع بما يمكن أن يُسمى " الذكاء البارد " وكان لرأيه وزنُه أمام حماسة قلب الأسد وحرارة رأسه ، وكان فيليب يستطيع أن يُعَدِّل كثيراً من أخطاء زميله ، وأن يفيده كثيراً من النّاحية السياسية . وليس من المغالاة كثيراً أن يقال : إن الانكتار كان أكمَلَ « جنديّ » في عصره (٢) ، ولكن ليس في هذا المجال يقوم الفرق بينه وبين صلاح الدّين ، فقد كان بين الرجلين تقاربٌ في عّدة مجالات وبخاصّة في إتقان الخطط « التكتيكية » وكان كلاهما معجَباً بالآخر ، مقدّراً لمجالات تفوقه ، وإذا لم يكن صلاح الدّين جندياً من طراز الانكتار ، فإنّ صموده الشخصي ، واقترابَه من صفوف الأعداء ، وظهوره المستمّر لهم ، يعوّض كثيراً عن منظر البراعة في القتال .

---

(١) Grousset, p. 69 .

(٢) Op. cit. p. 186 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فإذا لم يكن الفرق بين شخصيتي الرّجلين بعيداً ، فإن الفرق بين وضعي جيشيهما كان يمثّل تفاوتاً واضحاً . كان جيش صلاح الدّين قد أصبح مرهقاً يميل إلى البحث عن منفذ للراحة ، وكانت قوّة الأسطول الصليبي بالمقارنة مع الأسطول الإسلامي تصنع فرقاً آخر كبيراً بين الحالتين .

وهنا يجيء دور القائدين : كان الانكتار المحارب يدرك ما يتطلبّه جيشه بحكم القرب النفسي بين القائد والجيش ، وكانت تصورات صلاح الدّين التي لا تستطيع الانفصال عن سموّ غايته تجعله ينسى (أو يتناسى) مواطن الضّعف في الطبيعة الانسانية ، وألقى هذا الوضع ظلّه على مجلس الشورى عند الرجلين ، كما سيتّضح من بعد ، والعوامل التي ترسم الفروق بين القوتين كثيرة ، وقد أجمل رؤيتها ابن شدّاد من إحدى زواياها بقوله (١) : « ولكنهم كانوا يتوقّعون النّجدة ونحن لا نتوقعها » .

وفي حياة قلب الأسد في الحرب الصليبيّة نقطة سوداء ، أشرت إليها في أول هذه الفقرة ، هي غدرُه بالأسرى وذبحهم لأنّ صلاح الدّين تلكأ في دفع الفداء عنهم ، وهذا العمل لا يكسب فاعله كثيراً من الناحية الحربيّة ، كما أنّه يُشير إلى إخفاقٍ من الناحية السيّاسيّة ، وقد قصد منه قلب الأسد أن يزيد صلاح الدّين حرجاً في الموقف الصعب ، ويضخّم احساسه بانتكاس خُططه ، ويثيرَ نقمة الجند على قائدهم ، وقد لجأ قلب الأسد كثيراً إلى هذا النوع من التفكير السياسي ، فقد كان يصرّح كثيراً بفوائد السّلم ، وأنّ الحرب قد أكلت من الفريقين ، وفي رسالة شفويّة من قلب الأسد إلى صلاح الدّين (٢) : «إنك تسلّم عليه وتقول له : إنّ المسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخَربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكُليّة ، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين . . .» وقوله (٣) : «ولا يحقّ لك أن تُهلك المسلمين كلّهم ، ولا يجوز لي أن أهلك الفرنج كلّهم» وهذا الحديث على ظاهره يحمل معنى الاشفاق على الدّماء والأرواح ، ولكن حين يُوجّه إلى جيش قد بلغ منه الارهاق مبلغاً ، وهو يطالب بالتّسريح في كُلّ يوم ، فإنّه في الحقيقة يحمل معنى التّحريض ، وقد حاول قلبُ الأسد أن (يلعب) لُعبته السياسيّة إلى النهاية ، وبخاصّة حين باعد في الموقف بين صلاح الدّين وأخيه العادل ، فقد كانت شروط الصلح المعروضة كلّها تعني استمالة العادل إلى صف يبعده عن الغايه التي سعى إليها أخوه طوال حياته ، وهي اعطاؤه نصيباً كبيراً في الحكم ، وتزويجه من أخت رتشارد أو بنت أخته .

وهنا لا بُدّ من وقفة لتقييم سياسة الأرض المحروقة التي اتّبعها صلاح الدّين حين خَرّب عسقلان وغيرها من المدن، إذ يبدوفي واقع الأمر أن صلاح الدّين بهذا العمل كان يركبُ خطّة اليائس الذي فقد قدرته على التفكير الهادىء، وأخذ يعالج الأمور بعصبيّة غير مأمونة النتائج، ولقد قال صلاح الدّين ذات

(١) النوادر السلطانيّة : ٢٠ .
(٢) المصدر السّابق : ١٩٤ .
(٣) المصدر نفسه : ٢١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يوم حين أزمع على تخريب عسقلان (٥٨٧/ ١١٩٢) (١) : «والله لأن أفقدَ أولادي كلَّهم أحبُّ إليّ من أن اهدم منها حجراً واحداً ، ولكن إذا قضى الله بذلك وعَيّنه لحفظ مصلحة المسلمين طريقاً فكيف أصنع؟» ومعنى هذا الكلام ـ وهو كلام نُصّدقه دون تردّد ـ أنّ التخريب هو الحلّ الوحيد المتبقي، وليس هو يأساً وليس جزعاً، والإنسان ـ في الحرب وعير الحرب ـ يركب الصّعب مضطّراً لفُقدان السّهل جُملة.

كذلك يقوم الفرق بين صلاح الدّين ورتشارد قلب الأسد في طبيعة المجلس الاستشاري لكلٍّ منهما ، وفي الحالات العاديّة يتساوى المجلسان ، وكلاهما مجلس حربيّ ، يُمثّل في الغالب مجموعة أمراء الجيش عند المسلمين ومجموعةً مختارة من الفرسان عند الصليبيين ، ولدى كُلٍّ من الفريقين في هذه الفترة بالذات تقديرٌ كبير لدور الشورى، ويشترك في هذا التقدير كُلٌّ من المستشير والمستشار، والتشاورُ ليس أمراً شكلياً يأخذُ به المستشير أو لا يأخذ، وإنما الرأي فيه ملزم، لا يجوز الخروج عنه أو استبدادُ المستشير برأيه.

وقد تحدّثنا من قبل حديثاً موجزاً عن الشورى عند صلاح الدّين . فأما الفرنجة فكان للشورى عندهم أهميّة كبيرة ، تقوم عليها الحياة الحربيّة وغير الحربيّة ، ويُفهم من كلام ابن مَنكلي أنّ مجلس الشورى يستوي فيه السّادة والعبيد (٢) ، بينما يرى أسامة بن منقذ أنّ مردّهم في الشورى إلى الفرسان فقط (٣) ، وإذا صَحّ كلام ابن منكلي فمعنى ذلك أنّ تطوراً حدث في طبيعة الشورى لديهم ، وأنّ شيئاً ممّا يمكن أن يسمّى « الروح الديمقراطيّة » قد سيطر على تصرُّفاتهم وغيّرَ طبيعة مجلس الشّورى .

ومن طريف ما يذكر ابن شدّاد أنّ التشاور بينهم للحرب كان يتّم وهم على ظهور الخيل ، وهم يعمدون إلى عدد من الناس يحكّمونهم في قضيّة من القضايا ، وهذا العدد قد يكون عشرة وقد يكون ثلاثمائة (٤) . ولا مخالفة لما يصدره المحكّمون من قرارات ، ولما كان عدد الثلاثمائة كبيراً يعيق الخروج بنتائج، فإن الثلاثمائة اختاروا من بينهم اثني عشر مستشاراً، ثم رضي الاثنا عشر بحكم ثلاثة منهم، وأصبح رأي الثلاثة ملزماً للجميع (٥) .

وعمل الحكم هو الطريقة عندهم لحلّ الخلافات ، يقول أسامة في قضيّة خلاف (٦) : فقال الملك لِستّة سبعة من الفرسان « قوموا اعملوا له حكماً » فحكموا لصاحب الحق بغرامة ، ويعلّق أسامة على ذلك بقوله: « وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا أحدٌ من مقدّمي الافرنج يُغيّره ولا ينقضه، فالفارس أمرٌ عظيمٌ عندهم » .

---

(١) النوادر السلطانيّة : ١٨٦ .
(٢) الأدلة الرسمية : ١٨٩ .
(٣) الاعتبار : ٦٥ .
(٤) النوادر السلطانيّة : ١٢ ، ٢١٨ .
(٥) المصدر السّابق : ٢١٨ .
(٦) الاعتبار : ٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويحقّ لنا هنا أن نسأل : لماذا تباعد حال المجلسين عند كل من المسلمين والصليبيين ؟ أصاب التغيير أولاً مجلس المسلمين، إذ لمّا كان مؤلّفاً من أمراء الحرب كانوا هم وسائر الجند سواءً في تحيّف الحرب لقدرتهم على التحمّل، وفي شعورهم بالارهاق، وفي شوقهم للعودة إلى أهاليهم، ولمّا كان مستشارو المجلس الصليبي من الفرسان الذين لم يَطل عليهم الأمدُ في الخدمة العسكريّة، فلم يصبهم ارهاقٌ أو ملل، بل كانت الحرب عاملاً لإثارة رغبتهم في احتياز اشياءَ حَصل على مثلها الأفواجُ التي جاءت قبلَها ، لهذا فإنّ الإشارة باستمرار الحرب تعني تجاوباً طبيعياً مع الغايات التي خرجوا من أجلها . وانعكس موقفا المجلسين على القائدين ، فبينما يظهر ريتشارد أنّه لا يحب اهلاكَ الجند من الفريقين ، نجدُ صلاح الدين حزيناً لذلك الانفصام الذي اتّسعت مسافته بين القائد وجنده ، والقائد وأمراء جيشه .

❊ ❊ ❊

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

الأسلحة والأدوات الحربية عند المسلمين والصليبيين

١ ـ أسلحة القتال الميداني :

ستختلف طريقة العرض في هذا الفصل عمّا كانت عليه في الفصلين السّابقين ، وذلك لأنّ الأسلحة المألوفة من سيف ورمح وقوس . . . الخ . تنتمي إلى قرون طويلة سبقت العصر الزنكي ـ الأيوبي ، ولا يدّعي الدّارس أنّه يستطيع رصد تاريخ كُلّ منها ، وما أصابه من تطور على مرّ الزمن ، بل لو عرف ذلك لاستعفى من إيراده لأنّه خروج كبير على سياق بحث موصول بزمن محدّد ، فذكر هذه الأسلحة في الشعر والنثر في العصر المذكور محضَ ذِكر لا يُضيف كثيراً إلى المعرفة ، ولهذا فإنّ هذا الفصل سيركز على الأمور الآتية (دون فصل كبير بين الأسلحة في المشرق والأسلحة في المغرب) :

١ ـ طريقةِ الشعراء وكتّاب النثر الفّني في تصويرهم لهذه الأسلحة .

٢ ـ ما جَدّ من ألفاظ (اصطلاحية) تتعلّق ببعض أنواع السلاح .

٣ ـ ما جَدّ من أسلحة لدى القبائل المحاربة في المشرق (كالترك والكرد والتركمان) وما حمله الصليبيون معهم من أسلحة .

وقبل المضيّ في الدراسة ينبغي التنبيه على أمرين : أولهُما أنّه لا بدَّ من اهمال الألفاظ التي تُعَدّ صفاتٍ للأسلحة ، ثُمّ أصبحت لكثرة الاستعمال تحلّ محل الأسماء مثل الأسمر و الذابل والأسلّة للرّمح ؛ والصّمصام والمهنّد و الأبيض للسيف ، فهي ليست مما يتطلبّه هذا الفصل ؛ والثاني أنّ فنون الحصار هي التي استغرقت أكثر الجهد في الصّراع الحربّي بين المسلمين والصليبيين ، ولذلك فهي أكثر تكراراً في مصادر ذلك العصر من اسلحة القتال الميداني ، لكنّ الحديث عن اسلحة الحصار سيأتي في فقرة مستقلة من هذا الفصل نفسه .

وقد كانت الدّولة في العصرين الزنكي والأيوبي توّزع الأسلحة على المحاربين والمدن الصّامدة في وجه العدوان الصّليبي ، ولذلك فمن المتوقّع أن تكون لديها خزائنُ سلاح متعدِّدة، تُعرف كل واحدة منها باسم « زَرَدْخاناه » (١) وتحتوي على السيوف والرماح والقسيّ وسائر أنواع السلاح المشابه ، وعلى الزَّرديات نفسِها ، وصانعُها في هذا العصر يُسمى « الزّرْدَكاش » .

(١) النوادر السلطانيّة : ١٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلّ الزرديات (١) من أبرز الأسلحة الوقائية التي كثر استعمالها في ذلك العصر ، إذ كان يستعملها المحاربون الفرنجيّون والمشارقة على السواء . والأسلحة الوقائية ثلاثة أنواع رئيسية : الزرديّة من صنع أوروبي ، وتتكون من آلاف الحلق المتداخل في صفوف ، وما أن جاء عصر الحروب الصليبية حَتّى كان صُناع الزَرْديات قادرين على صنع نماذج جيّدةٍ منها بزيادة عدد الحلق والصفوف أو انقاصها ، ولهذا النوع من الزرديات سيئاته الكثيرة ، إذ تنكسر الحلق وتدخل أطرافها في الجرح ، وهي مزعجة في الجوّ الحارّ ، وثقيلة حَتّى ليمكن أن تجعل امتطاء الفرس أمراً صعباً ، والنوع الثاني من الأسلحة الوقائية : وقايات قماشيّة ، أكثر من يلبسها الرّجالة ، أمّا النوع الثالث : فهو صفائح معدنية أو جلديّة أو قرنية (٢) .

وفي العالم الاسلامي كان هناك نوعان من السّلاح الوقائي أولهما : الزرديات السابغة المحكمة (٣) ، وتصل إلى الرّكبة ، ولها أكمام حتّى الرسغ ، والزرديّة القصيرة ، وهي ذات أكمام قصيرة . وفي القرن الثاني عشر الميلادي وبتأثير من الأتراك انتشر في الشام وبخاصّة بين الأمراء ثم بين الارستقراطية العسكرية ما يُسمّى « الجوَشَن » وهو مؤلف من صفائح حديديّة أو جلديّة مستطيلة الشكل ، تُرَتَّب في صفوف أفقية . وهناك شكل آخر من هذه الزّرديّة يُسمّى « كازغند » وهي زرديات مغطّاة بجلد رقيق (٤) ، ذكرها أسامة بن منقذ فقال (٥) : « إن كزاغنده يتكوّن من زَرديتين مُطَبَّقَتين ، على كُلّ زرديّةٍ البطائنُ واللّبد والسلاسين وَوبرُ الأرنب » .

وللرّأس مِغفر الزّرد أو ما يُسمّى أحياناً الخوذة أو البيضة (٦) .

ومن الأسلحة الوقائية التّرَاسُ ، وأشيع أنواع التراس الكبيرُ المستدير ، وأكثرُ مَن يحمله المشاةُ في الجيش الاسلامي ، وأصغَر من ذلك تُرس يُسمّى « الدّرقة » ويتداولها المشاة والخيالة على السّواء (٧) ، وهناك أنواع من التراس بشكل طائرة الورق ويُسمّى « الطّارقة » (٨) وسأورد عنه مزيد شرح عند الحديث عن أسلحة الحصار .

وإذا كان الحصان الفرنجي يُغَطّى بالزّرد حتّى حوافره ، فإنّ الجواد لدى الفارس المسلم يظلّ في

---

(١) النوادر السلطانيّة : ١٧٩ والفيح القُسيّ : ٢٢٤ .

(٢) Wise . T . pp 114 - 128 .

(٣) النوادر السلطانيّة : ١٧٩ .

(٤) Wise . T . pp 114 - 128 وانظر النوادر السلطانيّة : ٢٢٥ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، وهو يذكر أنه رأى صلاح الدين وليس عليه كزاغنده . وما كان له عادة يركب بدونه .

(٥) الاعتبار : ١٢٩ .

(٦) Wise . T . p . 130 .

(٧) Op . cit . pp . 135 - 136 .

(٨) الفيحُ القُسّي : ٦٥ «الطارقيّات» و ١٤٤ «الطوارق» ، وفي الرّوضتين ١ : ١٠٧ «الطّوارق والقنطاريّات» .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الغالب مكشوف الجسم لاغطاء عليه (١) .

وفي عصر الحروب الصليبيّة وُجد نوعان من السيوف الطويلة التّي تصلح للفرسان ، أما الرّجّالة فكان السيف الذي تستعمله قصيراً . ولم يمض وقت طويل حتّى صُنع السيف الاسلاميُّ على مثال السيف الصّليبي ، فوُجد السيف المستقيم ذو الحدّين العريض المُسطّحُ الشّفرة ، وسيفٌ ثانٍ أطول منه وأقلّ عرضاً وذو حَدّ واحدٍ في أكثر الحالات (٢) .

وفي حال الرّمح لا بُدّ من أن نميّز بين شيئين : بين الرمح نفسه الذي قد يستعمل مزراقاً ، وقد يكون للطّعن، وبين القنطاريّة التّي استعملت في الحروب الصليبيّة، ولعلّ الثاني يقابل ما يُسمّى (Lance) عند الصليبين، وكان الأتراك يستعملون مزراقاً قصيراً، ويكون استعماله قبل الحملة الرئيسية، وكان كثير من فرق المشاة تحمل «مطرداً» وله شفرة بشكل ورقة الشجر، ويستعمل في الحملة على الخيّالة (٣) .

وتقترن المصادر بين الدّبابيس واللُّتوت (٤) ، أما الدبّوس فهو عمود من معدن كُلّه ، وله رأس في الغالب مُدَوّر ، وأمّا اللّت فيشبه أن يكون نوعاً من الفؤوس .

والقوس أنواع منها القوس العربيّة ، وهي أيضاً أنواع بينها فروق بسيطة ، والقوس المصنوعة ، وطول التي يستعملها الأتراك منها ثلاث أقدام ، والتي يستعملها العرب حوالي أربع أقدام .

وقد شهرت دمشق بأقواسها ، وأحسُنها ما صُنع من خشب الشّوحط أو النّبع (٥) .

ومن أنواع السّهام يتردد ذكر نوعين معاً هما الزنبوركات والنّاوكات ، أما الأول فهو سَهْم في سمك الإبهام وطول الذراع ذو أوجه أربعة وطَرَفٍ حديديّ، وهو سهمٌ مُرَيَّش، وأما الثاني فهو سَهم صغير (٦) ، ويبدو أنهما يُستعملان في حصار الأبراج والقلاع ، وليسا من أسلحة القتال الميدانيّة .

بعيداً عن تنوّع السّلاح يتّخذ الشعر منه موقفاً خاصاً ، إذلا يهُمّه الفرق بين القنطارية والرمح مثلاً ، فكلاهما عنده رمح ، لأنه لا يتحدّث في حقيقة الحال عن قطعة من الحديد ، وإنما يتحدث عن البطل الذي يستعملها . وبخاصّة حين يَستعملها لغاية سامية ، وحتّى حين «يتشخّص» السيفُ مثلا في التصوير الشعري ، فإنه يظلّ يرمز إلى معنى البطولة ، ففي قول ابن منير في السيف (٧) :

---

(١) Wise . T . p . 137 .

(٢) Op . cit . p . 151 .

(٣) Op . cit . p . p 154 . 155 .

(٤) النبح النّسّي : ٤١٠ .

(٥) Wise . T . p . 157 .

(٦) النبح النّسّي : ١٦٣ .

(٧) ديوان ابن مُنير الطرابلسي ، جمعه : د . عمر عبد السلام تدمري ، دار الجيل – بيروت (١٩٨٦) ص : ٢٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هَتَكْتَ حجابَه والشمسُ وَسْنى ... بشمسٍ لا تُوارى بالحجاب
بأبيضَ من حَبيك الهند صافٍ ... مصونِ المَتن مبتذلِ الذباب
له سمةُ الشيوخ صفاءَ شيب ... وفي خَطَراتِه نَزَقُ الشباب

«متقابلاتٌ» وفي هذه «المتقابلات» يرتفع جمال التصوير كثيراً ، لأن الإلحاح على التّقابل ليس طبقة واحدة بل عدّةُ طبقات : فهناك ربط وثيق بين سطوع الشمس وصفاء الصّيف وصيانة المتن، وصفاء الشيب من جهة ، وبين هَتْك الحجاب ، وابتذال الذباب ، ونَزَق الشّباب من جهة أخرى ، وهذا أعلى مستوى من التقابل البسيط : مصون / مبتذل ، شيوخ / شباب ، وهكذا .

ويقول ابن سناء الملك (١) :

ظُباه كمثل البَقل لوناً وإنها ... لترَعى العدا رَعْيَ الظُبا ورَقَ البَقْل
حِدادٌ عِداةٌ للحديد تقدُّه ... من البعد حَتّى كلُّ غمدٍ بلا نَعل
تكاد تَتقدّ الهام من قبل طَبعها ... وتخرج من سجن الغُمود بلا سَلّ

وإذا كانت هذه الأبيات ليست بمستوى أبيات ابن مُنير ، فإنها تحاول أن تستخرج معنىً جديداً من المقابلة بين الظُّبا والظُّبا وهي تشترك مع الأبيات السّابقة في أنها صورة أخرى لرعونة السّيف وتمرّده .

ويقول الشاغوري (٢) :

وقد نطقَت بالنّصر بيضُ سيوفه ... كما أخرسَتْ رَنّاتُهُنّ النّواقيسا

ففي اقتران الخرس بالنواقيس إيحاءٌ جميل ، ولكن التّقابُلَ بين الشطرين ضعيف ، وأكثر منه قدرة على الإيحاء قول العماد الأصفهاني (٣) :

شكا يَبَساً رأسُ البرنس الّذي به ... تَندّى حُسامٌ حاسمٌ ذلك اليُبسا
تَبَوّغَ في أوداجه دَمُ بُغيه ... فصالَ عليه السيفُ يلحَسُه لحسا

فعلى الرغم من الصّنعة المركّبة تجد اليُبسَ المقابل للتندي يُثير حِسّاً بالسخرية من البرنس ومن رأسه ، فلمّا ختم البيتين بقوله : «يلحسه لحسا» خرج من البسمة السّاخرة إلى القهقهة العابثة .

---

(١) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ٢٢٣ .
(٢) ديوان فتيان الشاغوري : ٢٢٥ .
(٣) ديوان العماد الأصفهاني : ٢٣٠ وما بعدها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد جمعتُ عدّة نماذج في وصف الرّمح من شعر فتيان (١) وسعادة الأعمى (٢) وابن عُنين (٣) وابن دُنينير ★ (٤) وغيرهم ، فلم أجد في النماذج التي اطّلعت عليها ما يُشجّع على اقتباسها ، ولستُ أرى أنّ كل ما نُظم يَستحقّ أن يُستشهَد به إلاّ إذا توافرت فيه بعض شروط الشّعر ؛ والرّمح سلاح مهمّ ، وهو سلاح لا غنى عنه للفرسان والرَّجّالة على السواء ، وإذا كان الشعر الذي يصفه أو يتغنّى بدوره في اقرار الحقّ هابطاً ، فليس هذا ممّا يَعيب الرُّمحَ نفسَه . كذلك فقد أدركت في أثناء تلمُّسي للشواهد أنّ ذكر الرُّمح أو السيف أو القوس عَرَضاً في بيت أو بيتين من قصيدة يعني ذكراً هامشياً لا قيمة له إلاّ ما ندر ، ولا بُدّ للشاعر من أن « يخلق » جواً في قصيدته يحتلّ فيه الرُّمح مثلا مكانةً مركزيّة حَتّى يصحّ أن يقال: إن وقفة الشاعر عنده تستحقّ الاهتمام . ومما يوضحّ ما أعنيه أني قرأت قصيدة لابن السّاعاتي في مدح الأفضل ابن صلاح الدين يفتتحها بذكر الرمح والسّيف فيقول (٥) :

لَيسَت قُدوداً ولكن هذه أَسَلُ ... وتلك بيضٌ ومن أسمائها المُقَلُ

فأوحى لي البيت أنّ الشاعر يُريد أن يكوّن من الصّور جَوّاً حربياً مناسباً لطبيعة الممدوح . ثُمّ مضيت فيها ووقفت عند أبيات يقول فيها :

رميتَهم عن قِسيِّ العَزم مشتَمِلاً ... وقد أَصَبتَ بِسهمَيه فلا شَلَلُ
فَتحٌ وما أوجهُ الأسوارِ عابَسةٌ ... وللمجانيق فيها أعيُنٌ نُجُلُ
والزُّغفُ غُدرانُ ماءٍ في قَرارَتِها ... وبيضُ جيشك في أغمادها شُعَلُ
وزرتَ مصرَ بغابٍ من قَناً وظُبىً ... قَلّت له شامخاتُ المُدْن والسُفُلُ
حيثُ البنودُ سَحابٌ والقِسيُّ لها ... رَعْدٌ ، وللنّبل فيها عارضٌ هَطِلُ
فقلتُ ما سَرَحتى لامثالَ له ... وقلتُ ما سار حتّى إنّهُ مَثَلُ

وحين تأملت الأبيات ، وجدت الشاعر قد أدار معظم أبياته حَقاً على « جَوّ حربي » فليس تعلُّقُه في هذا الجو محضَ ذكر عابر ، وهَبْ أنّ الأبيات لم ترتفع كثيراً في النّسَق الشعري ، فإنها صالحةٌ لأن تكون نموذجاً لصورة حربيّة في شعر العصر الزنكي ـ الأيوبي .

---

(١) ديوان فتيان الشاغوري : ٢٢٦ .
(٢) الخريدة (قسم الشام) ١ : ٤١٦ وما بعدها .
(٣) ديوان ابن عُنين ، تحقيق خليل مردم ، مطبعة دمشق (١٩٤٦) : ٢٩ .
(٤) ديوان ابن دُنينر (رسالة جامعيّة) تحقيق ودراسة محمود شاكر سعيد قسم ٢ ص : ٩٦ .
(٥) ديوان ابن الساعاتي ٢ : ٣٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي كثير من النماذج النثرية يبدو النثرُ أرحبَ صدراً في الحديث عن الجوّ الحربيّ ، لأنه يستطيع أن يمنح مختلف الأسلحة الدّور الملائم لكلّ واحد منها ، كقول ابن الأثير (١) في حصن بارين (٥٣٤ هـ / ١١٤٠ م) :

« وناوشهم القتال ، وأعملوا الرّماح والنِّبال ، ولم يزل هذا دأبَهم حَتّى حميَ الوطيس ، فحينئذ حملت الفرنجة حملةَ اختلطَ فيها المرؤوسُ والرّئيس ، وارتفع القَتام واشتدّ الكرام ، وعظم الزحام ، وأديرت مُترعةُ كؤوس الحِمام ، وبطَلَ العاملُ وعَمِلَ الحُسام ، فمن ضَربة تَقُطّ ، وأخرى تَقُدّ ، . . . وانجلت المعركة عن هزيمة الفرنج ، وأخذتهم سيوفُ المسلمين من كلّ ناحية » .

إنّ مهارة الكاتب هنا تتبيّنُ في شيئين غير منفصلين ، أوّلهما أنّه تعمّد أنْ يُصور جَوّ معركة ، والثاني أنّه جعل للسَّيف دورَ الحَتام في هذه المعركة كما هو دورُه في الواقع .

والأمثلة على وصف السَّيف في نثر ذلك العصر أكثرُ من أن يحيطَ بها استقصاء ، وتفنّن الكُتّابُ في استعمال الصِّفات المختلفة التي أصبحت أسماءً أو شبه أسماء للسيف ، مثل : الصَّقيل والمخذَم والعَضب . . . الخ لا يأتي عليها حَصر ، كما أنّ الوقوف عندها ليس من مهمّة هذه الدّراسة الخاصّة بفنّ الحبوب . وكذلك قُلْ في أسماء (أو صفات) الرُّمح ، فإنها ليست خاصّة بعصر بني زنكي وبني أيوب . وقد أوردت مثلا لدور القِسّي في أبيات لابن السّاعاتي ، أرى التمثيلَ بها كافياً ، فأمّا حين تصبحُ القوس إحدى قذائف الحصار فسوف تُدرَس في الفقرة الخاصّة بتلك الأسلحة .

٢ ـ الخيل في الحرب الميدانيّة :

لا غرابة في أن تُعَدّ الخيلُ من أهمّ الاسلحة الميدانيّة ، فدورُها في المعارك هو الدَّورُ الرئيسي ، ولا مُغالاة في أن يُقال : إنّ نظام الحرب ـ في الفترة موضع الدراسة ـ يجعلُ فريقَ الفرسان أو الخيّالة هم عصبَ المعركة ، لا بسبب بُطولتهم وحدَها ، بل بسبب استعداد خيلهم وكرَم نِجارها ، وليس هذا انتقاصاً من أدوار الآخرين ، إذ النصرُ في أيّة معركة نتيجةُ تكامل الجهود والتنسيق بينها ، وتوجيهها نحو غايتها . وقد كان لرشاقة الخيل العربيّة وخِفّة حركتها أكبرُ الأثر في إحراج العدوّ المحارب ، ولكن لابُدّ من أن نُقِرّ أنّ الحروب الصليبية وضعت في المواجهة نوعين متفاوتين من الفرسان ، ونوعين متفاوتين من الخيل ، وكان لهذا التفاوت أثره في جعل أدوار الحرب سجالاً .

غير أنّه لابُدّ من أن نتذكّر أنّ الخيول التي كانت لدى العساكر الإسلاميّة لم تكن كلُّها كريمةَ العِتق ،

---

(١) التاريخ الباهر : ٥٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد كان فيها العتاقُ وغيرُ العتاق (١) ، كما أنّ الاكديش (٢) كان كثير الاستعمال في هذه الفترة .

وقد تتبّعتُ كثيراً من النماذج الشعرية التي ذُكرت فيها الخيل ، فوجدتُ فيها روحاً شعرية جميلة ، من ذلك قولُ الشاغوري في خيل صلاح الدين وكيف اعتادت النصر ، وألفت ساحة الحرب ، فأصبحت ساحةُ الحرب عندها لا تختلف عن الرّوض (٣) :

فخيلُك تَغشى الروعَ شُعثاً ضوامراً ... شَوازبَ قد عوّدتَها الفتحَ والنَّصرا (٤)
ترى الحربَ روضاً والدروعَ بها أَضاً ... وسُمرَ القَنا دَوحاً وخُرصانهَا زُهرا (٥)
سنابكُها عزّت بإذلالك العدا ... فداست خدوداً كُنّ من عِزّها صُعرا

ولسعادة الأعمى أبياتٌ مُعجِبة في وصف حركة الخيل (٦) :

من كُلّ سَلهَبَةٍ ألحّ بها الطّوى ... حَتّى طواها الضمْرُ طَيّ عَنانها
جَرداءَ تطّرِحُ البُروق إذا دَنت ... وتَفوت ما قد فات من لمعانها
خَيلٌ هي العِقبانُ في طيرانها ... لا بَل هي السّيدانُ في عَسَلانها (٧)
متواثباتٌ للطّعان فلا كَبَت ... تلك العتاقُ الجُردُ يومَ طِعانها

وفي قصيدة اخرى يصف سعادة حصان صلاح الدّين بالسرّعة التي تفوق سرعة الريح في يوم عاصف ، فسرعته تحكي سرعة نجم هوى ، وسيطرته في ساح المعركة كسيطرة صقر في الفضاء (٨) :

وسابحٍ لو يُجاري الرّيحَ عاصفةً ... لقُيّدت خطواتُ الرّيحِ بالفشل
نجمٌ يمُرّ ببدرٍ في دجى قتم ... صقرٌ يكرّ بليثٍ في شَرى أَسَلِ

وقارن ابن سناء الملك بين خيل صلاح الدين وبين خيل الفرنجة ، فوصف خيل الفرنجة بأنها تجفل

---

(١) محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي (٦١٧ هـ) ، مضمار الحقائق وسّر الخلائق ، تحقيق : د. حسن حبشي ، عالم الكتب ، القاهرة (١٩٦٨) : ص ١٦ .
(٢) الفيح القُدّي : ٢٢٦
(٣) ديوان فتيان : ١٤٨ .
(٤) الشوازب : المضمرات .
(٥) الأضا : الغدران (والمفرد : أضاة) والخرص : سنان الرمح .
(٦) الخريدة (قسم الشام) ١ : ٤٢٠ .
(٧) السّيدان : جمع سيد وهو الذئب ، والعسلان : مشية الذئب المضطربة .
(٨) الخريدة (قسم الشام) ١ : ٤٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حين ترى رماحَ الفرنجة المكسَّرَة قد ملأت ساحةَ الوغى ، وتتراجع إلى الخلف خشية أن تغوص أقدامها في دَم أصحابها ، فيما يصف خيلَ صلاح الدين بالطّاعة التامّة ، فهي لا تخالف أمرَ القائد ، وتطاردُ عدوَّه غير عابئة بما يمكن أن يحول بينها وبينهم ، حتّى لو قُطعت قوائمُها ، فيقول في خيل الفرنجة (١) :

جيادُهم تخشى العثارَ من القَنا الـ ... قصيفِ ، وتخشى في الدِّماء من الوَحْل

ويقول في خيل صلاح الدين :

وما خَالَفَتْك الجردُ قطُّ وإنّها ... لَتَلْحَقُ مَن عادَيْته وهي في الشُّكْلِ
وأرجُلُها لو قُطِّعَت لَسَرَت بمَن ... عَلَيها لَهُم ، والصِّلُّ يَسعى بلا رِجل

ولخّص ابن منير في بيت واحد نظرة المسلمين إلى الخيل ، فقال (٢) :

هي الخيلُ خَيرُ عتاد الكريم ... يُحَضَّرُ للهَمِّ احضارَها

وما دامت هذه صفتَها ، فينبغي أن تكرم وأن تهيأ لها فُرص للرّاحة ، فيقول ابن منير (٣) :

أرِحْها فهيَ أزلامُ المعالي ... لَهُنَّ إلى الوغى توقُ المَغالي

كما عُني الكُتّاب كذلك بالتحدث عن الخيل في المعركة ، فوصفوها بأكمل الصفات كي تتناسب مع الدّور العظيم الذي كانت تؤدّيه الخيل في ساحة الوغى ، ومن ذلك ما قاله العماد في معرض حديثه عن فتح نصيبين (٥٧٨ / ١١٨٢) (٤) : « . . . والصّواهلُ الصّوافنُ للإلجام والاسراج ، والضوامرُ الضّوامن للاقدام في الهياج ، والمذاكي الجياد ، والصّلادمُ الصّلاد ، وجَرادُ الجُرد المرسَلة على منابت الهام . . . والمقرَّناتُ المقروناتُ ، والمسَرجاتُ والسُّرَيجيّات . . . وجنادلُ الحوافر ، ورياح السّوابق النُّكب (٥) ، وبحارُ السّوابح القُبّ (٦) » .

---

(١) ديوان ابن سناء الملك ١ : ٢٢١ .
(٢) ديوان ابن منير : ٢٢٦ وكتاب الرّوضتين ١ : ٧٦ .
(٣) ديوان ابن منير : ٢٢٠ وكتاب الرّوضتين ١ : ٦٩ .
(٤) البرق الشامي ٥ : ٣٢ .
(٥) التي لَثَمَت مناسمها الحجارة لكثرة طرادها في الميدان .
(٦) القُبّ (مفردها الأقَبّ) : الضامرة البطن .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣ ـ أسلحة الحصار :

أ ـ القوس والنبال :

تتخذ القوس العربية بحَني طرفي عود النّبع بقوّة ، ثم يُشَدُّ فيهما وَتَرٌ من الجلد أو العصب الذي يكون في عنق البعير (١) . أمّا النّبل أو السّهم أو النُشّاب، وهي أسماء ثلاثة لمسمّى واحد، فهو عبارة عن عود رفيع يتّخذ كذلك من شجر خاصّ (٢) ، تلائم أعواده الصفاتِ التي ينبغي أن يكون عليها السّهم، ويأتي في طليعتها المتانةُ والمرونة . وتُعَدّ القوس سلاحَ الرّماية عن بعد ، ولذا فإنها تصلح في الميدان كما تصلح في الحصار، وهي أوّل ما يُستخدم في المعركة، ويستخدمها الفرسان والرَّجّالة على حَدٍّ سواء، ويؤدّي النابلون دوراً مهمّاً في المعارك التّي تجري على أبواب المدن المحصّنة ، فكانت النبّال تهيّء التغطية المناسبة للمحاصِرين ، بالإضافة إلى أنها كانت نتيجةً لتواصُل الرماية تجُبر المقاتلين من داخل الأسوار على الابتعاد عنها ممّا يُيسّر فرصة للنقّابين والحفّارين لمواصلة عملهم في نقب الأسوار ونقض حجارتها . فالرّميُ عن القوس وقذفُ الحجارة بالمنجنيق يكمل أحدهما دور الآخر في حال الحصار ،وقد صوّر القاضي الفاضل هذا التكامل في معرض وصفه لحصار صلاح الدين لأسوار القدس (٥٨٣ / ١١٨٧) فقال (٣) :

« . . فقدّم المنجنيقات التي تتولى عقوباتِ الحصون عِصيُّها وحِبالها، وأوترَهم قِسيُّها التي تضرب فلا تُفارقها سهامُها ، ولا يفارق سهامَها نصالُها ،فصافحت السّور بأكنافه، فإذا سهمُها في ثنايا شرُفاتها سِواك، وقدّم النّصْرُ نَسْراً من المنجنيق يخُلد اخلاده إلى الأرض ويعلو علوّه إلى السّماك . . . » .

أمّا المحاصَرون ، فقد كانت النّبالُ هي السّلاحَ الرئيسّي لديهم الذي يُستخدَم في المقاومة ، فقد كان المقاتلة من فوق الأسوار يختبئون وراء ستائر يُعدّونها لوقاية أنفسهم من النبّال المسدّدة إليهم، ويتولّونَ هم الرّمي عن قِسيّهم تجاه المحاصرين، وقد وصَف العمادُ مقاومةَ الفرنجة المحاصَرين في حصن بيت الأحزان (٥٧٢ / ١١٧٦) فقال (٤) : « والفرنجُ من فَوقهم على السّور ووراء السّتائر يرمون بالفواقر ، ويُصَوّبون الجروخ ، ويرومون لعُقود الخطوب الفسوخ » .

ولم يتوقف استخدام المسلمين للقوس في القتال عند القوس العربيَّة ، وإنما تعدّوها إلى أنواع مُطَوّرة تُعطي نتائج أفضل ، فقد استخدموا الجروخ ، وهي نوع من القسيّ الفارسية يُرمى عنها النّفط إلى جانب النُشّاب (٥) . كما استخدموا الزّنبورك ـ وقد مرّ وصفه ـ وتأثيره فَعّال فهو يخرق ما يقع عليه ، وغالباً ما

---

(١) محمود شيت خَطّاب ، العسكرية العربية الاسلامية ، سلسلة كتاب الأمّة الدّوحة (١٤٠٣ هـ) : ١٥٠ .

(٢) المرجع السابق : ١٥٣ .

(٣) محيي الدين بن عبدالظاهر، الدرّ النظيم من ترسّل عبدالرحيم، تحقيق احمد احمد بدوي، مكتبة نهضة مصر (د.ت): ٢١

(٤) البرق الشّامي ٣ : ١٧٧ .

(٥) رينهارت دوزي ، تكملة المعاجم العربية ، ترجمة د. محمد سليم النُعيمي ، دار الرشيد بغداد (١٩٨٢) ٢ : ١٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يخترق رجلين أحدُهما وراء الآخر ، كما يخترق درعَ الجنديّ وملابسه ، ثم ينشب بعد ذلك في الارض ويخترق حجارة الأسوار (١) .

ومن الأسماء الأخرى التي أطلقها الكُتّاب على نوع من السّهام النّاوكات (٢) ، وقد جمع العماد الجروخ والزنبوركات والناوكات في نَصٍّ واحد ، وذلك في أثناء حديثه عن تقوية عكّا ونقل الرجال والعُدَد إليها (٥٨٦ / ١١٩٠) فقال (٣) : « . . . وتوتير الجروخ والزنبوركات وتطيير النّاوكات النّواكي من مقاتل العدوّ الى الوُكُنات » .

وقد ميّز الطّرسوسي أنواع القسيّ ووصفها بصفاتها (٤) : « فأمّا قِسيّ الزيّار فهي أشدّها رمياً وأعظمها حرباً ، وأنكاها سهماً ، ويحتاج إيتارُها إلى عدّة رجال . وتُدار قِسي الجرَخ بلولب ، وهي دون قِسيّ الزيّار في القوّة » .

ب ـ المنجنيق والدّبّابة :

المنجنيق سلاحٌ هجومي يُستخدم في فتح المدن المحصّنة ، وقد عرّفه صاحب (صبح الأعشى) بأنّه (٥) : « آلة من خشب ، لها دَفّتان قائمتان بينهما سهمٌ طويل ، رأسُه ثقيل ، وذنبُه خفيف ، وفيه تُجعل كفّة المنجنيق الّتي يُجعل فيها الحجر ، يُجذَبُ حتّى ترفعَ أسافله على أعاليه ، ثمّ يُرسل فيرتفع ذَنبُه الذي فيه الكفّة ، فيخرج الحجر منه ، فما أصاب شيئاً إلاّ أهلكه » .

وقد تطورت صناعة المنجنيق وأدخلت عليها تحسينات كثيرة عبر العصور ، فما وصلنا إلى عهد الزنكيين والايّوبيّين حَتّى غدا المنجنيق سلاحاً فَتّاكاً يُعتمد عليه كثيراً في دكّ التحصينات وفتح الثغرات فيها . وكانت الحاجة إلى استخدامه في هذا العهد ما سّة ، لأن الصليبيين عَوّلوا كثيراً على تشييد الحصون والقلاع وبناء الأسوار لحماية أنفسهم ، ولاتخاذها مراكز عسكرية يقاتلون من ورائها ، ويسيطرون بها على طرق المسلمين (٦) .

ولهذا استخدم قادة المسلمين في هذه الفترة المنجنيق استخداماً واسعاً وكان له الفضل في كسب العديد من المعارك ، ومن أجل ذلك عَدّه كُتّاب العصر وشعراؤه أحد الأسلحة الرئيسيّة في زمنهم .

---

(١) تكملة المعاجم العربيّة ٥ : ٣٦٤ .

(٢) لم أجد لها تعريفاً . لكنّ كلام العماد يوحي بأنها نوع من السّهام .

(٣) الفيح القُسيّ : ٣٤٥ .

(٤) تبصرة أرباب الألباب : ٦ - ٨ .

(٥) صبح الأعشى ٢ : ١٥٢ .

(٦) القلاع أيام الحروب الصليبيّة : ١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومثلما مهروا في استخدام المنجنيق والرّماية عنه ، فقد حذقوا صناعته ، وظهر من بينهم مَن نُسِبَ إليه لتفوقّه في صنعته ، ومنهم يعقوب بن صابر المنجنيقي ★ (١) .

وقد وصلنا أدب كثير من نثر وشعر ، وكلّه يدور حول المنجنيق وما يتصّل به ، فمن ذلك قول القاضي الفاضل في تأثيره حين تمّ حصار الكرك (٢) :

« وأمّا المنجنيقاتُ ، فقد نكأت في الأبراج بالهدم ، وفي الأعلاج بالهتك ، فلم تبُق لها الحجارةُ الطائرةُ إليها حجارةً قائمة ، وإنّ لها من امطارها عليها ليلاً ونهاراً ديمةً دائمة » .

ومن المنجنيق نماذج تمتاز بالقدرة على القذف السرّيع للحجارة ، وبالدقّة في إصابة الهدف ، وقد وصف العماد بعض تلك النماذج فقال (٣) : « وكان معنا منجنيقٌ هائل ، بسيول الحجارة سائل ، يُقال له: «المفتّش» لأنّ حجّره يدور في الزوايا بدوائر المنايا ويشوّش . . » .

وأضافوا إليه إضافاتٍ يغدو معها قادراً على قذف الأسهم العظيمة (٤) وقدور النفط (٥) ، وقذف كُتَل هائلة من الحديد (٦) . ففي هدم أبراج عكّا التي أقامها الفرنجة لدى محاصرتهم المدينة ، استخدم ابنُ النحّاس ★ المنجنيق لرمي الأبراج بقدور النفط التي أعدّها (٧) .

وقد سُمّيت الآلة التي تُقذف بها الأسهم من فوق المنجنيق الزيّارات (٨) وسَمّوا القائم عليها الزيّار، والقائم على المنجنيق المنجنيقيّ .

كما عملوا نموذجاً مُصَغّراً للمنجنيق ، أطلقوا عليه اسم «العَرّادة» (٩) وهو أيضاً يُستخدم في قذف الحجارة ، ولربّما كانت له مهمّات خاصّة .

وممّن ذكر المنجنيق وبَيّنَ أثره في الحرب من الشعراء ، الرّشيدُ بن بدر النّابلُسي ★ ، الّذي قال في أثناء وصفه فتح حصن كوكب (٦٠٩ / ١٢١٣) زمن العادل أبي بكر بن أيّوب (١٠) :

طَوّقْتَهُ بمجانيقٍ يَلينُ لها ... قَلْبُ الحديدِ ولا يستمسِكُ الحَجَرُ

أهوَت عليه بِمِثل الشُّهب قاذفةٌ ... فخَدُّه بصعيد الارض مُنَعفِرُ

---

(١) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في اخبار مَن ذهب ، دار الفكر - بيروت (د.ت) ٥ : ١٢٠ .
(٢) كتاب الروضتين ٢ : ٥٥ (حوادث ٥٨٠ هـ) .
(٣) البرق الشامي ٥ : ٨٤ .
(٤) صبح الاعشى ٢ : ١٥٢ .
(٥) المصدر السابق ٢ : ١٥٢ .
(٦) المصدر نفسه ٢ : ١٥٢ .
(٧) النوادر السلطانية : ١٢٠ .
(٨) الفيح القُسّي : ١٤٤ .
(٩) البرق الشامي ٥ : ٨٤ .
(١٠) العَيْني (محمود بن احمد) ٨٨٥ هـ ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزّمان ، صورة عن المخطوط الموجود بدار الكتب المصرية ، رقم ١٥٨٤ تاريخ - ج ١٧ - ق ٧ : ٣٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنهم ابن سناء الملك الذي ذكر رجم منجنيقات صلاح الدين لقلعة الكرك ، فقال (١) :

وقد رَجَمَتْها المنجنيقاتُ إذ رَمت ... لِشيخ لَعين كافرٍ جاهلٍ رَذْلِ

فماتَت وما قد ماتَ يُفتَحُ مُلكُه ... فَخلّفها تبكي الفروعُ على الأصلِ

وقد استخدم الفرنجة في حصارهم للأسوار آلاتٍ متطوّرةً بالنسبة إلى ذلك العصر، ولا سيّما في حصارهم عكّا (٥٨٦/ ١١٩٠)، وقد وصف القاضي ابن شدّاد الآلات بأنها آلاتٌ عجيبة وصنائع غريبة (٢) بعثت الخوف في نفوس المسلمين على المدينة ، وذكر من بين تلك الآلات آلةً عُرفت بالدّبابة ، وكانت تتألف من أربع طبقات : الطّبقةِ الاولى من الخشب، والثّانية من الرّصاص، والثّالثة من الحديد، والرّابعة من النحاس، ولها من تحتها عَجَلٌ تُحرَّك به من الدّاخل، وتركب فيها المقاتلة، ولها رأس عظيم برقبة قوّية من حديد تُسمّى الكبش يُنطَحُ بها السّورُ بِقُوّة مِن جَرّاء قُوّة الدّفع التي يقوم بها مَن بداخلها من الرّجال ، وبتكرار نطحها للسّور تتقوّض جدرانُه (٣) . ولَرُبّما كانت الدّبابة مصنوعةً من الحديد فحَسْب . وروى ابن شدّاد أنّ وزن حديد الكبش الذي تمكّنَ المسلمون من إحراقه على أبواب عكّا كان «مائة قنطار بالشّامي، والقنطار مائة رطل» (٤) .

ومن تلك الآلات التي استخدمها الفرنجة في الحصار ، آلةٌ تشبه القَبو ، يجلس بداخله الرّجال ، ولها رأسٌ مُحدَّد على شكل سِكّة المحراث تُسمّى سِنَوْرا ، وهي تهدم بحِدّتها وثقلها (٥) ، كما استخدموا السّلالم الكبار في ارتقاء الأسوار ، وفي كتاب مُوَجّه إلى سيف الاسلام باليمن ذكره أبو شامة في الرّوضتين وصف لبعض تلك السّلالم ، فقد جاء في الكتاب (٦) : « . . . فعَمَدوا إلى أكبر بُطسة ، واتخذوا فيها مصطالاً كأنّه سُلّم ، وهو في مُقدّمها مُركّب مُقدّم ، وقد جعلوها بحيث إذا قَرُبَ البرج رَكب رأسُ السُّلّم على شرّاريفه ، وصعد الرّجال إليه في تجاويفه ، وتَعبّوا في ذلك أياماً ، وأشبعوه توثيقاً وإحكاماً » .

واستخدم الفرنجة الأبراج في الحصار ، كتلك الأبراج التي بَنَوْها على مقربة من أسوار عَكّا ، وفيها يقول العماد (٧) : «وكان الفرنج قد نزلوا للحصار ، وشرعوا في عمل الأبراج الكبار ، وركّبوها من الأخشاب الطّوال والعَمَدِ الثّقال ، وبَنوها وقدّموها ، ونَصَبوها وأحكموها ، وسقفوها طباقاً وسَمّروها

---

(١) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ٢٢١ .

(٢) النوادر السلطانية : ١٤٠ .

(٣) المصدر السابق : ١٦٢ .

(٤) المصدر نفسه : ١٤٢ .

(٥) المصدر نفسه : ١٤١ .

(٦) كتاب الرّوضتين ٢ : ١٦٣ .

(٧) الفتح القُسّي : ٣٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالحديد، وجعلوا لها منه أطواقا، ووثّقوها شَدّاً وشَدّوها وثاقاً، ولبسّوها بالسّلوخ، وملأوها بالجُروخ، وزحفوا بها إلى السّور ، وكشفوا بالرّمي منها بعض سقوف الدّور . . . » .

وقد استخدم المسلمون هم الآخرون الدبابات والأبراجَ في الحصار ، فقال العماد في وصف حصار صلاح الدين لمدينة صور (٥٨٣ / ١١٨٧) (١) : « . . . ولم تزل المنجنيقات ترمي ، والحجارات تدمّر وتدمي ، والدبّابات تطير من أوكارها عِقبانُ الجروخ ، وأطباقُ البرُوج تُبنى وتُغطّى بالسُّلوخ . . . » .

ومن أسلحة الحصار الّتي استخدمها الطّرفان : المسلمون والفرنجة الزرّاقاتُ (٢) أو النفّاطاتُ ، وقد كانت تُستخدم ضدّ الأبراج (٣) ، وضِدّ الأفراد في آنٍ معاً (٤) . والزرّاقة أو النفّاطة عبارة عن أُنبوبة يُرمى بها النّفط (٥) ، ويُسمّى الرّامي بها زَرّاقاً .

وقد أشارت بعض المراجع التاريخية الحديثة إلى استخدام المسلمين وكذلك الفرنجة ، في أواخر العصر الأيّوبي ، للبارود في تلغيم الأسوار وتصديع الحصون (٦) .

ولَرُبّما لجأ الطّرفان : المحاصِر والمحاصَر إلى التحاذف بحجارة اليد (٧) وغيرها، ففي حصار المسلمين للقدس (٥٨٣ / ١١٨٧) استخدِمت الحجارةُ وجذوعُ الأشجار، ورُزم القش الملتهبة، وكانوا يقذفونها على المسلمين المحاصِرين ليحولوا بينهم وبين تسلّق الأسوار ونقبها ، فأخذ المسلمون يقذفونهم ويقذفون أدواتهم بعيدانٍ وأخشابٍ مطلّية بالقار والشّمع والكبريت ملفوفةٍ بِخِرَق مشتعلة، وقد كانت الأخشاب محشوة بالمسامير كي تعلق حيث تقع فتحرق ما تسقُط عليه من سلالم وأدواتِ رماية يستخدمها الفرنجة (٨) .

كما استخدم المسلمون في معالجتهم للحصون القطاعاتِ (٩) وسائر عُدَد النّقوب الّتي كانت معروفة في زمانهم ، واستخدموا المَساحي (١٠) وغيرها من أدوات الحفر في طَمّ الخنادق الّتي كان يتحصّن بها الفرنجة .

---

(١) الفتح القُسّيّ : ١٥٨ .

(٢) المصدر السابق : ٣٤٥ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه : ٥٠٤ .

(٥) تكملة المعاجم العربيّة ٥ : ٣١٢ .

(٦) History of The Arabs, Hitti, ph - Macmillan and Co., London (1937) p. 665 .

(٧) النوادر السلطانية : ٨٩ (فتوح اللاذقية) .

(٨) ميخائيل زابوروف ، الصليبيون في الشرق ، ترجمة الياس شاهين ، دار التقدّم ، موسكو (١٩٨٦) ص ١٢١/ ١٢٢ .

(٩) الفتح القُسّيّ : ١٤٤ .

(١٠) المساحي : جمع مسحاة ، وهي المجرفة من الحديد . ذكر ابو شامة نقلاً عن ابن شداد : «وفي سحرة تلك الليلة ، ركب السلطان مُشعراً أنه يريد كبس القوم ، ومعه المساحي وآلاتُ طَمّ الخنادق . . .» الرّوضتين ٢ : ١٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤ ـ أسلحة الحرب البحرية : الاسطول وتوابعه :

عني المسلمون في عهد الدّولتين الزنكية والأيّوبيّة ببناء السفن (١) وعمارة الأسطول وزيادة عَدده وتجهيزه بالعُدد اللاّزمة ، ومواصلة الإشراف عليه وترميم ما أصابه العطبُ ، والاهتمام برجاله والقائمين عليه ، وذلك لأنّ البحر كان يُمثّل هدفاً مُهمّاً من أهداف الطرفين المتحاربين : المسلمين والفرنجة ، فبالنسبة إلى الفرنجة يُمثّل البحر طريق الامداد الرئيسي إذ إن الامدادات كانت في الغالب تصل إلى الفرنجة في هذه البلاد عبر البحر ، ولذلك فقد حَرَصوا على بسط سيطرتهم على أهّم الموانيء البحرية مثل : عكّا ، صور ، دمياط ، فأقاموا فيها حامياتٍ حصينةً ممّا حَدا بالمسلمين إلى الاهتمام بالاسطول ، فأبدى السُّلطان صلاح الدّين مثلاً حرصه الشديد على صدّ الصليبيين عن الموانيء الاسلامية ، وتأمين الطّريق البحري للموانيء المحتلّة أو المحاصرة ، وأصدر تعليماته بتقوية الأسطول وتدعيمه (٢) ، وخصّص لهذه المهمة ديواناً عرف باسم «ديوان الأسطول» (٣) وجعل له ميزانية خاصّة ، وأخضعه لإشراف أخيه الملك العادل ، وأطلق عليه اسم «الأسطول المنصور» .

وكان الأسطول يتألف من مئات من القطع البحريّة المتعددة الأحجام والأغراض ، وقد ذكر بعض كُتّاب ذلك العصر أسماء تلك القطع ومجالات استخدامها على النحّو التالي (٤) :

الطّريدة ، الحَمّالة ، الشّيني ، المُسَطّح ، الحَرّاقة ، المَركوش ، الشّلندي ، الأعزاري .

أمّا الطّريدة فكانت تُتّخذ لحمل الخيول ، والحَدُّ الاقصى لحمولتها أربعون فرساً .

وأمّا الحَمّالةُ ، فتُحمَلُ فيها الغَلّة .

والشلندى : وهي عبارة عن مركب مسقوف ، تُقاتِل المقاتلة مِن على ظهره ، ويكون الجذّافون في الطبقة الّتي دونهم .

والمسَطّح : وهو يشبه الشلندي إلى حدٍّ كبير .

والشّيني ، ويُسمّى الغراب أيضاً ، ويُستخدم في حمل المقاتلة وله مائة وأربعون مجدافاً .

والحَرّاقة ، وهي مثل الشّيني إلاّ أنّ حجمها أصغر ومجاديفُها نحوَ مائة مجداف .

والأعزاري ، ويستخدم في نقل الأزواد .

---

(١) الفيح القُسّيّ : ٣٤٠

(٢) المصدر السابق : ٣٤٠ .

(٣) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية (١٩٦٧) ٤ : ٣٧٤.

(٤) الأسعد بن مَمّاتي (٦٠٦هـ) قوانين الدواوين، تحقيق : عزيز سوريال، مطبعة مصر (١٩٤٣) : ص ٣٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمركوش (١) ، وهو مركب خفيف يُنقل فيه الماء .

أمّا أكبر القطع البحرية التي كانت معروفة لديهم ، فهي البُطسَة ، وقد كانت تستخدم للحرب ، وقد تستخدم لنقل التجارة ، وسعتها تتراوح ما بين ثلاثمائة إلى سبعمائة مقاتل (٢) ، كتلك التي جُهّزت بأمر صلاح الدين (٥٨٧ / ١١٩١) وأرسلت إلى عَكّا (٣) .

وذكر العماد في معرض حديثه عن حصار صلاح الدين لمدينة صور بعضَ فئات المقاتلة الّذين كانت تحملهم السّفن الحربيّة ، والأسلحةَ التي كانوا يستخدمونها ، فقال (٤) : « . . . وسُفننا عندنا مربوطة ، وبحفظنا مضبوطةٌ محوطة ، وقد مُلئت برُماة الحَدَق ، وحُماة الحَلَق ، وزرّاقي النّار ، وطَرّاقي النّار ، والخاطِفين بالخطاطيف ، والقاذفين بالمقاذيف ، والكالبين بالكلاليب ، والسّالبين بالأساليب ، والحاربين بالمحاريب ، والرّاجمين بالرُّجام ، والمُعلِمين على الأعلام» .

وقد كان أسطول الفرنجة في هذا العصر في موانىء مصر والشام أسطولاً ضخماً ، يتنامى بوصول الإمدادات من بلادهم ، فذكر القاضي الفاضل في بعض رسائله (٥) : « . . وفي اثناء ذلك استنجدوا علينا الفرنج ، دفعة إلى بلبيس ، ودفعة إلى دمياط ، فإنهّم نازلوهم بحراً في ألف مركب مقاتل وحامل » .

وذكر العماد بعض فئات السّفن التّي كان يتكوّن منها الأسطول الفرنجي ، فقال (٦) : « وللفرنج من شوانيها على وجه البحر عقاربُ تَدِبُّ ، ولواسبُ (٧) سوالبُ ما تغيب وما تَغِبّ ، وسُفنٌ حمّالة ومقاتلة ، وبُطَسٌ للأزوادوالميرناقلة » . ووصف ضخامةَ الكبيرة منها ، وسرعتَها فقال (٨) : « وسفنُ العَدوّ كالجبال تَمُرُّ مَرّ السّحاب ، وتَطوي اللجّةَ كطيّ السِّجِلّ للكتاب » .

وقد كانت سفنهم الكبيرة المحمّلة بالميرة والأسلحة تعبر البحر بحراسة السّفن الصغيرة المحاربة التّي تُعرف بالحرّاقات ، فذكرَ ابنُ واصل الحموي ★ وهو يتحدث عن فتح دمياط (٦١٨ / ١٢٢٢) (٩) « أنّه اتفق أن وَصَل إلى الفرنج مركبٌ عظيم يُسمّى (مَرَمّة) وحوله عِدّةُ حَرّاقات تحميه ، والجميعُ مملوءٌ من

---

(١) هكذا وردت في (قوانين الدواوين) ويرى الدكتور الشيال محقق النوادر السلطانية أنّ هناك خطأ في التحقيق، والصحيح هو: البركوس (وجمعها البراكيس) ، ويستنتج الشيال من بعض النصوص أنّ البركوس كان يستخدم لركوب الجنود والناس عامّة . النوادر السلطانية : ١٤٣ .

(٢) الفيح القُسيّ : ٤٨٦ .

(٣) المصدر السابق ؛ وسيجيء الحديث عن «البطسة» مفصلاً عند الحديث عن أدوات النقل البحري .

(٤) المصدر نفسه : ١٦١ .

(٥) صبح الأعشى ١٣ : ٨٦ .

(٦) الفيح القُسيّ : ٣٤٠

(٧) لواسب : لوادغ

(٨) الفيح القُسيّ : ٣٤٠

(٩) مُفرّج الكروب ٤ : ٩٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الميرة والسّلاح ، وما يحتاجون إليه » .

وقد تحدّث شعراء هذا العصر عن الأسطول في عهد الدّولتين ، من حيث حجمُه وحركتُه ، وإرهابُه للأعداء ، مثلما تحدثوا عن أسطول الفرنجة فوصفوه بالضخامة وكثرة العدد وتحدثوا عن إخفاقه في تحقيق أهدافه أحياناً .

فها هو أسامة بن منقذ يقول في وصف أسطول المسلمين (١) :

غَزَوْتَهم في البَحر حتّى كأنّما الـ ... أساطيلُ فيه موجُه المتلاطمُ
بفرسان بَحر فوقَ دُهم كأنها ... عَلى الماء طَيرٌ ما لهُنّ قوادم
يُصَرّفُها فُرسانها بأعنّة ... جَرَتْ حيثُ لم توصَلْ بهنّ الشّكائم
إذا دفعوها قُلتَ فُرسانَ غارَةٍ ... «سروا بجيادٍ ما لهُنّ قوائمُ»

وحين تعرّض لأساطيل الفرنجة قال (٢) :

يَسوقَ أساطيلَ الفرنج إليهمُ ... حِمامٌ وطيرٌ للفرنج أشائمُ

وذا هو ابن رواحة الحموي ★ يقول في معرض تهنئته صلاح الدّين بعودة أساطيل ثغري دمياط والاسكندرية بسَبْي الفرنجة (٣) :

فَساقَ إلى الفرنج الخيلَ برّاً ... وأدركهم على بَحرٍ بِسُفْن

٥ ـ أسلحة الحصار الدفاعية :

قد تحدّثت في ما تقدّم عن الترس الذي يحمله الجنديّ في الميدان ، وهنا موضع الحديث عن أنواع أخرى من الأسلحة التي تستخدم في الحصار ، ومن ذلك :

أ ـ الطوارق (٤) :

(ومفردها طارقة) . وهي ترس كبيرٌ يُغطّي معظم الجزء الأسفل من الجسم (٥) ، وقيل : هي عبارة

---

(١) ديوان أسامة : ٢٢٤ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) الخريدة (شعراء الشام) ١ : ٤٩١ .
(٤) الفيح القُسيّ : ١٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٦٢ والنوادر السلطانية : ١٢٧ .
(٥) ذهب إلى هذا الدكتور الشيّال مستنداً إلى قول العماد في الفيح : « فتراجع الفرنج واصطفّوا على خنادقهم ، ووقفوا بشطاريتهم وطوارقهم » النوادر السلطانية : ١٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن جملة من الألواح الخشبية، يوضع بعضُها إلى جانب بعض، وتُستخدم كمِتراس يُخفي الجنودَ والرِّماحَ والصُخورَ خلفه (١) . وهي شبيهةٌ بالمتاريس التي تحدّث عنها العمادُ في معرض الكلام عن حصار صلاح الدّين لميناء صور فقال (٢) : « وتقدّم بقطع أشجار الغِياض ، وحَمَلَ ما بتلك النّواحي من الأنقاض . . . ونُظمت الستائرُ من القَضيب ، وصُفّت من صور بالمكان القريب ، وكَمَنَت من ورائها الكُماة » .

وقد تُنصَبُ السّتائرُ للمنجنيقات (٣) ، وكانوا يُعدونها من أخشاب كروم العنب التي تُعرَف عندهم بالزّرجون .

ب ـ الجفاتي :

وهي تراس كبيرة الحجم أيضاً ، ويُصَفُّ بعضها إلى جانب بعض حتّى تصبحَ جداراً واقياً ، وتكمنُ المقاتلة من ورائها ، وهذه التّراس أكثر ما تتّخذ من نوع من الحبال ، يُشَد بعضها إلى جانب بعض ، وقد ذكرها العمادُ فقال (٤) : « واستَترت بالجفاتي قدّامَها الرُّماة » .

ومثل الجفاتي الجنويّاتُ (٥) ، وهي كذلك تُتّخذ من حبال القَصَب ، وقد وصف القاضي الفاضلُ جنويّات الفرنجة ، فقال (٦) : « . . . . وهذا العدد المقاتل قد زَرَد عليه من الخنادق أدراعاً متينة ، واستجنّ من الجَنَويّات بحصون حصينه » .

٦ ـ الحصون والقلاع : أدوات هجوم ودفاع

شاع بناءُ الحصون والقلاع ، واستخدامُ ما كان منها قائماً في بلاد الشام ومصر ، أيّام الحروب الصليبيّة ، وكان الفرنجة هم أصحابَ الاهتمام الأكبر بها (٧) « فقد اضطرّ الغزاة تحت ضغط الحاجة ، لوجودهم في أراضٍ غريبة بعيدة عن بلادهم ، ورغبةً منهم في المحافظة على ما امتلكوه ، خشيةَ أن يستردّه أصحابُه الأصليّون المُخرَجون من بلادهم ، إلى شَغل القلاع والمدن المُسَوّرة القائمة ، وبناء الجديد منها . ولم يكن من شأن مثل هذه القلاع والمدن أن تحميَهم ومواشيَهم فحسب ، وإنّما كانت تمكّنهم من وضع

---

(١) الرأي للدكتور الشيّال كذلك . النوادر السلطانية : ١٢٨ .
(٢) الفتح القُسّي : ١٥٨ .
(٣) كتاب الروضتين (دار الجيل) ٢ : ١١ .
(٤) الفتح القُسّي : ١٢٨ .
(٥) تكملة المعاجم العربية ٢ : ٣١٢ .
(٦) صبح الاعشى ٧ : ١٣٥ .
(٧) القلاع أيّام الحروب الصّليبية : ٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خصومهم تحت رقابتهم المستمرّة ، ولم يكن ذلك يتّم عشوائياً وإنما كانت هنالك سلسلة من الحصون والقلاع يحرُس بعضُها بعضاً على طول الشرّيط الضيّق الذي كان يسيطر عليه الفرنجة » ، ولهذا يمكن القول : إنّ القلاع والأبراج التي شيّدها الفرنجة أو استولوا عليها قائمةً كانت مُتعدّدة الأهداف ، فإلى جانب الرّقابة كانت تُستخدم لحماية طُرُق حَجّهم (١) ، ولحراسة الأماكن النّائية (٢) ، أو لقطع طُرق الاتصال والتموين بين منطقتين للمسلمين (٣) . وربّما استُخدم بعضها لِشنّ الغارات الهجومية السّريعة على مراكز الجيش الاسلامي (٤) وأماكن تجمّعه .

وكانت هذه الحصون تُعطى في بداية الأمر للبارونات ، ثُمّ أصبحت تُعطى للفرسان من الاسبتارية والداوية والتّوتونية ، إعظاماً لدورهم في الحملات الصّليبيّة (٥) .

والمتتبّع لفَنّ بناء القلاع والحصون ، يظهر له أنّهم كانوا يولون تحصيناتهم عناية واهتماماً كبيرين ، وأنّهم كانوا يبذلون بسخاء على إقامة تلك التحصينات ، كما يتّضح له أنّه كلّما كان الموقع المرادُ حمايتُه أكثر أهميّة لديهم ، كانت عنايتهم بِسَد الثّغرات فيه ، والتّمكين له أكبر وأعظم ، فمدينة أنطاكية مثلاً أحاطوها بالعديد من القلاع ، والقلاعُ محمّيةٌ بحصون .

ومثلما كانت عنايتهم ببناء القلاع والحصون عظيمةً ، كان اهتمامهم ببناء الأسوار العالية القويّة كذلك ، وبخاصّة حول المراكز المهّمة ، فأنشأوا مثلاً سوراً ثلاثياً حول الجانب البرّي من مدينة صور (٦) ، وأقاموا سوراً مزدوجاً حول مدينة عَكّا ، وعَزّزوه بأبراج تَخْفِرُه على امتداده (٧) وعلى العموم كانت تلك الأسوارُ تتّصف بعَرضِها ومَنَعتها ، وقد وصف العماد السّور الذي أقامه الفرنجة حول حصن بيت الأحزان ، فقال (٨) :

« وكان عرضُ السّور تِسْعَةَ أذرعٍ بالنجار ، فما تأثّر بالتعليق والتّحريق ، ولا أبان عن التشييد والتشديد » . ووصف غيرُه السّور الذي كان يحيط بمدينة دمياط بأنّه (٩) : « يمشي عليه خمسةٌ من الخيلِ

---

(١) The Crusaders, Reigne pernaud Translated by : Enid Grant , Oliver & Boyd, Edinburgh and London (1963) . p. 150

(٢) Ibid .

(٣) Ibid .

(٤) القلاع في أيّام الحروب الصليبية : ١٦ .

(٥) Regine pernoud, p. 151 .

(٦) القلاع أيّام الحروب الصليبية : ٢٨ .

(٧) المرجع السابق : ٢٨ .

(٨) البرق الشامي ٣ : ١٧٧ .

(٩) محمد بن قاسم النُّويري (٧٧٥ هـ) ، الالمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام ، تحقيق د. كومب وعزيز سوريال ، حيدر آباد (١٩٦٨) ، ١ : ١٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعَرض حائطه » .

ولم يكن اهتمام الفرنجة ينَصَبّ على حماية المدن الدّاخلية فحسب ، وإنّما كان يتعداه إلى الاهتمام بتحصين المرافىء ، فقد كانوا يشيدون الحصون والأبراج القويّة ، ويصلون بينها بسلاسلَ حديديةٍ غايةٍ في المنعة على مداخل المرافىء ، وغالباً ما كانوا يفصلون المرفأ عن المدينة بأسوار عالية (١) .

ومهما كانت قوة تلك التحصينات ، فإنّها لمَ تَثنِ المسلمين عن الجهاد ، بل كانوا يحُاصرون الحصن ، ويعملون فيه خَرقاً ونَقْباً إلى أن تنقضّ جدرانه ، وتتهاوى أركانه . وكان النقّابون مجموعة مهمّة في فريق العاملين في شؤون الحصار ، ومهمتهم من أصعب المهّمات لأنّ عملَهُم لا يتِمّ دون اقترابهم من «الباشورة» فهم دائماً معرَّضون للخطر. وقد وصف القاضي الفاضل حصار حصن الكرك (٥٨٠/١١٨٤) فقال (٢) : « عذابُ اللّه بالحصن وأهله واقع ، ما لَه من دافع ، وإنّ دليل النّصر قد ظَهَر وما دونه من مانع . وأمّا المنجنيقات فقد نكأت في الأبراج بالهدم ، وفي الأعلاج بالهتك ، فلم تُبق لهم الحجارةُ الطّائرة إليها حجارة قائمة ، وإنّ لها من امطارها عليها ليلاً ونهاراً ديمةً دائمة . وأطفْنا عليها بالزّرجون حتّى وقعت الأسوارُ من سُكرها ، وضَرَبْنا منها السّتائر حَتّى ترنّحَت لصخرها ، وعاطَتْها كفّة المنجنيقات عقار عقرها ، فالسّورُ المقابلُ للمنجنيقات قد انهدمت أبراجُه وأبدانُه ، وانهدّت قواعده وأركانه . . . » .

وبالرّوح نفسها التّي حقّق بها المسلمون النّصر واختراقَ التحصينات في الكرك ، فإنّهم تمكنّوا من السّيطرة على عشرات الحصون والقلاع في مُدّة قصيرة على أثر النّصر الذي حققّه صلاح الدّين في حطينّ (٥٨٣ / ١١٨٧) .

أمّا عناية المسلمين بتشييد الحصون والقلاع ، إذا قيسوا بالفرنجة ، فقد كانت في مستوى أقلّ ، ومع ذلك فقد بنوا عدداً من القلاع ، وأقاموا العديد من التحصينات ، ورفعوا الأسوار وبنوا الأبراج البحريّة حيثما وجدوا لذلك ضرورة ، فقد ذكر العماد أنّ السّلطان صلاح الدّين أقام في القدس (٥٨٧ / ١١٩١) تحصيناتٍ جديدة ، فقال (٣) : « . . وجَدّد أبراجاً حربيّة من باب العمود إلى باب المحراب ، وأنفق عليها من المال ما خرج عن الحساب ، وبناها بالأحجار الكبار الثّقال ، فجاءت أرسى وأرسخَ من الجبال » .

وانتدب السّلطان نفسه (٥٨٧ / ١١٩١) أعداداً من الرّجال من أهل الصّنعة والخبرة لعمارة قلعة تنّيس (٤) ، عندما اشتدّ خوف أهلها من الإقامة فيها (٥) .

---

(١) القلاع : ٢٨ .

(٢) كتاب الرّوضتين (دار الجيل) ٢ : ٥٥ .

(٣) الفتح القُسّي : ٥٦٥ .

(٤) جزيرة في بحر مصر قريبة من البرّ ، بين الفَرما ودمياط .

(٥) المقريزي ، أحمد بن علي ، الخطط المقريزيّة ، دار صادر - بيروت (د.ت) ١ : ١٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبَنى الملك الكاملُ جزيرة محصّنة بين دمياط والمنصورة لتقوم في وجه العدوّ (١) .

وشيّد الملك المعظّم عيسى قلعة على الطّور المُطِلّ على مدينة الناصرة واستدعى لهذه المهمّة عساكر حلبَ وغيرِها ، وقد استمر العملُ في بنائها عاماً كاملاً ، وبنى حولها سوراً دائرياً (٢) .

وأنشأ الأيوبيون بُرجاً عالياً في وسط النّيل على مقربة من دمياط ، وكانت تمتّد من هذا البرج سلسلتان : إحداهما إلى دمياط و الأخرى إلى جيزة دمياط ، والغاية من هاتين السلسلتين هي منع عبور مراكب العدوّ إلى الميناء ، فإذا أغلِقَت السلسلتان امتنع على المراكب العبور إليه ، ومتى لم تكن السّلسلة عَبرَت المراكب وبَلَغَت ما تشاء من الدّيار المصريّة (٣) .

وفي العهد المكتوب المُوجّه من ديوان الخلافة ببغداد إلى الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، ما يُنصّ على ضرورة إيلاء الحصون والقلاع العنايةَ اللاّزمة ، فقد جاء في ذلك العهد (٤) : « . . . . وأنّ يشملَ ما ببلاده من الحصون والمعاقل بالاحكام والإتقان ، وينتهي في أسباب مصالحها إلى غاية الوسع ونهاية الإمكان . . . » .

وقد وصف كُتّابُ النثر الفنّي في عهد الدّولتين تلك القلاعَ وهاتيك الحصون ، ولا سيّما تلك التّي شيّدها الفرنجة ، فأشادوا بمنعتها وتحليقها في الذُّرى ، إذ كانت في الغالب ، تُشاد فوق القمم العالية ، فقال عزّ الدين ابن الاثير في وصف حصن بارين (٥) : « فحين نازَله طافَ به وقابَلَه، فرأى حصناً مُحَلّقاً في الهواء ، مُقارناً هامَة الجوزاء ، قد فاق الجبالَ الراسياتِ وجازها سُمُوّا . وقد تشمّخ بأنفه عن أن يرام ، ونأى بجانبه عن أن يُضام ، فلا ترمقُه الأبصار إلاّ عادت حَسيرةً ، ولا تَؤمُّه الطيورُ إلاّ أضحت أجنحتها مَهيضة كسيرة » .

وقال العماد في وصف حصن بَرْزَية (٦) : (٧) « فرأيناها قَلعَةً شَمّاءَ في الذُّرى ، لا تكاد من سُموها تُرى ، وهي عَلى سنٍّ من الجبل عالٍ ، مترامِيةٌ في السّماء ارتفاعاً ، وقيل : قُدّر عُلوّ ثُلثِه فكان خمسمائة ونيّفا وسبعين ذراعا . . . » .

وكتب القاضي الفاضل نيابة عن صلاح الدّين إلى الواعظ زين الدين بن نَجا *في وصف قلعة

---

(١) ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الامصار ، لجنة إحياء التراث العربي - دار الآفاق ، بيروت (د.ت) ق٢ : ٧١ .
(٢) أبو شامة المقدسي، الذّيل على الروضتين ، تصحيح محمد زاهد الكوثري ،دار الجيل - بيروت ط٢ (١٩٧٤) ،ص : ٧٠.
(٣) المصدر السابق .
(٤) صبح الأعشى ١٠ : ٩٩ .
(٥) التاريخ الباهر : ٥٩ .
(٦) قلعة حصينة على طريق أنطاكية .
(٧) الفيح القُسّي : ٢٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حمص، فقال (١) : « والشيخ الفقيه قد شاهد ما يشهدُ به من كونها نجماً في سحاب ، وعُقاباً في عُقاب ، وهامةً لها العَمامةُ عَمامة ، وأَنسُلَةً إذا خضَبها الأصيل كان الهلالُ منها قُلامة ، عاقِدةً حَبوةَ صالحها الدّهرُ على أن لا يحلّها بِقَرْعه ، عاهدةً عِصمةَ صافحها الزّمن على أن لا يرُوّعها بخلعه » .

وفي النصوص الشعرية في عهد الدولتين صورة جليّة لتلك الحصون والقلاع ، أبرزت من خلالها ماكانت تمتازُ به من قوّة ومَنَعة وقُدرة على المقاومة ، وقد بيّن الشعراء فضل عساكر الزنكيينّ والأيوبيينّ في اقتحامها ، فمن ذلك قول الرشيد النابلسي في وصف حصن كوكب (٢) :

وشامخان رفيعا الأوج يحسِرُ عن ... أن يستطيعهما التأميلُ والنظرُ
في ذِروَتي مُشَخَرّ العزّ دونَهما ... مِن أن ينُالا تُنالُ الأنجُمُ الزُّهرُ
أوردتَ حصنَكَ من تلك الحصون منىً ... لولاك عَزّ على وُرّادها الصَّدَرُ

ومن وصفهم لحرص الفرنجة على إحكام حصونهم ، قولُ عمارة اليمني ★ (٣) :

وما عَصَمتُهم منك إلاّ معاقلٌ ... تأنوا على تحصينها وتأنّقوا

ومنه قول ابن عُنين في معرض رثائه الملك المعظم عيسى (٤) :

ولقد شَهِدتُكَ يومَ قيساريّةٍ ... والشمسُ قد نسَجَ القَتامُ لها رِدا
والكفرُ معتَصِمٌ بِسورِ مُشرفِ الـ ... أبراج ، أُحكِمَ بالصّفيح وشُيِّدا

ومن حديث الشعراء عن استسلام حصون الفرنجة للمسلمين ، قولُ ابن القيسراني في استسلام حصون شمالي حلب للملك العادل نور الدين (٥) :

فألقت بأيديها إليك حصونُهُ ... ولو لم تجىء طوعاً لجاء بها القَسْرُ

ومنه قول ابن سَناء الملك في استسلام حصون حلب للملك صلاح الدين (٥٧٩/١١٨٣) إذ قال (٦):

ثُمّ استجابت فَلا حصنٌ بمُمتنعٍ ... منها عليه ، ولا مَلْكٌ بمُحتجبِ

* * *

(١) كتاب الرّوضتين ١ : ٢٣٩ .
(٢) عقد الجمان : ١٧ ، ق٢ : ١٧٨ (مخطوط) .
(٣) سميرة سلامي ، عمارة اليمني حياته وشعره (رسالة جامعية قدمّت الى جامعة دمشق ١٩٨٢) ص : ١٤٨ .
(٤) ديوان ابن عُنين : ٧٦ .
(٥) ياقوت الحموي (٦٢٦) معجم الادباء ، دار احياء التراث العربي ، بيروت (د.ت) . ١٩ : ٦٥ .
(٦) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولَرُبما وجد المسلمون أنّ من المصلحة أن يهدموا قلعة أو حصناً أو مدينة محصّنة لعجزهم عن حمايتها، فلا يستفيد منها العدّو إذا ما تمكن من استعادتها ، أو لتوفير الجهد والامكانات لحماية موقع أهمّ من الموقع الّذي تقرّرت تعفَيتُه . فقد خَرّب المسلمون حصن بيت الأحزان (٥٧٥ / ١١٧٩) على أثر الاستيلاء عليه ، حتّى لا يعود للصليبيين أملٌ بالانتفاع به ، وقد ذكر القاضي الفاضل تخريبَه ، فقال (١) : « . . . توفرّت الهمّة على هدم هذا الحصن ، وتعفيةِ آثاره ، وإزالة ضرره ، فأُلحقت أعاليه بقواعده ، وصار أثراً بعد عَينْ في مَشاهده » .

وبرزت بقوة ما أسميته من قبل بسياسة الأرض المحروقة ، في عهد صلاح الدين حين وجد نفسه عاجزاً عن حماية مدن بعينها ، فأمر بتخريب مدينة عسقلان (٥٨٧ / ١١٩١) بعد أن استشار أصحابه في أمرها ، وقد كانت مدينة حصينة ، وكان الفرنجة يُصرّون على تملّكها ، ولا سيّما في محادثات الصلح بين المسلمين والفرنجة التّي ابتدأت سنة ٥٨٧ / ١١٩١ . ولّما كان من الصّعب على المسلمين أن يحفظوا المدينتين: يافا وعسقلان معاً من الفرنجة (٢) ولّما كانت يافا تقع في منتصف الطّريق بين القدس وعسقلان ، كانت يافا أوْلى بالبقاء من عسقلان لقربها من بيت المقدس . ويُستفاد من خبر ابن شدّاد أنّ صلاح الدين كان مكرهاً على تخريب المدينة (٣) .

واستمرّت تلك السياسة في ظروف مشابهة ، فأخرب المعظم عيسى بانياس وتبنين (٤) (٦١٥/١٢١٨) ، كما أخرب أبراج القدس وسورها (٥) (٦١٦ / ١٢١٩) ، وأخرب الملك الكامل مدينة تنّيس (٦) (٦٢٤ / ١٢٢٧) لعجزه عن حمايتها .

---

(١) كتاب الرّوضتين (دار الجيل) ٢ : ١٣ .

(٢) النبيح القُسّبي : ٥٥٠ . .

(٣) النوادر السلطانية : ١٨٦ ، وقد تقدمت الاشارة إلى ذلك ، انظر الفقرة عن قائد الجيش ومجلس الشورى عند الصليبيين فيما تقدّم .

(٤) الذيل على الروضتين : ١١٣ .

(٥) المصدر السابق : ١١٦ .

وقد نقل ابو شامة في الموقع نفسه عن سبط ابن الجوزي أبياتاً أنشده إيّاها قاضي الطّور مجد الدين محمد بن عبدالله الحنفي لنفسه فقال :

مررتُ على القدس الشّريف مُسَلّماً ... على ما تبقّى من رُبوعٍ كانجم
ففاضت دُموعُ العَين منّي صَبابةً ... على ما مضى من عصرنا المتقدّم
وقد رام عِلجٌ أن يُعفّي رسومَه ... وشَمّر عن كَفّيّ لئيمٍ مُذمّم
فقلت له : شُلّت يمينُك خَلّها ... لمُعْتَبِر أو سائل او مُسَلِّم
فلو كان يُفدى بالنفوس فَديته ... بنفسي ، وهذا الظنّ في كُلّ مُسْلِم

(٦) الانتصار لواسطة عقد الامصار ق٢ : ٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧ ـ أسلحة غير ماديّة :

إلى من تُوجّه هذه الأسلحة ؟ حين نقول إنّ « التحريض والإثارة » سلاح غير مادّي اتّباعاً لقوله تعالى (يا أيها النبي حَرّض المؤمنين على القتال) ـ الانفال ٦٥ ـ فإنما نُقَدّم هذا السلاحَ ليستخدمه الجيش الموجّه إليه التحريض ، وهو في هذه الحال جيش المؤمنين ، وحين نقول إنّ الرعب سلاحٌ مهمّ في المعركة وفاقاً لقول الرّسول الكريم : « نُصرتُ بالرُّعب » نعني أنّ الرّعبَ سلاحٌ موَجّه إلى العدوّ ليوهن من قوته وليُخلخلَ من تماسكه . وعلى هذا فهذه الأسلحة غير متّفقة في التوجّه والغاية . ثم إنّنا عندما نقول : إنّ التحريض والاثارة سلاح ، نفصل بينه وبين سائر الأسلحة ، وهذا معناه أنّنا في الحقيقة قد نعتقد في إمكان شَنّ حَرب دون إثارة أو تحريض مع أنّ الإثارةَ والتحريض جزءٌ لا ينفصل عن اتقان استعمال السيف أو الرّمح ، وأنّه إن لم يُحدث أثراً فهو سيف مفلّل لا يجدي نفعاً .

ولقد كان الناس يعتقدون أنّ الضجيج في المعركة بِضرب الكوسات ونَعير البوقات ذو أثر في أعصاب الخصم ، يَرْميه بالفوضى لأنه يحول دون سماع أوامر القادة ، كما يُحدث ثغرة في نفوس الجند بتصوّرهم للهول المقبل ، ولكن هل هذا ما يزال صحيحاً ؟ إنّ ما نسميه أسلحة غير ماديّة قد يشمل أشياء كثيرةً متفاوتة ، منها الحرب النفسيّة ، وفي العصر الحديث الحربُ الإعلامية المنظّمة ، وغيرُ ذلك من أنواع الحروب ، فالموضوع واسع ، ولكنّي سأقصره على بعض المعالم التّي تَستمد من وحي الحروب الاسلاميّة ـ الفرنجيّة .

أ ـ التحريض والإثارة :

السؤال الكبير الذي يواجهه الدّارس هنا اتفّاق شعراء عصر الزنكيين والأيوبيين على جعل القدس محور اهتمام ، بتحريض السلطان القائم على استردادها ، ويكاد هذا الأمرُ يتّخذ صفةَ الإجماع ، وقبل أن نورد أمثلة على ذلك الإلحاح نَصوغ السؤال التالي : هل كانت الإثارة المستمرة والحضّ المثابر عاملاً أساسياً في تلخيص قضيّة البلاد المقدسة إلى استرداد القدس ، أو كانَ الإلحاح على استرداد القدس رمزاً للقضية الكبرى نفسها ؟

وسأورد هنا أمثلة وحسب ، تشير إلى هذا الموقف :

قال العماد الأصفهاني يحُرّض نور الدين (١) :

اغزُ الفرنج فهذا وقتُ غَزوهمُ ... واحطِم جموعَهُم بالذّابل الحُطَم

وطَهّر القدسَ من رجس الفرنج وَثِبْ ... على البُغاث وثوبَ الأجدل القَطِم

---

(١) ديوان العماد : ٣٨٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال يحرض صلاح الدّين (١) :

فَسْرِ وافتَحْ القدسَ واسفك به ... دِماءً متى تجُرها ينظُف
واهد إلى الاسبتار البتا ... رَ ، وهُدّ السُقوفَ على الأسقُف
وخَلّص من الكُفر تلك البلادَ ... يخُلّصُكَ اللهُ في الموقف

وقال الحكيم الجلياني مستثيراً همّه صلاح الدين لتحرير القدس (٢) :

فذا المسجدُ الأقصى وهَمتُكَ العُلى ... وعَزَمتُكَ القصوى ورمْيتُكَ الصُمّى
فَما هو إلاّ أن تَهِمَّ وقد أتَت ... فتوحٌ كما فاضَ الخِضَمُّ الذي طَما
وإن أنت لم تُرِدِ الفرنج بوقعةٍ ... فمنَ ذا الذي يقوى لبُنيانها هَدماً
وما كُلّ حينٍ تُمكِنُ المرءَ فرصَةٌ ... ولا كُلُّ حالٍ أمكنَت تقتضي غُنما
وليسَ كفتح القدسُ مُنيَةُ قادرٍ ... وما إن تلقّاها سوى يوسفٍ جَزما

ودعا ابن عساكرَ ★ نور الدّين إلى تطهير المسجد الأقصى ممّا علق به من نجاسات جلبها إليه الفرنجة، فقال (٣) :

وطَهِر المسجد الأقصى وحوزَته ... من النَّجاسات والإشراك والصُلُب
عَساك تظفر في الدّنيا بحُسن ثنا ... وفي القيامة تَلقى حُسنَ مُنقَلَب

والأغرب من كُلّ ذلك ألاّ يركبَ محي الدين ابن الزّكي ★ أسلوبَ التّحريض المباشر بل يضعه بصيغة أقربَ إلى التنبؤ الواثق ، فيقول لصلاح الدين (٤) :

وفتحُكم حَلَباً بالسَّيف في صَفرٍ ... مُبَشّرٌ بفتوح القدس في رَجَب

أكان هؤلاء حَقّاً يُحَرِّضون أم كانوا يعرفون أنّ عند صلاح الدين من القدس أمراً عظيماً لا تحمله الجبال ، أي أنّ الرّجل كان قد هام بتحرير القدس هُياماً ملكَ عليه كُلّ تفكيره ، وعرف النّاس ذلك منه فتقرّبوا إليه بالتحريض ؟

---

(١) كتاب الرّوضتين ١ : ٢٦٩ .
(٢) المصدر السابق ٢ : ١١٦ .
(٣) الخريدة (قسم الشام) ١ : ٢٧٧ وما يليها .
(٤) مضمار الحقائق : ١٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهناك تحريضات أُخرى عامّة لا تختصّ بالقدس ولكنّها تشير إلى أنّ سيل التحريض مُستمرّ .

فحرّض ابن النّبيه ★ الملك الأشرف موسى على شَنّ غاراته على الفرنجة فقال (١) :

طَأهُم بجيشك لا تحفل بكثرتهم ... فإنّهم لِبُغاثِ الطّير أقواتُ
زلزل بغارتك الشّعواءِ دارَهمُ ... فشيمةُ النّجبِ الغُرّ الإغاراتُ

وحَرّض ابن مُنير نور الدّين على إنزال العقوبة بالصليبيين فقال (٢) :

ألقِ العَصا فيمن أطاعَ ومَنْ عَصى ... منهم ، ودمّر أرضهم تدميرا
لا يُلهِهِم أن قد مَنَنْتَ وشُنّها ... شعواء تصلي الكافرين سعيرا

وحرّض ابن مُنير كذلك نور الدين على أهل دمشق الذين تحالفوا مع الصليبيين ضدّه ، فقال (٣) :

لا تَعْفُ بل شُقّ الهدى نفسَ الذي ادّ ... رَعَ الضلالَ على أغرّ مُشَهّرِ
قَلّدْهُ ما أهدى علّي لِمرحَبٍ ... فلقد تهكّم في الخداعِ الخيبري
ما السيفُ ممّن أُمّنهُ نَصرانةٌ ... لم تَختَتِن كالسيف من مُتنَصّرِ

ب ـ الايمان الحافز :

لا أحد يشكّ بأنّ هذا عاملٌ فعّال ، وبخاصّة إذا تحقّق النّاس من صدق القادة في توجهاتهم ، وقد أُتيح لهذه الفترة رجال من طراز رفيع في الصدق والاخلاص ، ممّا يُذكّر بالفتوحات الاسلامية الأولى ، وقد لمس الناس هذا كُلّه في التضحية بالرّاحة وفي تحمّل كلّ أنواع المصاعب في سبيل إنقاذ الأمّة ومقدّساتها. وبقي بعد ذلك أن يكون الشعراء صادقين في إحساسهم بصدق الدّور الذي قام به القادة ، وبقي أن نصدق نحن الحكيم الجلياني فيما نسبه إلى صلاح الدّين حين يُعلّل انتصاراته بأنّه كان يجاهد من أجل إرضاء الله سبحانه وتعالى، ولو أنّه كان يجاهد من أجل تحقيق هدف آخر لما تمكّن من تحقيق النصر، فقال (٤) :

فأنتَ الذي أيقَظْتَ حزبَ مُحَمّدٍ ... جِهاداً ، وهم في غَفلة المتناوم
فحارَبْت للإيمان لا للضغائن ... ورابَطْت للرّضوان لا لمغانم

---

(١) ديوان ابن النبيه (ميكروفيلم عن طبعة القاهرة ١٢٨٠ ونسخة المكتبة الخالدية بالقدس) ص : ٧١ .
(٢) ديوان ابن منير : ٢٤٤ .
(٣) كتاب الرّوضتين (تحقيق محمد حلمي) ١ : ١٩٧ .
(٤) عيون الانباء : ٦٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأن يكون العماد قد صدق في تصوير قوّة العامل الإيماني وتأثيره بتحقيق النّصر حين قال (١) :

رأى النّصر في تقوى الإله ، وكُلّ مَن ... تَقَوّى بتقوى اللّه لا يعدم النّصرا

وأن يكون تعبيره الثاني عن هذا المعنى أيضاً نابعاً من القلب (٢) :

لم تَلْقَهم ثِقَةً بِقُوّة شَوكَةٍ ... لكنْ وثقت بنصرة الرّحمنْ

جـ ـ الحزم وحسن الرّأي والتدبير

هذه الصفات من أهم ما يجب أن يتمتّع به القائد الحكيم القادر ، وقد عَدّها شعراء العصر الزنكي ـ الأيوبي من عُدّة النّصر ، فالحكيم الجلياني يُبشّر صلاح الدّين بالظّفر قبل اللقاء ، لأنه التقت فيه صِفَتا الحزم والرّأي السّديد ، بقوله (٣) :

لَتَظفرَنّ بما لم يحوه ملكٌ ... أبا المظفّر خَطّاً خَطّهُ الأزلُ

دليلُ ذلك آراءٌ لك اقترنت ... بالحزم والعزم لم يخُصص بها الأولُ

وعزا العمادُ انتصار أسدالدين شيركوه على شاورَ وحلفائه الفرنجة إلى هذه الصّفات حين قال (٤) :

يَسّرْتَ فتحَ بلادٍ كان أيسُرها ... لِغير رأيك قُفلاً فَتحُهُ عَسِرُ

قرنْتَ بالحزم منكَ العزمَ فاتّسقت ... مآربٌ لك عنها أسفَر السّفر

وجعلَ حُنكة نور الدّين وسدادَ رأيه سبباً في انتصاره على أعدائه الذين انهزموا من أمامه قبل أن يتمّ اللقاء ، فقال (٥) :

وهَزَمتَهُم بالرأي قبل لقائهم ... (والرأي قبل شجاعة الشجعان)

وإلى مثل هذا المعنى ألمح الشاعر ابن رواحة حين قال (٦):

إذا اتّبعوا له عزماً ورأياً ... غُنوا في الحرب عن ضَرْبٍ وطَعن

---

(١) ديوان العماد : ١٦٠ .

(٢) المصدر السابق : ٤١٠ .

(٣) كتاب الرّوضتين (دار الجيل) ٢ : ١١٥ .

(٤) المصدر السابق ١ : ١٤٥ .

(٥) ديوان العماد : ٤١٠ .

(٦) الخريدة (قسم الشام) ١ : ٤٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن جميل ما قيل في أثر الرأي بتحقيق النّصر ، ما قاله ابن الذّروي ممدح به القاضي الفاضل ، إذ قال (١) :

لِرأيك هذا النّصر للدّين ينتمي ... فلا ينتحلْه كُلُّ عَضب ولهذَمِ
وإن كان فيه للإستة والظُّبى ... مُساعدةٌ ، فالفضل للمتقدم
تُشير على الاسلام منك فراسةٌ ... لها حزمُ طَبٍّ واحترازُ مُنَجِّم
وتحميه ألفاظٌ لديكَ كأنها ... قَواطعُ بُتْرٌ أو نوافِذُ أسهُمِ

د ـ الرّعب :

ذكره الباري عَزّ وجَلّ بقوله : ﴿ إذ يوحي رَبُّك إلى الملائكة أنّي معكم ، فثبّتوا الّذين آمنوا ، سألقي في قلوب الذين كفروا الرُّعب ، فاضربوا فوقَ الأعناق ، واضربوا منهم كُلّ بنان ﴾ (الأنفال : ١٢) ، وهو سلاح نفسيّ تتبدّى آثاره بمظاهر الهلع ومشاعر الفزع التي تنتاب أحد الخصمين ، إما لضخامة في العَدد ووفرة في العُدّد لدى الآخر ، وإما لقوّة غير عادية يتمتّع بها ويفتقدها خصمه ، وإما بسبب أقوال سُمعت عنه كمحبّته سفكَ الدماء ،وعدم مراعاته لحرمات الكبار والصّغار والنّساء ، وكُلّ ما لا يجوز المساس به .

ولمّا كان الرّعب من الأسلحة التي تقرّر النّصر ، كما جاء في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف ، فقد أكثر شعراء الدّولتين الزنكية والأيوبيّة من الحديث عنه ، لا لأنهم تيقنوا عملياً من أنّه عنصر فعّال في نتيجة المعركة ، بل لأنّ بعضَ ضُروب النّصر تأتي مفاجئة ليس من السّهل تعليلُها ، كأن يؤثرَ العدوّ الانسحاب دون لقاء ، أو كأن تدورَ الدائرة على العدوّ مع أنّه كانت هنالك علاماتٌ تنبيء بتفوقه ؛ ولهذا ذهب الشعراءُ مع الغلوّ حين وصفوا بعض القادة بأنه لا يخطو خطوة لقتال الأعداء إلاّ تقدّمَه الرُّعبُ إلى قلوبهم ، فتُحسم المعركة قبل أن تَبدأ ، ومن ذلك ما قاله فتيان الشاغوري في صلاح الدين (٢) :

يغزو الملوكَ الرُّعبُ قَبلَ مسيره ... في عسكر أفنيتَ بسه من عَسكَرِ

وقال ابن سناء الملك في هذا المعنى يمدح الملك المظفّر صاحب حماة (٣) :

وباسمك من قبل الوَغى تهزم العدى ... وباسمك قبلَ الحربِ تُنصَرُ بالرُّعبِ

---

(١) كتاب الروضتين (دار الجيل) ٢ : ١٢٥ .
(٢) ديوان فتيان : ١٤٠ .
(٣) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووصف جيشَ المظفر فقال (١) :

ويُرهبُ من أسيافهم قَبلَ سَلِّها ... وَرُبَّ سُيوف قَطَّعَت وهي في القُرب

وصَوَّر في موقع آخر الحالة النفسيّة والاضطراب والفوضى التّي عمّت صفوف جيش الفرنجة عندما تصدّى لهم صلاح الدّين فقال (٢) :

إلى بلاد أجابت قبلما دُعيت ... للخاطبينَ ولولا الخوفُ لَم تَجُب
لَو لم تَجُب يوسفاً من قبل دعوته ... لعادَ عامرُها كالجوسَق الخَرِبِ
خافت وخافَ وفرَّ المالكون لها ... فالمدنُ في رَهَبٍ والقومُ في هَرَبِ

وربط علم الدين أيدَمُر ★ بين الرُّعب والايمان ، حين شبّه ما يتصف به ممدوحه من هيبة تبعث الرهبة في نفوس أعدائه ، بالهيبة التي اكتسبها الخالقُ عزّ وجَلّ رُسُلَه ، فقال (٣) :

نُصرْتَ بالرُّعب قَبلَ البيض والأسَلِ ... ولُطفِ صُنعٍ كصُنع اللّه للرُسلِ
أما العَدوُّ فأمسى لا قرارَ له ... من الحِذارِ ، وقَرّت عَيْنُ كُلِّ ولي

يبدو من الأمثلة المتقدّمة أنّ مقولة «نصرت بالرُّعب» ظلّت عند مدلولها الأوّلي ، ولم يخص الشعراءُ إلاّ في تصوير أثر الخوف في نفوس الأعداء ، كما سيأتي توضيحه عند الحديث عن المعالم الفنيّة في الفصل الخامس .

٨ ـ جهاز الاتصالات والخدمات في الحرب بين المسلمين والصليبيين

(أ) عناصر بشريّة للخدمات والاتصالات :

يَضمّ الجيش عناصر بشريّة ، ليس لها في الأحوال العاديّة علاقة بالحرب ، ومنهم القائمون على رعاية دوابّ النّقل ، ومن أهمهم :

١ ـ السّاسة ، وهم الذّين يهتمّون بالخيل

٢ ـ الجمّالون ، القائمون على شؤون الجِمال

---

(١) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ٩ .

(٢) المصدر السابق ٢ : ٢ .

(٣) المختار من ديوان أيدَمُر المحيوي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة (١٩٣١) ص ٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣ ـ الخربنديّة ، الذّين توكل إليهم أمور البغال

٤ ـ غلمان الحرب ، ويقومون بخدمات متنوّعة

وقد يجُمعون تحت مصطلح واحد وهو «الاصطبلية» (١) وربّما كان موقف غلمان العسكر مختلفاً ، فبعضهم يقوم بالخدمات الضروريّة ، وبعضهم يشارك في الحرب إذا احتيج إليه ، وإلى هذا الفريق الثاني يشير العماد الأصفهاني بقوله (٢) : «ليكون غلمان العسكر للحرب مباشرين ، فانتدب إلى الحرب منهم كُلّ مجتريء للوقائع مجترع» .

ويدلّ سياق هذا النصّ على أنّ العمل الأصلي لهؤلاء الغلمان هو تلبية ما تتطلّبه المواقف المختلفة من خدمات ، ولكن في بعض الحالات يُنقل هؤلاء الغلمانُ مع الثّقل إلى المخيّم ، ليكونوا قادرين على المشاركة في الحرب دون إبطاء .

وهناك عناصر أخرى ذاتُ دَور لا يُستغنى عنه في الحرب ، ومن هؤلاء : النّجاب ، والعَوّام ، والجاسوس والمخبر ، فالنّجاب مراسلٌ بَريٌّ يأتي بالرّسائل من إحدى المدن إلى مركز القيادة ، يقول العماد (٣) : « وَرَد نَجّابٌ من حلب بعد خمسة أيّام بكتاب يتضمّن نُجح كُلّ مرام ، ويخبر أنّ عسكراً جَرّاراً من الكُفّار خَرجَ للغارة من الأطراف والأقطار ، فخرج عليه العسكر وأخذ عليه الطّريق ، وطَلَبَ ذلك الجمعُ في الهزيمة المضيق . . . » .

وأمّا العَوّام فهو مراسل بحري ينقل الرّسائل من المدن السّاحليّة وإليها ويحمل المَال اللاّزم للمحاصَرين من أجل استقواء نفوسهم وعدم تخاذلهم ، ويقول العماد في فئة العَوّامين (٤) : «حَتّى صاروا يحملون نفقات الأجناد على أوساطهم ، ويخاطرون بأنفسهم مع احتياطهم ويحملون كتُباً وطيوراً ، ويعودون بكتب وطيور . . .» وكان العوّام يحمل أيضاً خَبرَ من يُقيم بالدّاخل تحت الحصار إلى إخوانهم في الخارج . ليكونوا على بيّنة من أحوالهم الدّفاعيّة ، ومستوى صلابتهم النفسيّة ويُعَدّ عيسى العوّام نموذجاً لهذه الفئة من الناس ، فقد كان يدخل إلى عَكّا بالكتب والنفقات على وسطه ، ويغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدوّ ، وذات ليلة شدّ على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألفُ دينار نفقةً للمجاهدين وكُتبٌ للعسكر ، وعامَ وتأخّر وصولُه ، وبَعد أيّام قذفه البحر ميتاً (٥) .

---

(١) النوادر السلطانية : ١١١ ، ٢١٤ ، ٢١٥ .

(٢) الفيح القُسّي : ٣٦٨ وانظر النوادر السلطانية : ١١١ .

(٣) الفيح القُسّي : ٤١٢ .

(٤) الفيح القُسّي : ٣٦٠ .

(٥) النوادر السلطانية : ١٣٥ - ١٣٦ والفيح القُسّي : ٤٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأحياناً كان العوّام يتجاوز عمل المراسلة إلى تحقيق غايات أخرى ، ففي حرب المنصورة كان بعض العَوّامين يبتدعون الحيَل لخطف الفرنجة وقتلهم (١) .

وأما الجاسوس والمخبر فقد يجتمعان في شخص واحد ، ولكنّ الجاسوس يعمل لقاء أجرٍ معلوم ، ويكون المخبر من المستأمنين أحياناً ، أي من الذين حصلوا على الأمان من المسلمين (٢) . فهم يقدّمون لهم بعض الخدمات ، مناصَحَةً .

وقد كان نظام الجاسوسيّة لدى الفريقين من أهمّ ما يؤسّسون عليه خططهم الحربيّة ، ويُعدّلون فيها بحسب الأخبار المنقولة ، يقول ابن شَدّاد (٣) : « وصل في أثناء النهار جاسوسٌ أخبر أنّهم اختلفوا ، فذهب الفرنسيسيّة إلى أنّهم لا بُدّ لهم من محاصرة القدس ، وذهب الانكتار وأتباعُه إلى أنه لا يخاطر بدين النصرانية » .

ويذكر القاضي الفاضل في كتاب أنشأه ليرسل إلى ديوان الخلافة كيف أنّ المخبرين تحققوا من التآمر بين المواصلة (أهل الموصل) والفرنجة (٤) . كما يشرح في كتاب آخر قصّة المتآمرين مع الفرنجة لإعادة الدولة الفاطميّة ، ويبيّن أنّ رسول ملك الفرنجة ، إنما كان رسولاً في الظّاهر ، وعيناً في حقيقة أمره ، ولذلك قابلوه بالتغافل (٥) : « فتوصّل مرّة بالخروج ليلاً ، ومرّة بالركوب إلى الكنيسة وغيرها نهاراً إلى الاجتماع بحاشية القصر وخدّامه ، وبأمراء المصريّين وأسبابهم ، وجماعةٍ من النّصارى واليهود وكلابهم وكتّابهم » ويضيف القاضي الفاضل بأنه دُسّ إليهم من طائفتهم مَن داخلهم ونَقَل أخبارهم .

وأحياناً كان التعاون ضماناً لحفظ المصالح وبخاصّة في المستويات العليا ؛ فقد كانت زوجة صاحب أنطاكية وتعرف بدام سبيل توالي السلطان وتناصحه ، وتطلعه على أخبار أعدائه ، والسلطان يكرمها ويوالي لها الهدايا (٦) .

وكان هناك عناصر أخرى بشريّة تشارك في الحرب بتفاوت فيما بينها فالحجّارون كانوا يقطعون الحجارة للمنجنيقات ، ثم تقف مشاركتهم عند هذا الحدّ ، والنجارون كذلك ، فأمّا النقّابون والزرّاقون والنفّاطون ، فكان دورهم في الحرب أساسياً ، ولذلك يجيء الحديث عنهم عند الحديث عن فنون الحصار.

---

(١) الخطط المقريزية ١ : ٢٢١ .
(٢) الفيح النُسّي : ٤١٣ .
(٣) النوادر السلطانية : ٢١٢ ، ٢١٧ .
(٤) كتاب الروضتين ٢ : ٣١ .
(٥) المصدر السابق ١ : ٢٢١ .
(٦) المصدر نفسه ٢ : ١٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(ب) الحمام الهوادي :

أوّل من اتخّذه نور الدين حين اتّسعت مملكته ، ونجد إشارة إلى (سنة ٥٥٢ / ١١٥٧) حين سقطت الأطيارُ بالكتب من المعسكر النّوري تتضمّن الإعلامَ بأنّ الملك العادل نور الدّين نهضَ في عسكره من الأتراك والعرب نحو الملاّحة بين طبريّة وبانياس (١) . وقد عَمَّم استعماله في معظم الأقاليم ، وأجرى الجِراياتِ للحَمام ولمن يُربّيها وهم الزجّالون ، وكان له في كل ثغر رجال برسم جمع الأخبار ، فيكتبون ما يجمعونه ويعلّقونه على الحمائم ، وتمضي به هذه إلى البلاد التي نشأت فيها .

وحين قرّر نور الدين ذلك طَلَب من العماد الأصفهاني انشاء منشور يُوزّع على جميع مُرَبيّ الحمام ، يقول فيه (٢) : « هي براندُ الأنباء المخصوصاتُ بفضيلة الإلهام والإيحاء ، وهي فُيوجُ الرّسائل المأمونةُ الإبطاء ، والسّابقاتُ الهوجُ في الاهتداء ، والحاملاتُ مُلطّفاتِ الأسرار في أقرب مُدّة إلى أبعد غاية ، والموصلاتُ مهمّات الأخبار في وقتها من أقاصي الأمصار بأكمل هداية ، والقاطعاتُ في ساعتها إلى البلاد أجوازَ القفار والموامي ، والنّافذاتُ بنُجح المرام بِعَود السِّهام إلى المرامي ، وهي تَطوي الفراسخَ البعيدة والأشواط في ساعة ، وتَنتهي إلى أقصى عنايات الطّاعة بأتّم استطاعة ، وقد عمّ بها نفعُ المرابطين والغزاة والمجاهدين في سبيل اللّه ، في إهداء أخبار الكفرة إليهم من أماكنها دالّةً على مكايدها ومكامنها ، طائرةً بكتبهم إلى مَن وراءهم من الطّلائع والسّرايا ، مُظهرةً لهم من أحوالها خَبايا الأمور الخَفايا . . . » ، ويقول العماد في موضع آخر (٣) : « ويكتبون إلينا على أجنحة الحمام بالترجمة المصطَلح عليها سِرَّ الأمور » والترجمة المصطلح عليها هي بلغة هذا العصر «الشّيفرة» .

(جـ) دوابّ الحمل وأدواته:

كانت الجمال والبغال (وربما أضيف إليها الأكاديش) دوابّ لنقل الامتعة والأسلحة والمؤن ، ولم تكن في هذا العصر ، ذات دور في المعارك الحربيّة . ولكن بما أنّ عملها كان مقصوراً على البَرّ ، كان لابُدّ من تيسير المواصلات لنقل الجنود والمؤن والأسلحة وغيرها بحراً ومن أجل هذه الغاية استعملت أنواع من سفن النقل البحري ، ومن أهمّها :

. ١ ـ البُطسة :

حين كان الفرنج يحاصرون عكّا بسفنهم (٥٨٦/ ١١٩٠) اشتدّت حاجة المحصورين فيها إلى المؤن،

---

(١) كتاب الرّوضتين ١ : ١٠٨ .

(٢) المصدر السابق ١ : ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٣) النبح القُسّي : ٣٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأُعدّت في بيروت بُطسة شُحِنت بالميرة ، وسُيّرت في البحر تحت ستار من التضليل حتّى دخلت عكّا ، وكان لوصولها أثر طيّب في نفوس أهل المدينة إذ أحيت فيهم الأمل بعد أن كانت مؤنهم قد نفدت (١) .

وبعد فترة قصيرة وصلت من مصر ثلاث بُطس مشحونة بالأقوات والأدام ، ومع أنّ العدوّ كشف أمرها وسَلّط أسطوله عليها لقتالها ، فإنها استطاعت أن تنجو وتدخل إلى المدينة ، وتساهمَ في حلّ ضائقة التموين (٢) .

إنّ البطسة لم تكن سفينة نقل وحسب ، بل كان يمكن تحويلها إلى سفينة حربية ، وهذا ما صنعه الفرنج ليمنعوا دخول المؤن إلى المحصورين، ولكنّ تدبيرهم انقلب عليهم (٣) ، وأعدّوا بطستين لأخذ برج الذبّان، فحرقهما المسلمون (٤) ، ثم استولوا على بطستين للعدوّ فيهما رجال وصبيان وميرة وغنم كثير (٥) ، وكان الاعتماد على البُطس في تزويد المحصورين هي الطريقةَ الوحيدة للحيلولة دون استسلامهم ، ولهذا جُهّزت بطسة جديدة من بيروت (٥٨٧ / ١١٩١) وكانت مليئة بالآلات والأسلحة والمير والرجال المقاتلة (وعددهم ٦٥٠ رجلاً) ، ولكنّ شواني العدوّ احتجزتها ، فهدمها أصحابها بالمعاول ثم غرّقوها لئلاّ يسيطر العدوّ عليها (٦) .

٢ ـ المراكب الحمّالة :

نوع من السفن المخصصة لنقل مؤن الجيش وأزواده ، ورجالِ الخدمات ، وقد أقترن استعمالها بمجيء ملك الالمان إلى عكّا (٧) .

٣ ـ البراكيس (مفردها بركوس) :

وهو مركب صغير يحمل نفقة ورجالاً ، ولكنه قد يستعمل أيضاً للغزو (٨) ، وقد كان لدى المسلمين من هذا النوع من السفن ، ولم يكن وقفاً على الفرنج .

* * *

(١) النوادر السلطانية : ١٣٥ والفيح القسي : ٤١٧ - ٤١٨ .
(٢) النوادر السلطانية : ١٣٨ والفيح القسي : ٤١٩ - ٤٢٠ .
(٣) النوادر السلطانية : ١٣٩ .
(٤) المصدر السابق : ١٤٣ والفيح القُسّي : ٤٢٧ .
(٥) النوادر السلطانية : ١٤٣ .
(٦) المصدر السابق : ١٦١ .
(٧) المصدر نفسه : ١٤٠ .
(٨) المصدر نفسه : ١٤٣ والفيح القُسّي : ٤٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

الخطط الحربيّة وأنواع المعارك عند المسلمين والصليبيين

١ ـ تأمّلات عامّة في طبيعة الموضوع :

حين يصف أسامةُ بن منقذ الفرنج بأنّ فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير (١) ، فهو يقول لنا إنّ المسلمين واجهوا أناساً صنعتهم الحرب، وهم يريدون أن يصلوا عن طريقها وحدها إلى ما اعتقدوا أنّه غاية نبيلة، وإذ يضيف أسامة في وصفهم : أنّهم أكثر الناس احترازاً في الحرب (٢) ، فمعنى ذلك أنّ طبيعة الحذر والاحتراز فيهم قد حدّدت لخصومهم نوع الحرب التي يمكن خوضها ، ويذكر أسامة أيضاً أنّه شهد من الحروب مع المسلمين والصليبيين مالا يحصيه عدداً (٣) ، فاذا عرفنا أنّ الحرب امتدّت على مدى قرنين من الزّمان ، أدركنا تراكم عجز الاحصاء عن الإحاطة بتلك الحروب ، وأنّ دراسة الخطط الحربيّة وأنواع المعارك التي تمت في تلك الفترة لا يمكن اخضاعها لدراسة شموليّة ، بل لابُدّ من الوقوف فيها عند أمثلة بارزة محدودة جداً .

وإذ يكون الأمر كذلك فلابُدّ من العزوف عن الدّخول في أمور تُعَدّ أوّليّات في تاريخ الحروب ، كتعدّد أنواع المكايد والحيل وضروب الخداع ، والاعتماد على الجواسيس ، وإثارة الشكّ بأساليب مختلفة حول أمانتهم ، واتخاذ الليل حاجزاً بين الفريقين المتقاتلين ، ومع أنّ البياتَ داخلٌ في خطط الحروب ، فإنّه لا يُمثّل عاملاً بارزاً في الحروب الصليبيّة ، ومن ذلك حرصُ كلّ من الفريقين على اختيار المكان الملائم للمعركة إذا استطاع ذلك ، ومن شروط الملاءمة أن يكون الماء متوافراً فيه ، وأن تكون طبيعة الارض ملائمةً لحركة الخيل والناس ؛ وبثُّ المعوّقات في طريق العدوّ كحرق الحشائش والغابات ، وقد استعمل المسلمون هذه الأساليب في بعض حروبهم (٤) ، ولجأوا إلى الرّبط بين أنواع الحروب المختلفة في آنٍ معاً ، فجمعوا بين حرب السّلاح والحرب النفسيّة والحرب الاقتصادية ، وإحكام وسائل الدفاع قبل اللجوء إلى الهجوم ، وغير ذلك من أمور .

---

(١) الاعتبار : ١٣٢ .

(٢) المصدر السابق : ١٧ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٦ .

(٤) تجد مثال ذلك ما فعله نور الدين عند بصرى (٥٤١ هـ) (مرآة الزمان) ٨ : ٢٥٠ وكذلك فعل صلاح الدين في حطّين.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في حرب متطاولة كهذه ، متى يمكن أن نقول إنّ ريح الحرب قد أخذت تهبّ في مصلحة هذا الفريق دون ذاك ؟ المقياس هنا هو لحظات التحوّل ، وقد تجيء لحظات التحوّل لعدّة أمور ، كالتغيير الأساسي في كفاية الأسلحة ، وكإيجاد تحالفاتٍ تُقوّي فريقاً على الآخر ، وتعرّض أحد الفريقين دون الآخر لفتك الأوبئة وغيرها من الكوارث ، ولكنّ أهمّ عامل في التحوّل هو انتقالُ التحكّم في توجيه الحرب من يد فريق إلى يد الفريق الآخر ، لقد جاء الفرنجة إلى المشرق ، وهم يملكون زمام الحرب ويستطيعون فرضها أو ارجاءها ، ثُمّ أخذ الزمام ينتقل إلى يد المسلمين تدريجياً ، وبلغ ذُروته في العصر الصّلاحي ، ولم يَنقض إلاّ سنواتٌ حتّى عاد الميزان يتحوّل إلى صالح الفرنجة وهكذا .

إنّنا منذ البداية يجب أن نحذر النظر إلى الحروب الصليبيّة نظرة ثبوتيّة ، فإن المُدّة التي استغرقتها الحرب كافية لإحداث تغييرات كثيرة في بنية الجيش الصليبي المحارب ، وفي طبيعة أهداف الحرب ، معلنةً كانت أو خفيّة ؛ بعد فترة غير طويلة من الزمن احتاج هذا الجيش إلى إدخال عنصر المرتزقة في بنائه ، وتوفير مصادرِ دَخل تفي بأولئك المرتزقة ، ثم ازداد الاعتماد عليهم في مقبل الأيّام (١) ، وفي الوقت نفسه نرى الجيش الاسلاميّ في عصر صلاح الدّين يضمّ فرقة من اللصوص غايتها أن تنكي في العدوّ ، وتبلغَ جهدها في إحراجه وإحباطه ، يُقابل ذلك أنّ الصليبيين يتعاونون مع من يسميهم ابن شدّاد «العرب المفسودين» (٢) ، وكلّ فريق يرى أنّه من حقّه أن يستقوي بعناصر جديدة ، إن صحّ له ذلك .

٢ ـ مقدّمات المعركة :

كُلُّ خُطّة إنّما تكون في خدمة معركة من أجل البلوغ بها إلى نهاية ناجحة ، وإن كان كثير من المعارك لا يمكن أن تحدّد طبيعة النهاية التي وصلتها على نحو حاسم ، الاعدادُ الكثير يسبق كلَّ شيء ، ويحسب حساب كلّ شيء ، ويجري العرض واختيار المصافّ ، والتأكدّ من صلاحيّة كُلّ ما يتصّل ببيئة المعركة وبالعناصر البشريّة التي ستخوضها ، ولكلّ أُناس عاداتهُم في بدء الخطوات الأولى رُبّما لم يوجد ما يماثلها عند أعدائهم ، وكانت علامة النّفير عند المسلمين - كما أشرت من قبل - أن تضرب الكوسات وتنعرَ البوقات (٣) . ولولا أنّ رئيس الدوايّة تذمّر من مماطلة ريكاردوس في افتتاح المعركة عند أرسوف ، لما عرفنا أنّ ريكاردوس كان قد قدّر ستّ نفخات (او نعرات) في البوق ليكون ذلك علامة البداية ، وتُصاحب أصواتَ الكوس والبوقات عند المسلمين أصواتٌ من التّهليل والتّكبير ، فتزعج الخيل وقد

---

(١) Smail , pp. 93 , 94 .

(٢) النوادر السلطانية : ٢١٣ .

(٣) المصدر السابق : ١١٩ ، ١٤٩ ، ١٨٠ ، ٢٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تشجّعها على النّفور إن لم يكن على الفرار ، ويكون ضرب الكوس مشفوعاً ببعض العبارات التي يُراد منها شَحذُ الهمم واستثارة النفوس (وقد بيّنت ذلك آنفاً) .

بعد التعبئة العامة (وهي مشتركة بين الجيشين) في ميمنة وميسرة وقلب (١) ، تميّز في الجيش الاسلامي فئتان وهما : اليزك والجاليشيّة . أمّا الفئة الأولى فَدورُها أكثر من دور طلائع ، فهي الرَّقيب السّاهر على سلامة الجيش ، وأمّا الجاليشيّة فهم الكماةُ رماة السّهام (٢) ، وهم أوّل ما يبدأون ويسُدّون الأفق بزخّات متوالية من السّهام ، ويضيّقون أنفاس العدوّ ، والجيش الاسلامي وقائده يعرفون تماماً أنّ الفرنج إذا نزلوا صَعُب نزالُهم وأتعب قتالهم ، وإذا ثبتوا تعذّر حصدهم (٣) ، كما يعرفون أنّ ألف فارس من المسلمين لا تصبر لحملة ثلاثمائة فارس من الفرنج (٤) .

إذا كانت الجولة الكبرى التي يليها مباشرة تحرُّكُ الخيّالة من الفريقين هي السّهام المتوالية كالمطر ، فهل للمبارزة مجال في هذا النوع من المعارك ؟

يتحدث العماد عن إياز الطّويل أحد أبطال صلاح الدين ، أنّه كان كلَّ يومٍ في الحصار على عكّا يُصبح شاكيَ السّلاح ويقف بين الصفّين ويدعو إلى المبارزة (٥) ، ولا ريب أنّ العماد يصف ما رآه ، وعلى هذا كانت هناك جولات من المبارزة ، ولكن يبدو أنّ هذا التفوّق الفردي لم يكن يقرّر شيئاً عمليّاً في سياق المعركة أكثرَ من الاعجاب بالمهارة المتميّزة .

بقي أن أقف عند حقيقتين متكاملتين هنا وهما : توزيع مكافآت ماليّة على الجند الاسلامي والحربُ دائرة : « ثم أخرج المال وصبّه من أكياسه وفرّقه على ناسه ، وأنفقه في أهل باسه . . . وملأ الأيدي بالغنى » (٦) ، تُرى أيّ تأثير لهذه البادرة في نفسيّاتهم حين يتأخّر عليهم ما عُوّدوه ؟

والثانية أنّه على الرّغم من هذا السّخاء لتشجيع العسكر كانت الغنائم عنصراً مهماً في حَثّهم على المثابرة ، حتّى إنّ صلاح الدين لمّا فوّت عليهم الغنيمة بسبب الصُلح يوم فتح يافا ، تقاعسوا عن الحرب بعد ذلك ، وواجهوا السلطانَ بالكلام الجافي (٧) ، وبعد فتح القدس تفرّقت العساكر بالسّاحل ولم تجتمع حول القائد الأعلى إلاّ بعد أن حقّقت رغبتها من النّهب والغارة (٨) ، ويبدو أنّ الغنيمة كانت مُغرية وأنها

(١) النوادر السلطانية : ١٠٩ .
(٢) الفيح القُسيّ : ٧٨ ، ٤٤٣ .
(٣) المصدر السابق : ٢٩٧ .
(٤) كتاب الرّوضتين ١ : ١٨٦ .
(٥) الفيح القُسيّ : ٤٤٤ - ٤٤٥ .
(٦) المصدر السابق : ١٦٩ .
(٧) النوادر السلطانية : ٢٢٩ .
(٨) المصدر السابق : ٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رُبّما كانت تتفوّق على العطاء ، فكيف إذا أُضيفت إليه ، لقد كانت الغنيمة تتألّف من الخيول وعُدد السّلاح والكُراع والأموال والقراطيس والأسرى ورؤوس القتلى ، وَكُلّها كانت كثيرة (١) . دَعنا نضع هذه الحقائق أمام قول أحد السرّجندية على الجانب الصّليبي (٢) : « أنا سرجندي ، وديواني كلّ شهر ديناران » والسرجندي أعلى منزلة من التركبولي ، فكيف كان هذا يُدبّر أمور معيشته ؟!

٣ ـ أساليب في التخطيط الحربي لدى المسلمين والصليبيين :

أ ـ التنكّر لتسهيل الدخول في صفوف الأعداء :

أورد مثالين متفاوتين على استغلال هذه الخدعة ، أوّلهما ما حدث سنة (٥٥٠ / ١١٥٥) حين ولي قيادة الأسطول المصري مُقدّم من البحرية بصير بأشغال البحر ، فأختار جماعة من البَحّارة يتكلّمون بلسان الفرنج ، وألبسَهم لباسَ الفرنج ، هَيأ عدّة مراكب ، وأقلعوا فيها لكشف أحوال المسالك والمكامن الخاصّة بمراكب الرّوم ، فتوجّه إلى صور ، إذ ذُكر له أنّ في مينائها شختورةً روميّة كبيرة ، فيها رجال كثيرون ومالٌ وافر ، فاستولى عليها ، واستصفى ما يصلح من أموال ، ثُمّ خرقها وعاد ، وفي عودته ظفر بمراكب تُقلُّ حجّاجاً من الفرنجة ، فتعرّض لهم ، وأخذ منهم أسرى (٣) .

أمّا الحادثة الثانية فكانت محاولة للتخلّص من الضيق الشديد الذي كان يُعاني منه المحاصرَون في عَكّا أيّام صلاح الدّين (٥٨٦/ ١١٩٠) إذ كانت مراكب الفرنج تحيط بالمدينة وتمنع الاقتراب منها ، وأخذت المؤن التي في أيدي الناس تنفد ، وكان لابُدّ من استعمال أيّة وسيلة لتوصيلها إليهم . فأمر السلطان بإعداد البُطسَةِ الّتي تمّ وصفها آنفاً ، وأودعها أنواع الميرة ، وصحب هذه الميرةَ جماعة من المسلمين لبسوا زيّ الفرنج وحلقوا لحاهم ، ووضعوا الخنازير على سطح البطسة إمعاناً في التنكّر والتمويه ، وعلّقوا الصلبان ، ولجأوا إلى اساليب مختلفة من التضليل للعدوّ حَتّى دخلت البطسة البلد ، وأنعشت المؤن المحمولة فيها حال المحصورين (٤) .

ب ـ الأخذ على غِرّة :

الاتكاء على عنصر المفاجأة من أكثر الوسائل شيوعاً في التخطيط الحربي ، وقد تكون هذه المفاجأة مجرّد غارة ليس لها الاّ نتائج آنيّة من سلب وأسر ، وقد تكون بعيدة الأثر واسعة النتائج إذا أُحكم

---

(١) ذيل تاريخ دمشق : ٣٣٩ .

(٢) الاعتبار : ٧٥ .

(٣) ذيل تاريخ دمشق : ٣٣٢ .

(٤) النوادر السلطانية : ١٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التخطيط لما يترتب عليها ، ومن أمثلة هذا النّوع ما قام به عماد الدّين زنكي (سنة ٥٣٠ / ١١٣٦) صاحب حلب حين قصد أعمال اللاذقيّة بغتة ، ولم يتمكن أهلها من الاحتراز أو الانتقال من المدينة ، وكانت نتيجة هذه المفاجأة عدداً غيرَ قليل من القتلى والأسرى ، إذ قُدّرت الأسرى بسبعة آلاف ، والغنائم من الدوابّ مائة الف رأس ، عدا عن الأقمشة والحلّي وسواها ، وخَربت اللاذقية وما جاورها .

جـ ـ المواجهة العامدة (التّهديد والوعيد) :

للتّهديد والوعيد صورٌ مختلفة ، ومنه ما يجري من خلال الرسائل ، والغاية من ذلك كلّه التخذيلُ عن الاستمرار ، وهو جزء من الحرب النفسية ، ويجرّ في ذيوله أحياناً قسطاً غير قليل من السخرية ، ومن أمثلة ذلك أنّ الملك لويس التّاسع أرسل من أرض دمياط رسالة إلى الملك الصّالح نجم الدين أيّوب ، يتهدّد فيها المسلمين ويتوعدّهم كي يبعث الرُّعب في نفوسهم ، وقد جاء في الرّسالة (١) : « أمّا بَعد ، فَإنَّهُ لَمْ يَخْفَ عليكَ أنيّ أَمينُ الأمَّةِ العيسَوية ، كما أنّه لا يَخفى عَلَيَّ أنَّكَ أَمينُ الأمَّةِ المحمديّة ، وغير خافٍ عليك أنّ عندنا أهلَ جَزائر الأندلُس وما يحملونه إلينا من الأموال والهَدايا ، ونَحنُ نَسوقُهم سَوْقَ البَقَر ، ونَقْتُل منهم الرِّجالَ ، ونُرَمِّلُ النِّساء ، ونَستَأسِرُ البنات والصّبيان ، ونُخلي منهم الدّيار ، وَأنا قَد أَبْدَيْتُ لَكَ ما فيه الكفاية ، وَبَذَلْتُ لَكَ النُّصحَ إلى النِّهاية ، فَلَوْ حَلفْتَ لي بِكُلِّ الأيْمان ، وَأَدْخَلْت عَلَيَّ الأقْساء والرُّهبان ، وحَمَلْتَ قُدّامي الشّمْع طاعَة لِلصُّلْبان ، لَكُنْتُ واصِلاً إليكَ وقاتِلَك في أعَزّ البقاع إليكَ ، فإمّا أن تكونَ البلادُ لي هَديَّةً حَصَلَتْ في يَدَيّ ، وإمّا أن تكونَ البلادُ لَكَ والغَلَبَةُ عَلَيَّ ، فَيَدُكَ العُليا ممتَدّةٌ إلَيّ ، وقد عَرّفْتُكَ وحَذّرْتُكَ من عساكِرَ حَضَرَت في طاعَتي ، تملأُ السَّهلَ والجبلَ وعَدَدُهم كَعَدَدْ الحصَى ، وهم مُرسَلون إليكَ بأسياف القضاء » (٢) .

فكتب القاضي بهاء الدّين زهير بن مُحَمّد ★ كتاباً باسم الملك الصالح رداً على الرّسالة السّابقة جاء فيه (٣) : « وَصَلَ كتابُكَ ، وأنتَ تَهْدَدُ فيه بكثرة جيوشك وعَدد أبطالك ، فَنَحْنُ أربابُ السّيوف وما قُتِلَ منّا فَرْدٌ إلاّ جَدّدْناه ، ولا بَغى عَلَيْنا باغٍ إلاّ دَمّرْناه ، وَلَو رَأت عَيْنُكَ أيّها المَغرورُ حَدَّ سُيوفنا وَعَظيمَ حُروبِنا ، وفَتْحنا منكم الحصونَ والسّواحِل ، وتخريبَنا ديار الأواخر منكم والأوائل ، لَكانَ لكَ أن تَعضّ على أنامِلك بالنّدَم ، ولابُدّ أن تَزِلّ بكَ القَدَم ، في يَومٍ أوّلُه لَنا وآخِرُهُ عَليك ، فهنالك تُسيء الظُّنون ، وسَيعلمُ الّذين ظَلَموا أيّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبون ، فإذا قَرَأْتَ كتابي هذا فَتكون فيه عَلى أوّل سورة النّحل :

---

(١) ابن الاثير (عز الدين) الكامل في التاريخ ، دار صادر ودار بيروت (١٩٦٦) ١١ : ٤٠ .

(٢) الخطط المقريزية ١ : ٢١٩ .

(٣) الخطط المقريزية ١ : ٢١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

﴿ أَتَى أَمْرُ اللّه فلا تَستَعجِلوه ﴾ (١) وتكون على آخر سورة (ص) : ﴿ ولتعلَمُنّ نَبَأَهُ بَعْدَ حين ﴾ (٢) ، وَنَعودُ إلى قَولِ اللّه تعالى ، وهو أَصدَقُ القائلين : ﴿ كَمْ مِن فِئةٍ قَليلَةٍ غَلَبَتْ فِئةً كثيرةً بإذن اللّه ، واللّه مع الصابرين ﴾ (٣) ، وقول الحكماء : « إنّ الباغي لَهُ مَصْرَع وَبَغيك يَصْرَعُك ، وإلى البَلاء يَقلِبُك ، والسَّلام » .

د ـ التّضليل بتغيير الهدف :

أورد هنا ثلاثة أمثلة على هذا النوع من التكتيك ، أوّلها حين جمع الفرنج جموعهم سنة (٥٢٨ / ١١٣٤) وشرعوا في تخريب أمّهات الضياع الحورانيّة ، فتصدّى لهم شمس الملوك ابن بوري في جموع من التركمان ، ووقع بين الفريقين مناوشات ، وبينما الأمور جارية على هذا المنوال غافلهم شمس الملوك ، وهاجم بلادهم : عكّا والناصرة وطبريّة ، وظفر بكثير من الغنائم والسّبي ، وابتهج جنده من التركمان لكثرة ما وقع في أيديهم من غنائم ، وعندما وصلت الأخبار إلى الفرنج فزعوا ولم يكن لهم هَمٌ سوى العودة للاطمئنان على أعمالهم ، فلمّا شاهدوا ما حَلّ بها انكسرت نفوسهم ، وعادوا إلى طلب الصُّلح (٤) .

والمثل النموذجي الثاني على هذا النّوع من المكيدة هو استيلاء عماد الدّين زنكي على الرُّها (٥٣٩ / ١١٤٥) وقد تصديت له من قبل ، وخلاصتُه أنّ جوسلينَ صاحبَ الرُّها كان شديد اليقظة في حراسة المدينة والتربّص بمن قد تُحدّثه نفسه بالاقتراب منها ، وأنّ عماد الدين إذا هاجمها استطاع جوسلين أن يجمع ضدّه من الجيوش الفرنجية مالا قِبَل له به ، لهذا تظاهر عماد الدّين بأنّ الرُّها ليست من أَربه ، ووجّه همّه إلى دياربكر ، فلمّا اطمأنّ جوسلين إلى انشغال عماد الدين بغير الرُّها قصد البلاد الشاميّة التابعة له لتفقدّها ، وتفقّد ذخائره وأمواله ، وكان عماد الدّين قد سلّط الجواسيس على خطوات خصمه ، فأعلموه بابتعاد جوسلين عن الرُّها وانشغالِه بأمور أخرى ، فلم يُضيع فرصته لتحويل عساكره إلى حصارها ، وجعلَ السُّرعة وسيلتَه لتحقيق مأربه حتى استطاع أن يحقّقَه ، وأُسقط في يد جوسلين (٥) .

وقد استعمل نور الدّين خطّة أبيه هذه في حال بانياس ، وذلك أنّه بعد ان أخذ حارم سنة (٥٥٩ / ١١٦٤) أذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعودة إلى بلادهم ، وأظهر أنّه يريد طبريّة ، وبذلك شُغل الفرنج بالحفاظ عليها ، وبدلاً من أن يقصد طبريّة توجّه إلى بانياس ، وهو يعلم أنّ حاميتَها قليلةُ العدد ، وشدّد

---

(١) النحل : آية (١) .
(٢) ص : آية (٨٨) .
(٣) البقرة : آية (٢٤٩) .
(٤) ذيل تاريخ دمشق : ٢٤٢ - ٢٤٣ .
(٥) الباهر : ٦٦ - ٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحصار على بانياس حتى استسلمت قبل أن يستطيع الفرنج التجمّع والاستعدادَ لإنقاذها (١) .

هـ ـ الايهام بالهزيمة أو التراجع الصوري :

في سنة ٥٥٩ / ١١٦٤ توجّه نور الدّين نحو حارم فحاصرها ، فخفّ لنجدتها جموعٌ من الفرنجة الموجودين بالسّاحل بقودهم البرنس بيمند صاحبُ أنطاكية ، ومعه القومس صاحب طرابلس ، وابنُ جوسلين فلمّا اقتربوا من حارم انسحب عنها نور الدّين وتوجّه إلى أرتاح وهو مُؤمّلٌ أن يتبعوه فيصدمهم وهم بعيدون عن بلادهم ، ولكن هذه الخطّة لم تنجح ، إذ أدرك الصليبيون أنهّم لا قبل لهم به فعادوا الى حارم .

فرجع إليهم نور الدّين وهو على تعبئة الحرب ، فبدأ الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين ، فلم تثبت الميمنة أمام هذه الصّدمة ، وانهزمت ، فتبعهم الفرنجة ، وعندئذ عطف أمير الجيوش على رَجّالة الفرنج وأمعن فيهم قتلاً وأسراً ، فعاد الخيالة الفرنج ، فعاد المسلمون الذين انهزموا صورياً في آثارهم ، وأحيط بجنود الفرنج ، وأحدق المسلمون بهم من كل جانب ، وتّمت الهزيمة على الفرنج ، وكان قوّادُهم في الأسرى (٢) .

و ـ العمل على جبهتين :

ركّز الصليبيون جهدهم على دمياط (٥٦٥ / ١١٧٠) واستنفروا الأمداد من أجل انتزاعها ، ليكون الاستيلاء عليها مفتاحاً للسيطرة على مصر ، وكان صلاح الدين هو حاكمَ مصر حينئذ ، فاستنجد بنور الدين لعلّه يُقوّي دمياط بالسلاح والذخائر والأموال ، وكان يخاف إن هو تأخّر عن انجادها أن يأخذها الفرنج ، وإن ذهب (أي صلاح الدين) بنفسه إليها انتهز المصريون غيابه فيصبح محصوراً بين فرنجٍ أمامه ومصريّين وراءَه . لكنّ نور الدّين لم يتوان عن إرسال الأمدادِ متتابعةً إلى دمياط ، وفتحَ جبهة ثانية ضد الفرنج في البلاد الشاميّة وواصل عليها الغارات ، فضعفت عزيمة الفرنج وغادروا دمياط بعد حصار دام خمسين يوماً (٣) .

ز ـ الكمين :

ليس اللجوء إلى الإفادة من الكمين في الحروب ممّا يلفت النّظر لأنّه أمر عاديّ ، غير أنّ كثرة استخدامه في الحروب الصليبيّة ، وبخاصّة في الجانب الإسلامي ، هي التي تلفت النظر حَقّاً . ولعلّ

---

(١) الكامل في التاريخ : ١١ : ٣٠٤ .

(٢) المصدر السابق ١١ : ٣٠١ - ٣٠٣ .

(٣) المصدر نفسه ١١ : ٣٥١ - ٣٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نجاح الكمائن بسبب جهل الصليبيين بطبيعة الارض وجغرافيتها هو الذي شجّع أولي الأمر على الاكثار منها ، ولكن حَتّى بعد سنوات من تحسّن معرفة الصليبيين بهذه الناحية ، ظلّ الكمين كثير التكرار في الخطط الحربية . والكمائن متشابهة ، لهذا فإنّ قصارى الجهد أن أورد بضعة أمثلة عليها .

يذكر فوشيه الشارتري كيف هيأ الأتراك جموعهم بقيادة مودود ليهاجموا بلدوين الأوّل (بغدوين) عند منابع نهر الأردنّ (حوالي ٥٠٥ / ١١١١) وجاء بلدوين فأقام معسكره قرب جسر يُفضي إلى طبريّة ، فشاهد نحو خمسمائة من الأتراك ينقضّون من مكمن لهم ليهاجموا الصليبيين ، ولّما رآهم الصليبيّون قليلي العدد هاجموهم بشدّة ، فتراجع الأتراكُ والصليبيون في إثرهم ، وهنا اندفع ألفان من الأتراك من مخابىء ، وأمعنوا في الصليبيين قتلاً ، وَفَرّ بلدوين وقد فقد رايته وخيمته الفاخرة وكثيراً من المفروشات والأوعية الفضيّة ، وكان عدد القتلى من الفرسان حوالي ثلاثين ، ومن الرَّجّالة حوالي ألف ومائتين (١) .

ويذكر ابن شدّاد وقعة يسمّيها وقعة الكمين (٥٨٦ / ١١٩٠) إذ رَتّب صلاح الدين وضع كمين من كماة عسكره وشجعانه ، انتخبهم من بين ناس كثيرين ، وأمرهم أن يكمنوا في سفح تلّ شمالي عكّا بعيداً عن عسكر الصليبيّين ، وأن يظهر للعدوّ من الكمين نفرٌ قليل ، ويقصدوه إلى خِيَمه ويستثيروه بالرّمي بالنشّاب ، وينهزموا بين يديه نحو الكمين ففعلوا ذلك ، فخرج في أثرهم نحو مائتي فارس (ليس معهم راجل) على خيل جياد وعدّة تامّة وأسلحة كاملة ، فلّما بلغوا الكمين ، خرج رجاله وصدموا المهاجمين بشدّة ، ففرّوا وقُتل منهم عدد وأُسر عدد ، ومَثُل الأسرى في مجلس صلاح الدين فأنعم على كلّ واحد منهم بفروة لأنّ الجوّ كان بارداً ، وقدّم لهم الطعام ثمّ حُملوا إلى دمشق (٢) .

وفي السنة التالية أمر السّلطان أخاه العادل ومعه عدد كبير من العساكر الإسلامية بأن يكمن للعدوّ وراء التلّ الذي حدث عنده الكمين السّابق ، وسار السّلطان في جمع من أهله وأصحابه وكمن وراء تلّ العيّاضيّة ، وحدثت مناوشات ، ولكن لم يجَر الأمر كما ظنّ السلطان ، بل خُيّل إليه أنّ خبر الكمين كان قد وصل إلى أسماع العدوّ ، فعكف عن المضيّ في خطّته إلى النهاية (٣) .

وفي شوّال من العام نفسه رتّب صلاح الدين كميناً آخر ، فكمنت الحَلْقة للعدو في بطن واد ، وكَمن مع الحلقة جماعة من العرب ، فتراءى العرب للمناوشة ، والصليبيون يخرجون لجمع الحشيش والحَطَب ، فلّما بصر بهم العرب ثار الصّياح ، وركب جماعة من خيّالة العدو متجهّين جهة الصوت ، والعرب منهزمون بين أيديهم إلى جهة الكمين ، فخرج الكمين والتحم القتال ، إلاّ أنّ بعض خيّالة العدو

---

(١) تاريخ الحملة الى القدس : ١٥١ - ١٥٢ .

(٢) النوادر السلطانية : ١٥٠ - ١٥١ .

(٣) المصدر السابق : ١٥٥ - ١٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كانت قد تلاحقت ، فلم تقتصر المعركة على العدد الذي استُدرج أوّلاً ، واستدرك صلاح الدين الأمر خوفاً من فشل الخطّة ، فأرسل ردءاً للكمين ، فاستطاعوا دحر الصّليبيين وولّى هؤلاء نحو خيامهم (١) .

وقد أنهض الفرنج سريّةً من أبطالهم إلى ناحية بانياس (٥٥٢ / ١١٥٧) لتقويتها بالسّلاح والمال ، وعرف ذلك نَصرةُ الدّين أخو نور الدين فأسرع إليهم بعسكره ، وكان عدد الفرنج حوالي سبعمائة فارس من أبطال الاسبتارية والترجندية والداوية ، وعدد من الرَّجّالة ، وتختلف هذه الوقعة عمّا قبلها في أنّ قائد العسكر الاسلامي قد أرصد لهم كمناء في مواضع مختلفة ، ولم يكتف بكمين واحد (٢) .

ح ـ متى يترجل الخيّالة الرُّماة :

كان للعسكر التركي في الجيش الاسلامي أيام الحروب الصليبيّة ميزتان بارزتان : أولاهما خِفّة الحركة أو الحركيّة (mobility) التي تتفق وطبيعة الفرس العربي ، والأسلحة الخفيفة اللّازمة للجندي ، والثانيةُ هي طريقتهم في استعمال القوس والنشّاب ، إذ كانوا يستعملون القوسَ وهي مثبتةٌ في السَّرج دون حاجة إلى الترجّل أو التوقّف ، وكانوا يُسلّطون تلك السِّهامَ على خيول العدوّ ، وخسارةُ الخيولِ في حال الفرنجة تُعَدُّ جسيمةً لاعتمادهم في النّصر على هجمات الخيّالة (٣) .

إذا كانت ظهور الخيل هي ضمانَ النّصر ، فلِمَ ترجّل نور الدين هو وجنده (٥٥٢ / ١١٥٧) في مقابل جيش فرنجي بين طبريّة وبانياس (٤) ؟ يقول لنا أحد المؤرّخين : إنّ نور الدين والأبطال الّذين ترجّلوا معه أرهقوا الفرنجة بالسِّهام والخِرصان ، والجواب على هذا التساؤل هو ما يقوله الأستاذ سميل من أنّ الحركيّة والمهارة في الرّمي لا تكفي وحدها لإحراز النّصر ، بل لابُدّ لإحراز النصر من الالتحام والتقاتل بالرّمح والسّيف والهراوة (٥) . ولهذا ترجّل نور الدين وأبطالهُ لتكون للمعركة خاتمتُها بالالتحام واستئصال الرَّجّالةِ ـ وهم العدد الكثير ـ بالسّيوف (٦) .

---

(١) النوادر السلطانية : ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٢) ذيل تاريخ دمشق : ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٣) Smail , pp. 80 - 81 .

(٤) ذيل تاريخ دمشق : ٣٤١ .

(٥) Smail, p. 82 .

(٦) ذيل تاريخ دمشق : ٣٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤ ـ أنواع المعارك :

(أ) المعركة في أثناء الزّحف :

هذا اللّون من أصعب المعارك ، وكان الجنود الأتراك في العسكر الاسلامي يُؤثرونه لأنّ مهارتهم في خِفّة الحركة تساعد عليه ، ويَصلح إذا كان الفريق المبادرُ للهجوم يتحرّك بأسرعَ من خصمه ويستطيع تجاوزه ، وبما أنّ الفرنجة كانوا معروفين بالتحرّز والحذر ، والدخول الى المعركة ـ إذا وافقتهم ـ في نظام دقيق ، فإنهم كانوا ينزعجون في المعركة التي تدور في أثناء الزّحف وتستفزّ أعصابهم (١) .

وقد نجد نموذج هذا النوع من المعارك لدى نور الدين حين خَفّ للقاء الفرنجة (٥٤١ / ١١٤٦) بطلبٍ من مُعين الدّين أنُر لينجدَه على الصّليبيين ، هكذا يقول ابن القلانسي ، ولكنّ موقف معين الدّين لدى المؤرخين الآخرين غيرُ واضحٍ وغيرُ قَطعيّ ، ولكن إنّ ما يهمّنا المعركةُ لا طبيعةُ العلاقات .

كان الفرنج يجدّون السير نحو بصرى ، ولحقتهم عساكر نور الدين على أعقابهم ، وملكت عليهم المشرب ، وضايقتهم برمي السّهام ، وكَثر فيهم القتلى والجرحى (٢) . ورواية ابن القلانسي هذه موجزة ولابُدّ من فهمها على وَجهٍ واضح من قراءة الرِّواية كما أوردها وليم الصّوري (٣) ، وهي رواية مطوّلة كثيراً، ولا يتّسع هذا المجال لنقلها ، ولكنها تُصوِّر مختلف الصعوبات التي واجهها الجيش الصّليبي ، وتفيدُنا رواية الصّوري أنّ الجيش الصّليبي في زحفه لم يَعُدْ تراجعُه ممكناً من ناحية عمليّة ، وكان تقدّمه صعباً لكثرة الأعداء من حوله ، وحركته بطيئة لأنّه مثقل بالخوذ والدروع والمجانّ ، هذا وجيشُ نور الدّين يلاحقه بزخّات من السّهام لا تنقطع .

ويمكن أن ندرج تحت « المعارك أثناء الزّحف » معركتين تُعَدّان في نظر الفريقين المتحاربين أهمّ معركتين من حيث نتائجها ، وهما معركة حطّين ومعركة أرسوف ، وكلتاهما حاسمة ، فالأولى حطّمت المملكة اللاّتينية وجعلت بقاءها أمراً مرهوناً بتطورات الظروف اللاّحقة ، والثانيةُ أنهت دور صلاح الدّين ووضعت علامة استفهام على كلّ ما بذله من جهود مضنية في سبيل استرداد البلاد لأصحابها ذوي الحقّ فيها ، وكُلٌّ من هاتين المعركتين تمثّل « معركة في أثناء الزحف » على نحو جزئيّ ، لأنّ كلاً منها تنتهي بالالتحام الميداني .

ولأهميّة هاتين المعركتين لقيتا عناية خاصّة من المؤرّخين ومن دارسي فَنّ الحرب ، فهناك دراسات

---

(١) Smail , p. 79 .

(٢) ذيل تاريخ دمشق : ٢٨٨ - ٢٩٠ .

(٣) William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea NewYork (1976) Vol II, pp. 149 - 154

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تحليليّة عن حطّين لدى أومان وبرافر وسميل وغيرهم (١) ، ولدى أومان دراسة مفصّلة عن أرسوف ، وهذا ليس معناه أن نغفل ما كتبه المؤرخون المسلمون أمثال ابن شدّاد والعماد وابن الأثير وغيرهم ، وبما أنّ الاسهابَ غيرُ ممكن حفاظاً على التّناسب بين أجزاء الدراسة فأرجو أن يكون العرض مختصراً ، واضحاً على الرغم من اختصاره :

حطّين : (٥٨٣ / ١١٨٧)

عرف الملك كي (Guy) وهو في معسكره بصفورية أنّ صلاح الدين قد هاجم طبريّة ، وأنّ زوجة الكند ريموند قد انسحبت إلى القلعة لعدم وجود فرسان حولها ، واستصرخت الملك لمساعدتها ، فتوجّه إلى السّادة أصحاب الاقطاعات وريموند صاحب طرابلس ، واستمع إلى آرائهم ، فقدّم ريموند أسباباً وجيهة كانت كلّها تؤدّي إلى عدم خوض معركة ، وممّا قاله : إنّ الهزيمةَ في المعركةِ المرتقبة تؤدّي إلى فقدان الجيش، ومن ثمّ فقدانِ المملكة ، أي أنّ ريموند كان ضدّ انقاذ طبريّة (وإن كانت زوجته هي التي استصرخت الملك) ووافقه المجتمعون ماعدا رئيس فرسان المعبد (الهيكل) ، فقبل الملك مشورته ولكنّ رئيس فرسان المعبد لفته عن رأيه ، فأصدر أمره إلى الفرسان بالاستعداد للزحف على طبريّة .

جمع الفرنجة (١٢٠٠ فارس) ، وعدّة مئات من التركبولي و (١٨٠٠٠ من المشاة) ، وكان الفصل شديد الحرارة ، وخيّالة صلاح الدين أحرقوا القرى وغوّروا الآبار ، أمّا جيشُ صلاح الدّين فلعلّه كان يبلغ ستّين ألفاً أو يزيد .

أخفق قادة الفرنجة في انقاذ قلعة طبرية ، وكان ذلك هو الهدف الأوّل ، وتحطّم جيشهم في اليوم الأوّل نتيجةَ نقطة تحوّل ثانية في الحملة ، إذ اضطروا إلى التوقّف قبل أن يصلوا طبريّة ، وأرجأوا متابعة الزحف حتّى اليوم التّالي ، وهكذا عسكروا بلا ماء ، وهم يعانون من الانهاك والجراح والحرّ والغبار وشدّة الظمأ ، وكلّ هذه الامور حطّمت معنوّياتهم وساعدت على هزيمتهم .

وفي الوقت نفسه كان صلاح الدّين قد وضع نفسَه في مأزق ، فالبحيرةُ خلفَه ، وتراجعُه شمالاً أو جنوباً معناه تردّيه في شِعابٍ خطرة ، وكان يبدو وكأنّما يغامر بموارد الدولة كلّها من أجل كسب معركة واحدة .

وعندما نشبت المعركة في صباح اليوم التّالي حاول الفرنجة أن يحتفظوا بتعبئة صلبة متماسكة ويردوا الهجمات دون أن يعيق ذلك تقدّمَهم نَحو غايتهم ، ولكنّ عسكر صلاح الدّين تابعوا هجماتِهم والصليبيّون

---

(١) Oman, 1, pp. 324 - 333 (Tiberias = Hittin) pp. 305 - 319 .
Prawer, Crusader Institutions, pp. 484 - 500
Smail, pp. 189 - 197 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في حالة زحف ، وأمعن الرماة الخيّالة في تحطيم السّاقة بسهامهم ، وضجّ فرسان المعبد وأعلنوا عن نفاد صبرهم من تلك الهجمات ، فأمر الملك بالتوقّف عند لوبية . كان التوقّف خطأ ، لأنّه لم يُعفهم من زخّات السهام ، وهكذا أُبيدَ الجيش اللاّتيني من حيث هو قُوّةٌ مقاتلة ، ولم يَعد في البلاد رجال صالحون لتأليف جيش جديد وأخذت المدن التي كانت تحت حكم الصليبيين تستسلم واحدةً إثرَ أخرى .

أرسوف : (٥٨٦ / ١١٩١)

كان ريكاردوس قلب الأسد مصمّمًا على أن يصلَ القدس ولكنه لم يكن يستطيع ذلك إلاّ إذا بلغ يافا، لهذا انطلق من حيفا مارّاً بعثليت وقيسارية وأرسوف ، والاسطول يحاذي جيشَه الّذي يسير أيضاً على سيف البحر ، وكان هذا ترتيباً حكيمًا ، لأنّ صلاح الدّين خَرّب المنطقة ، فالحصول على الطّعام فيها صعب ، ومخازن مؤنه هي في الاسطول ، وميمنته محميّة بالبحر ، والمشاة الذين يحملون الثّقل (لقلّة الدوابّ) يسيرون أيضاً على محاذاة الميمنة ، والتعبئةُ الكليّة صالحة لأن تتحوّل إلى ميمنة وقَلب ومَيسرة في أيّة لحظة ، فالخيّالة موزّعون في مجموعات صغيرة ، وبين كل مجموعة والتي تليها مسافة مقدّرة ، وإلى الداخل من الخيالة يسير المشاة في رتلٍ ، ويكونون الجناح الداخلي للجيش (١٢ وحدة من المشاة ، ١٢ من الخيالة) وفرسان المعبد والاسبتارية ومعهم عدد كثير من التركبولي يمشون في المقدمة والسّاقة بالتبادل ، والرّاية في القلب تجرّها أربعة خيول ، وبما أنّ الحرّ شديد ، فإنّ الجيش الفرنجي لا يمشي إلاّ في الصباح الباكر ، ويرتاح يوماً ويمشي يوماً ، حتّى إنّ المرحلة بين عكّا ويافا استغرقت تسعة عشر يوماً .

وقد حفظ ريكاردوس جُنده في نظام جيّد ، فلم يمنحوا السّلطان صلاحَ الدّين الفرصةَ التي كان ينتظرها ، فقد كان صلاحُ الدّين يُقرِّب الأطلابَ ويوقف بعضَها ليكون ردءاً ، وضايق الفرنجة مضايقة عظيمة ، وجرى بين الفريقين قتال ، ولكنّ كُلاًّ منهما كان يسعى ليبلغ المنزلة الّتي يصلُح عندها خوض معركة ، أمّا معظم جيش صلاح الدّين فكان مختفياً في غابة أرسوف التي تمتدّ اثني عشر ميلاً . ومن الواضح أنّ صلاح الدين حين سمح للجيش الفرنجي أن يبرز من المعسكر ، إنّما كان يرمي أن يصبّ كلّ جهده على المؤخرة ، ويُحدث فجوة في صفّ المشاة ، يستطيع أن يُدخل منها احتياطيه ويحاربَ عدوّاً شطرَ جيشه شطرين او أكثر ، فجأة ظهر المسلمون من الغابة ، وأصواتُ الطبول والبوقات تملأ الأفق ، كانت راياتُهم كثيرة ، وكانوا أسرع من الصقور في انقضاضهم على صفوف الفرنجة ، وأعملوا سهامهم ضدّ جدار المشاة ، ولكنّ الصليبيين ظلّوا متابعين سيرَهم دون تردّد ، وظلّ المشاة كأنهم جدار متماسك ، لم تؤثر فيهم الهجمة التي أرادها صلاح الدين ، وأدرك أنه لا يحرز تقدماً ، فأخذ يحرّض رجاله ، وتذمّر سيد الاسبتارية ، وطلب من رتشارد الاذن بالهجوم ، فأفهمه هذا أنّ الاذن بذلك مقترن بعلامة ، وكظم الاسبتارية غيظَهم وهم يَرَوْن حصاناً بعد حصان يقع ، ورجلاً بعد رجل تُعجزه السهام ، وسرعان ما

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اندفعت المؤخّرة كلُّها إلى الأمام في حال فوضى ، وانضمّت إلى الفيلق الفرنسي الذي كان يمشي أمامها ، وقبل ان تعلن العلامة (ست بوقات معاً) بدأت صيحات الحرب . جاء التحوّل من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم مزلزلاً للجيش الاسلامي ، ووقعت في المسلمين مجزرة رهيبة ، وحُصِدَ منهم ألوف ، ولاذ أكثر من بقي حَيّاً بالهرب ، ولم يكتف ريكاردوس بهجمة واحدة ، بل أعاد الكرّة ثانية وثالثة .

واكتفى صلاح الدين بجمع فلول جيشه ، ولكنه لم يجسر بعد هذه المعركة أن يلتحم بعدوّه مرّة أُخرى ، وعاد إلى طريقته القديمة في الاكتفاء بالمناوشات ، وبدأ ـ مدركاً أنه لن يستطيع الاحتفاظ بالمدن التي استردّها ـ يخرّبها واحدة إثر اخرى ، ومن جهة أُخرى استطاعت معركة أرسوف أن تعيد إلى أيدي الصليبيين المنطقة السّاحليّة من جنوبي فلسطين .

(ب) المعركة البحريّة :

كان الأسطول هو نقطةَ الضّعف الواضحةَ في «الجهاز الحربي» الإسلامي ، أيام الحروب الصليبيّة ، وعلى الرّغم من محاولات صلاح الدين تقويةَ الأسطول المصري ، فإنّه ظل غير قادر على أن يشارك مشاركة فعّالة في حماية مدن الساحل الشامي وساحل مصر ، فعندما زحف الفرنجة على دمياط (٥٦٥ / ١١٧٠) (١) وعندما أجلبوا على ثغر الاسكندرية بأسطولهم (٥٧٠ / ١١٧٤) (٢) لم توجد مقاومة بحريّة ، وكان أسطول الفرنج في الحادثة الثانية مؤلّفاً من ستمائة قطعة ما بين شيني وطرادة وبُطسة ، وهذا عددٌ ضخم لم يثبت له الأسطول الاسلامي سنة (٥٨٣ / ١١٨٧) حين خرج عليه أسطول الفرنجة من صور ، وأخذوا مقدّمي البحر ، وخمس قطع بحريّة ، وقتلوا عدداً من العاملين في الاسطول أيضاً (٣) .

وكان أكبر امتحان لهذا النقص في الاستعداد البحري هو ما جرى على عكّا من ويلات ، وحين خرج الأسطول من مصر (٥٨٧ / ١١٩٢) ذاهباً إلى عكّا ، حاول صلاح الدّين أن يشغل الفرنجة عن التصدّي للأسطول بجرّه إلى معارك جانبيّة ، ولكنّ العدوّ عمّر أسطولاً لقتال الأسطول الإسلامي ، والتقى الأسطولان في البحر ، ويخبرنا ابن شدّاد وهو رجل ثقة ، أنّ الاسطولَ الاسلاميّ انتصر ، وإن خسر واحداً من الشوّاني ، ودخل الأسطول عكّا ومعه مراكب محولة فيها مِيَرٌ وذخائر ، وأحسّ الناس بانفراج الضيق (٤) ، ولكن إن كان الأسطول بهذه المقدرة ، فلمَ اختفى بعد ذلك ؟! .

بعد هذا لا نسمع إلاّ قليلاً عن نشاط الأسطول ، وإلاّ قليلاً عن نشاطٍ لسفن مفردة تعمل في نقل

---

(١) النوادر السلطانية : ٤١ .

(٢) المصدر السابق : ٤٨ - ٤٩ .

(٣) المصدر نفسه : ٨٤ .

(٤) المصدر نفسه : ١٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المؤن للمحصورين بعكّا ، فهناك بُطسة من بيروت (١) ، وثلاث بُطس من مصر (٢) . ونعرف أن للمسلمين بعض مراكب صغيرة تسمى البراكيس (واحدها بركوس) وتصلح للمؤن (٣) واستطاع الاسطول الإسلامي (٥٨٧ / ١١٩٢) أن يستولي على مركب مشهور للفرنجة يسمّى «المَسطَّح» ومعه مراكب أخرى (٤) ، بعد ذلك هل يمكن أن نقول : وقعت معارك بحريّة بين المسلمين والصليبيين ؟

(جـ) المعارك الميدانيّة الالتحاميّة :

يستغرق هذا النوع من المعارك وقتاً أقلّ من المعارك في أثناء الزحف ، وغالباً ما تختم بنصر أحد الفريقين ، ثم لا يكون لهذا النصر تفاعلات أبعد مدىً . وقد تعدّ منها المعارك التي يُمثّل الحصارُ نواتهَا ، ولكن لابُدّ من إفراد الحصار لاعتماده على أسلحة مختلفة وأسلوب حربيّ مختلف ، وهذه المعارك الالتحاميّة كثيرة ، ولكنّي سأكتفي بعرض نموذجين منها :

١) بعد أن استولى الفرنجة على القدس ، واجهوا هجوماً مضاداً من الفاطميين بمصر (٤٩٢ / ١٠٩٩) وكان اللقاء عند عسقلان لكنّ خيّالة العرب والمغاربة لم تكن لديهم براعة الترك في الرّماية من على ظهور الخيل ، وكان أهّم أسلحتهم هو الرّمح والسيف ، ولم يكن التوزّع والانتشار من أساليبهم في التعبئة ، ولذلك كانوا هدفاً لهجمات الفرنجة ، وذلك هو ما حدث عند عسقلان ، إلاّ أنّ المعلومات عن المعركة لا تساعدُ على إعادة صورة لها . والحقيقة المؤكّدة هي الدقّة في تنظيم الزّحف بحيث يصبح الجيشُ سورَ دفاعٍ دائرياً ، ويصطَفّ المشاة أمام الفرسان ، فيُشاغل المشاةُ المسلمين بالرّماية ، وتصبّ سرايا الخيّالة حملاتها تباعاً ، وهذا هو الذي أحرز الفوز للفرنجة ، وتقول المصادر الموثوقة (٥) : إنّ المعركة كانت قصيرة .

٢) عام (٥٧٥ / ١١٧٩) توجّهَ صلاح الدّين إلى بانياس لأنّه عرف أنّ الفرنجة بَنوا حصنَ بَيت الأحزان على مقربة منها ، وأخذ مِن موقعه يرسل المفارزَ إلى صيدا والسّهول السّاحلية ، فتوجّه بلدوين إلى المناطق المهدّدة ليحميها ، فزحف من طبريّة إلى صفد ، ووصل إلى موقع يشرف منه على مرج عيون ، وكان يرى عن بعد خيام جيش صلاح الدين ، فقرّر الفرنجة الهبوط إلى السّهل دون تلكّؤ ، وفي انحدارهم السّريع لم يستطع المشاةُ أن يواكبوا الخيّالة ، ولهذا قامت مسافةٌ بينهم وبين الخيّالة ، فلما

---

(١) النوادر السلطانية : ١٣٥ .
(٢) المصدر السابق : ١٣٨ .
(٣) المصدر نفسه : ١٤٣ .
(٤) المصدر نفسه : ١٩٦ .
(٥) Smail , pp. 174 - 75 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصل الجميع إلى السهل كانوا قد تأخروا بضع ساعات ، وحين بدأ القتال بدأ بين الفرنجة ومفارز صلاح الدّين التي عادت من غاراتها ، وبما أنّ المفارز لم تكن مدرّبة ولا مُعَدّة للقتال فقد هزمت بسهولة ، وتصرّف الفرنجة بعد ذلك كأنهم كسبوا معركة ، فبعضهم طارد المسلمين إلى المعسكر وسار ريموند صاحبُ طرابلس ورئيس فرسان المعبد إلى المرتفع الواقع بين مرج عيون وَمَرّ اللّيطاني ، وشُغِلَ المشاةُ بجمع الغنائم ، ثم أخلدوا إلى الرّاحة ، فلما هجمَ صلاح الدين كانت الهزيمة من نصيب الفرنجة لأنهم لم يكونوا مستعدّين لمعركة (١) .

٥ ـ فنون الحِصار البرّي والبحري :

قَد تناوَلت جانباً من هذا الموضوع عند الحديث عن أسلحة الحصار وأدواته ، ويهمني أن اشير هنا إلى أنّ الوضع في الحروب الصّليبية يدلّ على تحسّن الأسلحة وفاعليتها ، فبروجُ المقاومةِ كانت تُصنع من خشب وحديد وتُلَبَّس جُلوداً مُسَقّاة بالخلّ بحيث لا تَنْفُذ فيها النّيران ، ومع ذلك فقد استطاع شابٌّ نحّاس دمشقي ، حين غيرّ في المادة المسلّطة عليها أن يحرقها ، وكذلك يبدو أنّ كلّ تطوير كان يستدعي تطويراً مُضاداً (٢) . فإذا تصفّح المرء النوادر السلطانية لابن شدّاد وَجَدَ أنّ كُلّ سِلاحٍ فتّاك وُجِدَ له سلاحٌ يشِلّ فِعلَه ، فالمنجنيق الذي تحدّثتُ عنه في موضِعٍ آخر قد بَلغ في فعله وشكله حَدّاً مُذهلاً ، حتّى إنّ المسلمين لمّا اطّلعوا على منجنيقات الفرنجة وجدوا شيئاً عظيمَ الشكل، وبخاصة منجنيقٌ عَمِلَه الكُندهَري، كلّف ألفاً وخمسمائة دينار ، وقد استطاع الزرّاقون إحراقه (٣) ، ولعلّ هذا يعني تحسينَ فِعل «النّار اليونانية» بل يعتقد بعضُ الباحثين أنّ الاهتداء إلى أهميّة النفط إنما جاء رداً على ظهور البرُج والدبّابة ، وكان لهذا كُلّه أهميتُه في مقاومة أسلحة شديدة التأثير مثل الكبش والمنجنيقات والدبّابة ذاتِ الأربع طبقات المُسلّطةِ على سور عكّا ، وآلاتٍ أخرى (٤) . وكان اجتماع الفئات الثلاث : النُّفّاط والزرّاقون والنقّابون سبباً أصيلاً في تقوية وسائل الدفاع .

وفي العصر الأيوبي كانت وقائع الحصار الواحد حتى أيّام صلاح الدين لا يُستعمل فيها أكثرُ من عشرة منجنيقات ، وكثيراً ما كان العَدَدُ أقلّ من ذلك بكثير ، ولكن في أواخر العصر الأيّوبي حدثت زيادةٌ في عدد المنجنيقات (٥) .

---

(١) Smail , p. 186 . وانظر ايضاً : الكامل في التاريخ ١١ : ٤٥٥ .

(٢) النوادر السلطانية : ١٢٠ - ١٢١ .

(٣) المصدر السابق : ١٣٤ .

(٤) المصدر نفسه : ١٣٦ ، ١٤١ ، ١٦٢ .

(٥) Encyclopaedea of Islam, 2nd ed. (E12) Vol . III, P. 473 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمّا أعمال النقب فقلّما استُعمِلَت قبل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وقد تفوّق فيها المسلمون ، وهي توصَف في المصادر وصفاً دقيقاً ، وكان النقبُ فعّالاً فيما بُني على تراب لا على أساس صَخريّ ، وقد اشتهر النقّابون الحلبيّون في عصر صلاح الدّين ، فهم الذين ساعدوه في حصار صهيون (١١٨٨/٥٨٤) وحين حاصر ريكاردوس الداروم (١١٩٢/٥٨٨) كان معه مَهَرةٌ من النقّابين الحلبيّين (١) .

إنّ تكاثر الحصون والقلاع أيّام الصليبيين جعل ظاهرة الحرب القائمة على فنون الحصار هي الأكثر شُيوعاً ، وإنّ السياسةَ الّتي جرى عليها صلاح الدّين في التخلّص من بعض الأسوار وتخريب بعض الحصون والمدن لأنّه غير قادر على حمايتها ، لم تنقص عدد تلك المنشآتِ المنيعة كثيراً ؛ وتكرار عمليّة النقض والفتح عن طريق المحاصرة جعل وصفَ مناظر الحصار كثيراً في أدب تلك الفترة : فقد وصف العِماد حصار صلاح الدّين لحصنْ بَرْزَيَة بقوله (٢) : «فأحْدقنا بها وبالجبل، وقَطعْنا عليها متّصِلاتِ السُّبُل، ولمّا رأى السلطان أنّه لا سبيل إلى نيقها (٣) بالمنجنيق ، وأنّ الاشتغال به يُطيل زمان التعويق ، مالَ إلى الزّحف ، ولاحَف (٤) جُموعَه في ذلك اللُّحْف فقسم الناس ثلاثة أقسام على السّواء ، وجعل النّوبة الأولى لعماد الدين* صاحب سنجار، اللّيث الهصّار، والغيث المدرار. . . فانقضوا على الهُضب، وعَضّوا على العُضب . . . ولمّا ظهرت في النّوبة النّبوة ، وكاد جوادُها تنالُه الكبوة ، تقدّم السلطان بنفسه في النّوبة الثانية والسّطوة الدّانية . . . وخَفّ في الثّقال من الرّجال ، وزَحَفَ إلى الجَبل بالجبال . . . وقد نشط السلطان لتسليطهم وتنشيطهم والتحذير من توريطهم وتفريطهم ، فمَن انقبضَ بسَطه ، ومَن أعرَضَ ضبَطَه ، فمنهم مَن تمكّن من الطّلوع ، ومنهم مَن تكمّن للوُلوع ، وجاءت النوبة الثالثة تالية ، وأقدمت أمدادُها متواليةً مُتعالية ، وعادت النّوبَةُ الأولى لنشاطها ، وزادت في انبساطها ، فبَلغوا وغلَبوا ، والتهموا والتهبوا ، وتعلّقوا بالسّور وتسلّقوا كالنسُّور ، وطُلِعَت القلعةُ وقُلِعَت الطّلعة» .

* ويصف العماد أيضاً الاعدادات الّتي تمّت في سبيل الاستيلاء على حصن الكرك (١١٨٤ / ٥٨٠) فيقول (٥) : «فعَمِلْنا دبّابات قدّمناها ، وبَنينا إلى شفير الخندق ثلاثة أسراب باللّبن سَقفناها وأحكمناها ، فصارت منها إلى طرف الخندق طرُقٌ آمنة ، وشَرَع النّاس في طَمّ الخندق منها ونفوسُهم مطمئنّة وقلوبهُم ساكنة . . . وتسارع الناسُ إليه وازدحموا عليه ، فلم يبق صغيرٌ ولا كبيرٌ إلاّ وهو مُستَبشر بالعمل مُنتَظر لبُشرى نُجح الأمل» .

---

(١) EI₂ . Vol III . pp. 473 - 474 .

(٢) الفيح القُسيّ : ٢٤٨ - ٢٥٠ .

(٣) النيق : حرف من حروف الجبل .

(٤) شاركهم العمل .

(٥) مُفرّج الكروب ٢ : ١٥٩ - ١٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووصف فَخر القضاة ابن بُصاقة حصار آمد سنة (٦٢٩/ ١٢٣٢) فقال (١) : « . . . وإنهم أحاطوا بها إحاطةَ الخواتم بالخناصر ، والمناطِق بالخُصور ، وأظهروا بها أبْدَوْه من قُدرتهم مافي خَصمهم من العجز والقصور . . وأمر السّلطان الأعظمُ، أعزّ اللّهُ أنصارَه، أبطالَه بالزّحف، فتقدّمت وزحَفَت، وتقدّم إلى عساكره بالتحرُّك ، فتزلزلت الأرض لحركتهم ورجَفَت . ودَنا الجيش المنصور من السّور ، فدَنا وتدَلّى ، ورأى الخَصمُ عينَ القَصم فعَبَس وتولّى ، وأطلَق الجاليش (٢) عقائلَ التراكيش (٣) ، فكَشَفَت السّور وهتكت حجابَه ، وأماطَ الزرّاقون لِثامَه ، وسَفَر النقّابون نقابَه ، وأرسلت عليهم الحنايا رُسُل المنايا ، وخَرجت لهم البلايا من الزوايا ، وأوردَتهم الشرُعُ (٤) مشارعَ الحُتوف ، وتفرّقت منهم الصّفوف لَـمّا صَلَّت عليهم السّيوف » .

والحصار وسيلة قد تُطبّق في البحر أيضاً ، فتقوم سفن المسلمين مثلاً بمحاصرة سفن العدوّ ، وتحيط بها من كلّ جانب ، حَتّى تضطرّها إلى التسليم ، وهذا ما عناه العماد بقوله (٥) : « . . . وأمّا السّائرة إلى بحر الحجاز ، فإنها طَلبت شوكة المراكب البحريّة المتعرّضة للمراكب الحجازيّة واليمنيّة . . . فأوقَعَت بها المراكبُ الاسلامية أشدّ الإيقاع ، وقَطعَت طريقَ النّجاة على الطُّرّاق القُطّاع » .

وقد تُستخدم في البحر وسيلةٌ أخرى وهي المطاردة المصحوبة بقذف مراكب العدوّ بالنشّاب ، وهذا ما فعلته سفن الأسطول الإسلامي مع سفن الفرنجة التي غزت أيلة ومنعت الماءَ عن أهلها سنة (٥٧٨ / ١١٨٢) وفي هذه الحادثة قال العماد (٦) : « فأمّا السّائرة إلى قلعة أيلَة ، فإنها انقضّت على مُرابطي منع الماء انقضاضَ الجوارح على بَنات الماء ، وقذفَتها قَذفَ شهُب السّماء مسترقي سمع الظّلماء» .

لكنّ حصارَ المدن والحصونِ البحريّة لم يكن للمسلمين قِبَلٌ به ، لضعف الأسطول ، ولكن هذا شيء قد تفوق فيه الصليبيون ، ولم يكن حصار عَكّا على أيديهم إلاّ المثال الأبرز بين أمثلة أخرى أقلّ منه حِدّة وتنكيلا .

وقد كان المسلمون يلجأون في كثير من الأحيان إلى حَفر خنادقَ تحت الحصون الدفاعيّة للفرنجة ، فإذا ما استقرّت هذه الخنادق على صورة معيّنة ملأوها بجذوع الأشجار الجافّة ، وأضافوا إليها موادّ قابلةً للاشتعال ثُمّ أضرموا فيها النّار التي ستؤدّي حرارتها إلى تَصعضع الأسوار ، وربّما انهيارِ جُزء منها ، فإذا

---

(١) مُفرّج الكروب ٥ : ١٩ .
(٢) الجاليش : مُقدّمة الغلب في الجيش .
(٣) التراكيش : مفردها تركاش ، وهي جعبة السّهام .
(٤) الشُرع : المقصود بها الرّماح المشرعة .
(٥) البرق الشامي ٥ : ٧٣ .
(٦) المصدر السابق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لم تنجح هذه الطّريقة من المرّة الأولى ، أجروها ثانية حَتّى توصل إلى النتيجة المرجوّة ، ففي فتح الرُّها (٥٣٩/ ١١٤٥) أحدَثَ النقّابون المسلمون عدّة نقوب في مواقع مختارة من أسوارها (١) ، إلى أن وصلوا إلى أسفل أساسات السّور ، فحشوا النّقب بالأخشاب المحكمة ، وأطلقوا النار فيها ، فلم يمض وقت طويل حَتّى تهاوت جدران السّور (٢) ، ووصف العماد فتح حصن بيت الأحزان (٥٧٥/١١٧٩) فقال (٣) : «وتمّ النّقبُ السلطاني وعُلّق ، وحُشي بالحطب وأُحرق ، وظُنّ أنه يتضعضع وتُوُقّع أنّه يقع . . . فما تأثّر بالتعليق والتحريق ، ولا أبان عن التشييد والتّشديد . . . فعاد نَقّابوها وقد بَرَدت ، فخرّقوه وعمّقوه ، وفتحوه وفتقوه ، وشقّوا حَجَره وفلقوه ، ثمّ علّقوه وحشوه ، واستظهروا فيه ثُمّ أحرقوه ، ولمّا تعالى النهار ، وَعيلَ الاصطبارُ ، وزال القرار ، انقضّ الجدار . . .» .

وكان نجاح الحصار يعتمد كثيراً على نقب الأسوار ، ولذلك كان النقّابون فئةً مهمّة في أعمال الحصار، وقد تفنّن الكُتّاب في وصف هذا العمل ، فمن ذلك كتاب فاضلٍ في نَقْب سور (٤) : «فأخلي السّورُ من الستارة ، والحرب من النظّارة ، وأمكن النقّاب أن يُسفر للحرب النّقاب ، وأن يُعيد الحجر إلى سيرته من التّراب ، فتقدّم إلى الصّخر فمضغ سَرْدَه بأنياب مِعوَله ، وحَلّ عُقَدَه بضربة الاحراق الدّالّ على لطافة أنمُله ، وأسمع الصّخرةَ الشّريفةَ حَنينَه واستغاثته إلى أن كادت تَرِقُّ لمقتله ، وتبرّأ بعضُ الحجارة من بعض ، وأخذ الخراب عليها مَوثقاً فلن تبرحَ الأرض» .

٦ ـ الترتيبات الدفاعيّة :

كان الفرنجة يُعَوّلون كثيراً على الوسائل الدفاعيّة ، فبالاضافة إلى حَفر الخنادق وإيقاد النيران خلف أبواب الحصون ، فإنهم كانوا إذا لزم الأمر ، يقيمون تلالاً تُرابيّة مُتحرّكة يُقاتلون من ورائها . فقد ذكر سِبطُ ابنِ الجوزي ★ أنّ الفرنجة بعد استيلائهم على عكّا (٥٨٧ / ١١٩١) وفي محاولتهم لصدّ محاولات المسلمين الّتي كانوا يقومون بها لاسترداد المدينة (٥) ، « قد صنعوا تلاً من تراب ، يُقدّمونه يسيراً يسيراً ، ويُقاتلون من ورائه ، لأنّ المسلمين أحرقوا أبراجهم ومجانيقهم ودَبّاباتِهم ، فعملوا هذا التلّ وحرقوه ، فصار للمقاتلة مثلَ الحائط» .

ويبدو فيما يُنسبهم من بعض الملاحظات الّتي أوردها مؤرّخوهم أنهّم كانوا يميلون إلى التنظيم ،

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق : الدكتور سهيل زكّار ، دار حسّان ، دمشق (١٩٨٣) : ٤٣٦ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) البرق الشامي ٣ : ١٧٨ .
(٤) مُفرّج الكروب ٢ : ٢٣٩ .
(٥) مرآة الزّمان ٨ : ٢٦١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولاسيّما في حالات الدفاع ، فقد ذكر بعض أولئك المؤرخين عن الملك ريتشارد ملك الانجليز ، أنّه كان مُخيَّماً في نفرٍ من قُوّاته خارج مدينة يافا (٥٨٧ / ١١٩١) ، فجاءه مَن يعلمه أنّ السّلطان صلاح الدّين يُعدّ لمباغتته عند بزوغ الفجر ، فأخذ للأمر أُهبته ، فنظّم قُوّاته القليلة العدد بطريقة دفاعيّة ذكيّة ، فقسمهم صفوفاً : صَفّين للراجلين ، وصَفّاً للخيّالة ، «وكان الصفّ الأوّل يتألّف من رجال راكعين جَنْباً إلى جَنْب يحتمي كُلٌّ منهم بتُرسه ، وقد زَجّ رُمحه (العقب) على الأرض ، والوشج (١) (قناة الرُّمح) مُشرع بالميل إلى أعلى ، والسِّنانُ باتجاه العدوّ . وكان كلّ رجل من هؤلاء الرِّجال ملاصقاً لجاره من الجانبين . . . وفي الصفّ الثاني ، رتّب ريتشارد النشّابين ، بحيث يُغطّي كُلٌّ منهم الفُرجة بين رأسي اثنين من الخيّالة الراكعين ، وكان هؤلاء يعملون أزواجاً ، فيما يُطلق الأوّل الموجودُ إلى الأمام سهمه من أحد القِسيّ الأنبوبيّة ، يكون زميلُه قد وتّر الآخر ، ويتبادل بعدها كُلٌّ منهما سلاحَه . . . أمّا الرِّجال الراكبون العشرة ، فاتخذوا مواضعهم خلف هذه التشكيلة التي يُرجَّحُ أنّها كانت محميّة أيضاً بمتراس مُرتجلٍ من جُذوع الأشجار ، جُمِعَت من أرض المعسكر » (٢) .

٧ ـ نهاية المعركة :

جَرت عادة الطّرفين : المسلمين والفرنجة ، أن يقوم كُلٌّ منهم بعد انتهاء المعركة بإحصاء قتلاهم وأسراهم (٣) ، وقد يعمد الفرنجة إلى دَفن قتلاهم في قبور جماعيّة (٤) ، في بعض الأحيان ، ولا سيّما قبل أن يتوقّف القتال ، فيما كان المسلمون يحرصون إثر كُلّ معركة من معاركهم مع الفرنجة على معرفة عدد الذين صرُعوا من الفرنجة في تلك المعركة (٥) ، ولعلّهم كانوا يفعلون ذلك لِما لَه من أثر في رفع الرّوح المعنويّة للعساكر الاسلاميّة .

٨ ـ ما بَعد المعركة :

تتكشف المعركة عن نَصر أو هزيمة ، وعن قتلى وجرحى ، وعن غنائم ومقاديرَ من المكافآت ، وعن أمور أخرى كثيرة ، وأكثر هذه الأمور متصّل من حيث آثارُه بالنّفس الانسانيّة ، وخير مكان لدراسته

---

(١) هكذا وردت عند المترجم ، والصّواب أن يقول : والوَشيحةُ إن أراد التحدّث بصيغة المُفردَ ، أو الوشيجُ إن أراد التحدث بصيغة الجمع .

(٢) فنّ الحرب عند الصليبيين : ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٣) النوادر السلطانية : ١٣٠ .

(٤) المصدر السابق : ١٣٠ .

(٥) المصدر نفسه : ١٣٠ - ١٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هو الأدبُ ، أمّا هنا فسوف أتحدّث عن موضوعين منفصلين في الواقع يترتبان على نتيجة المعركة وهما : معاهداتُ الصُّلح ، والأسرى والسَّبايا :

أ ـ معاهدات الصُّلح :

إنّ المتتبّعَ لمُعاهدات الصّلح بين المسلمين والصليبيين يجد أنّ المسلمين في موقفهم من الصُّلح كانوا يَصدُرون من قاعدتين : أمّا القاعدة الأولى فهي قول الخالق جَلّ وعَلا : ﴿ وإن جَنحوا للسَّلْم فاجَنح لها وتوكّل على اللّه ، إنّه هو السّميع العليم ﴾ (الانفال : ٦١) . وإنّنا لنجد في بعض مكاتباتهم الرسميّة ما يتضمّن هذا المبدأ ويدعو إليه ، ففي العهد الصّادر عن ديوان الانشاء ببغداد بتولية صلاح الدّين مُلكَ مصَر وأعمالِها والصعيدِ الأعلى والاسكندرية وسواها ، أمرٌ من الخليفة هذا نصّه (١) : « . . . وأمره أن يجيب إلى الأمان مَن طلَبَهُ منه » .

وأمّا القاعدة الأخرى فتنصّ على الوفاء بالعهد والالتزام بالوعد عملاً بقول اللّه تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد إنّ العهدَ كان مسؤولا ﴾ (الاسراء : ٣٤) ، وهذه القاعدة كذلك نصّ على مبدئها كتابُ التكليف الآنفُ الذّكر ، إذ جاء فيه : «ويكون وَفاؤه مقترناً بما تضمَّنه ، غيرَ مُضمِرٍ خِلافَ ما يُعطي به صفقَة أمانه ويجتنبَ الغدر وما فيه من العار وإسخاطِ الملك الجبّار ، قال اللّه عَزّ وجَلّ : ﴿ وَأوفوا بعهد اللّه إذا عاهدتُم ، ولا تنقُضوا الأيْمان بعد توكيدها وقد جعلتم اللّهَ عليكم كفيلا ، إنّ اللّه يَعلَم ما تَفعَلون ﴾ (النحل : ٩١) .

وقد كانت مصلحةُ المسلمين هي المقدّمةَ عند النّظر في أيّ عَرضٍ للصّلح يأتي من الطّرف الآخر ، ولا يُستجابُ لَه أو يُرَدُّ عليه إلاّ بعد استشارة أولي الرّأي من المسلمين ، كما يتّضح من الكتاب الذي بعَثَ به الملك النّاصر إلى ديوان الخلافة إثر إفضاء الأمر بين المسلمين والفرنجة إلى الهدنة (٥٨٨ / ١١٩٢) ، إذ جاء فيه (٢) :

« . . . ولقد كان الخادم للسّلم مُتكرِّها ، ولا يرى أن يكون كشيمة ملوك العصر عن الغزو مُتَرَفّها، لكنْ أجمع مَن عنده من الأمراء وذوي الآراء على أنّ المصلحة في المصالحة راجحة ، وأنّ صفقةَ الكُفر فيها خاسرةٌ ، وصفقةَ الإسلام رابحة . . . » .

فإن كانت مصلحة المسلمين تقتضي عدم الاستجابة إلى طلب الأمان لأنّ ما يمكن أن يترتّب عليه من أذىً أكبرُ ممّا يمكن أن يتحقّق من نفع ، امتنعوا عن قبوله ، على نحو ما فعل عماد الدين عندما رفض في البداية الاقرار بالأمان لطالبيه المحاصرَين في حصن بارين (٥٣٤ / ١١٤٠) ذلك لأنّه رأى أنّ أخذه قهراً

(١) نص الكتاب في : صبح الأعشى ١٠ : ١٥٠ - ١٥٢ .
(٢) الفتح القُسّي : ٦٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سيمكّنه من أخذ سائر بلادهم ، وسيريحُ المسلمينَ بعد هذه الوقعة من قِراعهم وجلادهم (١) . ولكنّه بعد أن علم أنّ حشود الفرنجة قد بدأت تزحف نحو بارين رأى أنّ مصلحة المسلمين أصبحت مرهونةً بالاستجابة إلى طلبهم فأمّنهم على أن يخرجوا ويُسلّموا الحصن (٢) .

وربّما تظاهر المسلمون بعدم قَبول طَلَب الأمان ، حتّى يتمكّنوا من تحقيق أفضل الشروط التي يمكن أن يُسفر عنها عَهدُ الأمان بين الطّرَفين ، فبعد أن أحكم السلطان الناصُر الحصار على الفرنجة في القدس أرسلوا يطلبون الأمان ، فَلم يجُابوا حَتّى يَبعث الرّعبَ في نفوسهم ، ويحقّقَ ما أمكن من شروط نافعة ، وبهذا الصّدد قال العماد (٣) : « . . . وتمنّع السّلطان وتَسامى في سَومه ، وقال : لا أمنَ لكم ولا أمان ، وما هَوانا إلاّ أن نُديم لكم الهوان ، وغَداً نملككُم قَسْراً ، ونوسعُكم قَتلاً وأسراً ، ونَسفك من الرّجال الدِّماء ، ونُسَلِّط عَلى الذرية والنِّساء السِّباء . . . واستقرّ بعد مراودات ومعاوَدات ومُفاوَضات وتفويضات ، وضَراعات من القوم وشفاعات ، على قطيعة تكمل بها الغبطة ، وتحصل منها الحَوْطة » .

وقد يكون للظروف المختلفة أثرُها في تحديد موقف المسلمين من عروض الصّلح ، ففي التعقيب على المفاوضات الطويلة بين صلاح الدين وريكاردوس واستقرارِها على مبادىء اتّفقَ عليها الطّرفان قال ابن شَدّاد (٤) : « ورأى السّلطانُ ذلك مصلحةً لما غَشِيَ النّاس من الضّعف وقِلّة النفقات والشّوق إلى الأوطان ، ولِما شاهده مِن تَقاعُدهم على يافا ، يَوَمَ أمرَهم بالحملة فلم يحملوا ، فخاف أن يحتاج إليهم فلا يجدهم ، فَرَأى أن يُجمّهم حَتّى يستريحوا وينَسوا هذه الحالة الّتي صاروا إليها » .

وطبيعي أن تكون المصلحةُ هي الدافع إلى طَلَب الفرنجة للأمان ، وجُنوحِهم إلى السَّلام ، فإذا ما حَزبهم أمْرٌ ، واشتدّ عليهم وَقع السّلاح ، تحرّكت رُسُلهم في طلب الصّلح ، وبمقدار ما يكون حجم الضّائقة المفروضة عليهم يكون إلحاحُهم في طلب الصُّلح واستعدادُهم للتنازُل عن مكاسب كانوا قد حقّقوها . ففي حصارهم لقلعة حارم لَقُوا من بأس المسلمين ما لم يتوقّعوه ، فَلَجّت رُسُلهم في طَلَب الأمان ، ورضوا من الغنيمة بالإياب (٥) ، وفي حصار القدس (٥٨٣/١١٨٧) ، رَفعوا أكُفّ الضرّاعة ولَجَوا بألسُن الشّفاعة ، فَلَمّا لم يجُابوا ، لجأوا إلى التهديد بإهلاك أنفسهم وتدمير مقدّسات المسلمين وقتل أسراهم في محاولة للضغط على المسلمين من أجل الموافقة على تأمينهم ، وقد وَصَفَ العمادُ ذلك الموقف فقال (٦) : « وقالوا : إذا أيِسنا من أمانكم ، وخِفْنا من سُلطانكم وَخِبْنا من إحسانكم ، وأيقّنّا أنّه لا نَجاةَ

(١) التاريخ الباهر : ٦٠ .
(٢) المصدر السابق : ٦١ .
(٣) الفتح القُسّي : ١٢٦ .
(٤) النوادر السلطانية : ٢٣٣ .
(٥) البَرق الشّامي ٣ : ٧٣ .
(٦) الفتح القُسّي : ١٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا نَجـاح ، ولا صُلْحَ ولا صَلاح ، ولا سِلْمَ ولا سَلامـة ، ولا نِعْمَة ولا كَرَامـة ، فـإنّا نَستَقْتِلُ فـنُقـاتِل قِتـالَ الدّم ، ونُقـابِلُ الوُجـودَ بالعَدَم ، ونُقْدمُ إقدامَ المُستَشري بالشّر ، ونقتحم اقتحام المُستضري من الضّرُ ، ونُلـقي بأنفُسِنا على النّار ولا نُلقي بأيْدينا إلى التّهلكة والعـار . ولا يُجرحُ واحـدٌ مِنّا حَتّى يجْرَحَ عشرة ، ولا تَضُمُّنـا يَدُ الـفَتـك حَتّى نَرى أيـديـنـا بالفَتْكِ مُنتَشِرة ، وإنّا نَحـرِقُ الدّورَ ونحَرقُ القُبَّـةَ ، ونترك عليكم في سَبـينا السُبـةَ ، ونقلع الصّخـرة ، ونُوجِدُكم عليـهـا الحَسْـرَة ، وَنقـتُلُ كُلّ مَن عندنا مِن أسـارى المسلمين وهم أُلوف ، وقـد عُرِف أنّ كُلاً مّنا عن الذُلّ عَزوف وللعِزّ ألوف . وأمّا الأمـوالُ فَإنّا نَعطبـهـا ولا نُعطيها ، وأمّا الذّراري فَإنّا نُسـارِعُ إلى إعـدامها ولا نَستَبطيها . . . » .

فإذا كـان وَضع الفـرنجـة مـريحاً نسبِياً اشـتَطّوا في فـرض شروطهم وحـاولوا أن يبـتـزّوا أكبر قدر من التنازلات من المسلمين ، فـفي حصار الفرنجة لدمياط ما بين عامي ٦١٦ ـ ٦١٨ / ١٢٢٠ ـ ١٢٢٢ كانت رُسُل الفـرنجـة تتردد بين الطّرفين لعـقـد اتّفـاقـية صلح ، وبعد مفاوضات طويلة ، أقرّ لهم المسلمون بِبيت المقـدس وعـسـقـلان وطبرية واللاذقـيـة وجَبلَة ، وجميع مـا فـتـحه صلاح الدين ما خَلا الشوبكَ والكرك ، مُقـابل تسليـمـهم دمياطَ للمسلمين ورحيلِهم عن الدّيار المصريّة ، فكان أن رفضوا ، إلاّ أن يدفع المسلمون ثـلاثمائة ألـف دينـار لإعمار أسـوار الـقـدس وأن يسلّمـوهم الكرك والشّوبك (١) . تـلـك كـانت شروطهم والمعـركة لم تحُسَم بعد ، واحتمالُ أن تنقلب الدائرة عليهم قائم ، ولهذا كان اشتطاطهم في شروط الصّلح إذا كـانوا منتصرين تطبـيـقاً لمبدأ «ويلٌ للمغلوب» ، وتلك هي روح شروطهم فيما فرضوه على أهل عَكّا ، فقد اشترطوا عليـهم ليـخـرجـوا من البلدة سـالمين ، أن يُسَلّمـوا البَلَد ، وأن يدفعوا لهم مائتي ألف دينار ، وأن يُطلِق سلطانهُم ألفـاً وخمسمائة أسير من المجـهـولين ، ومـائة أسير من المعـروفين ، وصليب الصلبوت ، وأن يدفـعوا عشرة آلاف دينار للمركيس ، وأربعة آلاف دينار لحُجّابه (٢) . وعلى الرّغم من قَسـوة هذه الشروط ، فإنّ وفـاءهم بما التـزمـوا به لم يكن أمـراً مـؤكّداً ، وغَدْرُ ريكاردوس بالأسرى وقـتلُهم عـلامة فاضحة على ما كـان يُسـاور نفـوسـهم من نكث للعـهود ، يقول القاضي الفاضل في هذا الصّدَد (٣) : « . . . وقَد فَعَلَت الأقـدار في رياضـة عـرائكهم ما كان سببه هذه الحركات المباركة ، وكيف تشـنّعَ ملك انجلترا بالغَدر ، وهو لعنه اللّه قـد أتى بأقـبح الغـدر وأفـحـشـه في أهل عَكّا نهاراً جَهـارا ، وشَهـد فيه بِخزيه وفضيحته المسلمون والنّصـارى ، وغَدرُ الفرنج معلوم :

إذا غَدَرَت حَسْنـاءُ أوفَت بِعَهـدهـا ومِن عَهـدهـا أن لا يـدومَ لهـا عَهـدُ

القَومُ هادَنوا لَمّا ضـعفوا ، ويَفسخون إذا قَووا » .

---

(١) مُفرّج الكروب ٤ : ٩٥ .

(٢) الفيح القُسي : ٥١٣ .

(٣) كتاب الرّوضتين ٢ : ٢٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والأمثلة كثيرة على غَدر الفرنجة ، فغدر جوسلين وأرناط ذائع مشهور ؛ وبسبب تكرّر ذلك الغدر تعلّم المسلمون أن يتعاملوا معهم بمنتهى الحذر واليقظة عند الحديث في أمور الصُلح ، أو الجلوس إلى طاولة المفاوضات . وحين قَبل صلاح الدين عَرض ريكاردوس أن يُزَوِّجَ أخوه العادل من اخت ريكاردوس ، وأن يكون مُستقرُّ مُلكيهما في بيت المقدس ، وأن يتخلىّ هو والملكُ لهما عَن بلاد السّاحل ، فإنّما وافق لاعتقاده أنّ الملكَ لا يُوافق على هذه القاعدة أصلاً ، وإنّما فَعَلَ ذلك مَكراً وهُزوا (١) ، أمّا حقيقةُ موقف صلاح الدّين من مبدأ الصّلح فيُلخّصه ما نقله القاضي ابنُ شدّاد عن لسانه حين يقول (٢) : «فإنّه التفَتَ إليّ في آخر المجلس بعد انفصالهم ، وقال لي : « متى صالحناهم لم نَأمَنْ غائلتهم ، فإنيّ لو حَدَثَ لي حادثُ الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر ، ويقوى الفرنج ، والمصلحة ألاّ نزالَ على الجهاد حَتّى نخرجَهم من السّاحل أو يأتينا الموت » .

أمّا بشأن الاتفاقيات التي كانت تُبرم بين الطّرفين من الناحيتين الإدارية والفنيّة ، فقد كان الرُّسُل هم الذين يترددون في حمل وجهات نظر كلّ جانب من الجانبين إلى الآخر ، ولم يكن الملك ليجلس إلى الملك حَتّى يتمّ التوصّل إلى اتّفاق نهائيّ يُقرّه الطّرفان ، عند ذلك يمكن أن يلتقيا للتوقيع وحلف اليمين (٣) . فقد رفض صلاح الدّين أن يجلس إلى ملك انجلترا في أثناء المفاوضات بينهما ، وكان الثاني قد طلب من الأوّل أن يلتقيا ، فكان رَدُّه (٤) : « الملوك إذا اجتمعوا يَقبُح منهم المخاصمةُ بعد ذلك ، فإذا انتظم أمرٌ حَسُنَ الاجتماع ، والاجتماعُ لا يكون إلاّ للمفاوضة في مُهِمّ ، وأنا لا أفهَمُ بلسانك ، وأنتَ لا تفهم بلساني ، ولابُدّ من ترجمان بيننا تثقُ به وأثقُ به ، فليكن ذلك الترجمانُ رسولاً حَتّى يستقرّ أمر ، وتستتبّ قاعدة ، وعند ذلك يكون الاجتماعُ الّذي يعقبه الوداد والمحبّة » .

وكانت الكتب التي تجري بين الجانبين في حديث الصُلح تحمل في طيّاتها أحياناً ، بعض عبارات المجاملة ، تأليفاً للنفوس ، وتسريعاً للاتفاق ، ومن ذلك ما ورد في رسالة ملك انجلترا مُوَجّهاً إلى النّاصر صلاح الدّين (٥) : « يقول الملك : إنّ قاعدة الفرنج أنّه إذا أعطى واحدٌ لواحدٍ بَلَداً صار تَبَعه وغُلامَه ، وأنا أطلبُ منك هذين البلدين : يافا وعَسقلان ، ويكون عساكرُهما في خدمتك دائماً ، وإذا احتجتَ إليّ وَصَلْتُ إليك في أسرع وَقْتٍ وخَدَمْتُكَ كما تَعلَمُ خِدمَتي » ، ومِن مجاملة السلطان الناصر قوله مخاطباً المَلِكَ

---

(١) النوادر السلطانية : ١٩٥ - ١٩٦ .
(٢) المصدر السابق : ٢٠٣ .
(٣) المصدر نفسه : ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ .
(٤) المصدر نفسه : ٢٠١ .
(٥) المصدر نفسه : ٢٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إيّاهُ (١) : « ابن أختك سيكونُ عندي كبعض أولادي ، وسيبلُغُك ما أفعَلُ بِحَقّه من الخير . . . » .

وقد تحملُ تلك الكُتُبُ تهديداً مُبطّناً ، كذلك الذي صدر عن ملك انجلترا حين خاطَب الملك الناصر صلاح الدين قائلاً (٢) : «إنّه إنْ وَقع الصُّلح في هذه الأيّام السّتة سارَ إلى بلاده ، وإلاّ احتاجَ أن يُشَتّي هُنا » . فجاء الرّدُ من السُّلطان يحمل معنى التحدّي (٣) : « أمّا النزولُ عن عسقلان فَلا سَبيلَ إليه ، وأمّا تَشْتِيتُه في هذه البلاد فَلابُدّ منها ، لأنّه قد استولى على هذه البلاد ، وَيعلم أنّهُ متى غاب عنها أُخِذت بالضّرورة ، وإذا أقامَ أيضاً ، إن شاء الله تَعالى ، وإذا سَهُل عَليه أن يُشَتّي هَهُنا ، ويُبعِدَ عن أهله ووطنه مسيرةَ شهرين وهو شابٌّ في عنفوان شبابه ووقتِ اقتناصِ لذّاته ، ما يَسهُل عَلَيّ أن أُشَتّي وأُصيّف وأُشتّي وأُصيّف وأنا في وسط بلادي ، وعندي أولادي وأهْلي ، ويأتي إليّ ما أُريده ومَن أُريده ، وأنا رَجُلٌ شَيْخٌ قد كرهتُ لَذّاتِ الدُّنيا ، وشَبِعْتُ منها ورفضتُها عَنّي ، والعسكر الذي يكون عندي في الشتاء غَيرُ العسكر الذي عندي في الصّيف ، وأنا اعتقدُ أنيّ في أعظم العبادات ، ولا أزالُ كذلك حَتّى يُعطي اللّهُ النّصر لَمِن يشاء » .

وقد كان بعض المعاهدات ينصّ على عمر الاتفاقيّة ، فالاتفاقيّة التي تمّ التوصّل إليها بين نور الدين والفرنجة (٥٥١ / ١١٥٦) كانت تنصّ على سنة كاملة ، وأن يكون المبلغ الذي يدفعه نور الدين ثمانية آلاف دينار صوريّة (٤) . وكانت مُدّةُ سَرَيان المعاهدة بين صلاح الدين وملك انجلترا (٥٨٨ / ١١٩٢) ثلاث سنينَ وثمانيةَ أشهر (٥) ، كما يُفهم من الكتاب الذي أرسله السلطان إلى ديوان الخِلافة ببغداد ، وجاء فيه (٦) : «ومُدّة الهُدنة التي أخذوا بها اليَد ، وأعْطَوا اليَمين ، ثلاثُ سنين وثمانيةُ أشهر ، أوّلُها أوّل أيلول ، يوم الثلاثاء ، الحادي والعشرين من شعبان سنةَ ثمانٍ وثمانين » .

فإذا كانت المعاهدة بين الطّرفين تتضمّن بنوداً مختلفة ، فإنها كانت تُكتب ويُوقّعُ عليها أصحابُ القرار من الجانبين (٧) ، وصاحب القرار عند المسلمين في الغالب هو السُّلطان الذي يجري في عهده التفاوضُ في أمر الصُّلح ، وكذلك الأمر عند الفرنجة . فإذا أُريد للهدنة أن تكون شاملة ، اشترُط توقيعُ كُلّ من يمكن أن يُؤثّر في إنفاذها وتحليفُهم ، ففي اتفاقية يافا (٥٨٨ / ١١٩٢) اقترح الفرنجة تحليف العادل والأفضل والظاهر من أقارب السلطان وعلّي بن أحمد المشطوب* وبدر الدين دلدرم * وغيرهما من

---

(١) النوادر السلطانية : ٢١٩ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر نفسه : ٢٢٨ .

(٤) ذيل تاريخ دمشق (ليدن ـ بيروت) : ٣٣٦ ، ولكنها لم تدم أكثر من شهرين ، فقد نقضها الفرنجة .

(٥) الفيح القُسّي : ٦٠٨ .

(٦) المصدر السابق .

(٧) النوادر السلطانية : ٢٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القادة والأمراء (١) . واشترط المسلمون تحليفَ صاحب أنطاكية وطرابلس ، وابنِ أخت الملك المُستخلَف عنه في السّاحل ، وابن صاحب طبرية (٢) ، وعَلّق المسلمون حَلْفهم على حَلْف الفرنجة للمسلمين ، ومَن لم يحلف منهم فإنّه لا يدخل في الصّلح ، واستُثني من الحلف الملكُ والسّلطانُ لأنّ الملوك في مِلّتهم لا يحلفون . ومن عجيب عادات الفرنجة أنهّم لا يحلِفون بعد الأكل ، ولِذا فقد طلبوا من رُسل المسلمين في المفاوضات السّابقة ، حينما طلبوا منهم حَلف اليمين ، أن يُمهلوهم إلى اليوم التالي ، لأنهم أكلوا في ذلك اليوم (٣) .

ب ـ الأسرى والسّبايا :

كانت السياسة العامّةُ في معاملة المسلمين للأسرى تقوم على الرّفق بهم ، مالم يكن من بينهم مَن سَبق له الغدر بالمسلمين ، وقد حَدّثنا ابن شدّاد عن المعاملة الرفيقة التي عامل بها السّلطانُ صلاح الدّين أسرى وقعة الكمين قرب عكّا (٥٨٦ / ١١٩٠) ، فقال (٤) : « . . . وعاد السلطان بعدَ تكامُل الجماعة إلى مخيّمه فرحاً مسروراً ، وأحضَر الأسرى عنده ، وأمرَ منادياً يُنادي : « ألا مَن أَسَرَ أسيراً فليُحضِره، فأحضَر النّاسُ أسراهم ، وكنتُ حاضراً ذلك المجلس ، ولقد أكرَم على المُقَدّمين منهم ، وخلَع على مُقدّم عسكر الافرنسيس فروةً خاصّة ، وأمرَ لكلّ واحد من الباقين بفروة خرجيّة (٥) ، فإنّ البردَ كان شديداً ، وكان قد أخذ منهم، وأحضَر لهم طعاماً فأكلوه، وأمرَ لهم بخيمة نُصِبَت قريباً من خيمته، وكان يُكارمُهم في كلّ وقت، ويُحضر المقدّم على الخِوان في بعض الأوقات؛ وأمر بتقييدهم وحملِهم إلى محروسة دمشق، فحملوهم إليها مُكرّمين، وأذن لهم في أن يُراسلوا أصحابهم وأن يُحضروا إليهم مِن عسكرهم ما يحتاجون إليه من الثّياب وغيرها، ففعلوا ذلك وساروا إلى محروسة دمشق . . . » . وذكر لنا العماد خبَر معاملة صلاح الدّين لإحدى ملكات الفرنجة على أثر فتح القدس، وقد كانت تقيم فيها، فقال (٦) : « . . . وكانت بالقدس ملكة رومية متعبّدة مترهبّة ، في عبادة الصّليب متصلّبة ، وعلى مُصابها ملتهبة ، وفي التمسّك بملّتها متصعبّة مُتَعَصّبة ، أنفاسُها متصاعدة للحُزن ، وعَبرَاتها متحدّرة تحدّر القطراتِ من المُزن ، ولها حالٌ ومتاع، وأشياء وأشياع ، فاستعاذَت السلطانَ فأعاذَها ، ومَنّ عليها وعلى كُلّ مَن معها بالافراج ، وأذن في إخراج كُلّ ماهُنَا في الأكياس والأخراج ، وأبقى عليها من مَصوغات صُلبانها الذهبيّة المجوهرة ،

---

(١) النوادر السلطانية : ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) النوادر السلطانية : ٢٣٤ .

(٤) النوادر السلطانية : ١٥١ .

(٥) خَرجيّة : ذات لونين ، الأسود والأبيض .

(٦) كتاب الرّوضتين ٢ : ٩٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونفائسها وكرائم خزائنها ، فخرجت بجميع مالها وحالها ونسائها ورجالها ، وأسفاطها وأعدالها ، والصّناديق بأقفالها ، وتبعها مَن لم يكن من أتباعها ، فَراحت فَرْحى ، وإن كانت من سجنها قَرحى » .

وقد شهد عددٌ من المؤرخين غير العرب بالفضل للمسلمين في طريقة تعاملهم مع الأسرى بالمَنّ عليهم والاحسان إليهم في كثير من الحالات ، وأوردوا على ذلك العديدَ من الشواهد والأمثلة (١) ، ومن ذلك ما رواه أحدهم عن صلاح الدين على أثر موقعة طبرية (٥٨٣ / ١١٨٧) حيث قام السّلطان بمجاملة تحمل في طيّاتها الكثيرَ من اللّطف والكياسة نحو الكونتيسة «استشيفا» فقد أمّن لها ولوصيفاتها وأُسرتها سُبُل الوصول بسلام إلى طرابُلُس مع جميع مُستلزماتها الخاصة بها (٢) .

فإن لم يكن هناك مَنٌّ كان الفداء ، إمّا بالمال أو بفكّ أسر عدد من أسرى المسلمين ، أو بكليهما ، فقد ذكر العماد عن أحد ملوك الفرنجة الذين وقعوا في أسر المسلمين إثر موقعة مرج عيون (٥٧٥ / ١١٧٩) أنّه افتدى نفسه بمبلغ من المال وبفكّ أسر عدد كبير من المسلمين الأسرى ، فقال (٣) : « فأمّا ابنُ بارزان ، فإنّه بعد سنة بَذَلَ في نفسه مائةً وخمسين ألف دينار ، وإطلاق ألف أسير من المسلمين » .

وقد يضرب موعدٌ مُحَدَّد ، يمكن للأسرى فيه أن يفتدوا أنفسهم ، فإن عجزوا ضُرِبَ عليهم الرقّ ، وهذا ما كان عقب استعادة المسلمين القدس (٥٨٣ / ١١٨٧) إذ تمّ الاتّفاق بين الطّرفين على السّماح للفرنجة بافتداء أنفسهم ، عن كُلّ رَجُل عشرةُ دنانير وكلّ امرأةٍ خمسةُ دنانير ، وكلّ صَغيرٍ أو صغيرةٍ ديناران ، وقد ذكر العماد هذا الاتفاقَ فقال (٤) : « واشتروا بها مِنّا أنفسَهم وأموالَهم وخلّصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم ، على أنّه من عجز بعد أربعين يوماً عمّا لزمه ، أو امتنع عنه وما سَلّمه ، ضُرب عليه الرِّقّ » .

ولربما أُخِذَ رهنٌ من أجل ضمان تنفيذ الاتفاق المبرم بفداء الأسرى ، ففي الاتفاقية المشار إليها آنفاً ، أُخذ ابنُ بارزان والبَطرك ومُقدّما الدّوايّة والاسبتار ضُمناءَ على تنفيذها (٥) . وفي اتفاقية دمياط (٦٤٨ / ١٢٥٠) التي توصّل إليها الفرنجة والمسلمون ، والّتي افتدى الفرنسيس نفسَه بموجبها بمائتي ألف دينار ، ولم يكن يَملكها ، ارتهن المسلمون أخاه وولده وجماعةً من عشيرته قبل أن يُسمح لَه بالسّفر لاحضار المال المتفّق عليه (٦) .

---

(١) Zoe'Oldenburg, The Crusades, Trans - Anne Carter p. 417 .

(٢) The Crusades, Hans Eberhard p. 127 .

(٣) البرق الشامي ٣ : ١٦٦ .

(٤) الفيح القُسيّ : ١٢٧ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، المنسوب لابن الفُوطي، المكتبة العربية ـ بغداد (١٣٥١هـ) ص٢٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يوضع الأسرى في السِّجن انتظاراً لموقف يتمّ فيه تَبادُلُ الأسرى ، ولَعَلّ هذا هُوَ ما أشار اليه العماد بقوله (١) : « وطالَ أَسرُ الباقين ، فمنهم مَن هَلَكَ وهو عانٍ ، ومنهم مَن خَرَجَ بقطيعةٍ وأمان » .

أمّا إذا كانَ الأسرى لا تُؤمَنُ غائلتُهم إنْ أُطلِق سراحُهم سواءٌ بالمَنّ او بالفِداء او بالمُبادلة ، لاطّلاعهم على ما خَفي من أسرار المسلمين وكشفهم ما يمكن أن يلحق بسَببه الضَّررُ مصلحةَ الإسلام والمسلمين ، فقد كان الملكُ يأمر بقتلهم ، كما يتضح من رسالة كتبها القاضي الفاضل بأمرٍ من السّلطان صلاح الدّين إلى أخيه الملك العادل بشأن انتصار الاسطول المصريّ على أسطول الصَّليبيين الذي اجتاز البحر الأحمر قاصداً مدينتي مكّة والمدينة ، وذلك في سنة (٥٧٨ / ١١٨٢) وقد ذكر فيها أسرى الفرنجة فقال (٢) : « وهؤلاء الأسارى قد ظَهروا على عَورة الإسلام وكشفوها ، وتَطَرّقوا بلادَ القِبلة وتطوّفوها ، ولو جَرى في ذلك سَبَبٌ ـ والعياذُ بالله ـ لَضاقَت الأعذارُ إلى الله والخَلْق ، وانطَلَقت الألْسُنُ بالمَذَمَّةِ في الغَرب والشَّرق ، ولابُدّ مِن تطهير الأرض من أرجاسهم ، والهواءِ من أنفاسهم ، بحيثُ لا يَعود مِنهم مُخبِرٌ يَدُلُّ الكُفّارَ على عورات المسلمين . . . » .

وَلَمّا أحسّ السُّلطانُ أنّ أخاه العادلَ مُتردّدٌ في قتل الأسرى ، عَزّز كتابَه الأوّل بكتابٍ ثانٍ ، حاوَلَ فيه أن ينزع التردُّد من نفس أخيه ، كاشفاً له أنّه بقتله أولئك الأسرى ، يكون قد طَبَّق حُكم الشّرع فيهم، فالحُكم الشّرعيُّ في مثل حالتهم واضحٌ بَيِّن لا يَعتريه غُموض وليس فيه شُبهة ، ولا عُذر لِعَدَم إنفاذ حُكم الله فيهم . وقد كتب هذا الكتابَ نيابةً عن السّلطان القاضي الفاضلُ كذلك ، ومِمّا جاء فيه (٣) : « . . . وليس في قتل هؤلاء الكُفّار مُراجعة ، ولا للشَّرع في إبقائهم فُسحة ، ولا في استبقاء واحدٍ منهم مصلحة ، ولا في التّغاضي عنهم عندَ الله عُذرٌ مقبول ، ولا حُكمُ الله في أمثالهم عند أهل العلم بِمُشكِلٍ ولا مجهول ، فَلْيُمضَ العَزمُ في قتلهم لِيَتناهى أمثالُهُم عن فِعلهم ، وقد كانت عَظيمةً ما طُرِق الإسلامُ بمِثلها ، وقد أتى اللّهُ بَعدَها بِلَطيفَةٍ أجْراها على يَدِ مَن رَآهُ من أهلها » .

وقد يكون قتل الأسرى انتقاماً لأسرى المسلمين الّذين قتلهم العدوّ ، مثلما فَعَل المسلمون على أثر غدر الملك ريكاردوس ملكِ انجلترا بأسرى المسلمين في عكّا (٥٨٧ / ١١٩١) (٤) فقد كانوا يَقتُلون كُلّ

---

(١) البرق الشامي ٣ : ١٦٦ .

(٢) كتاب الرّوضتين ٢ : ٣٦ .

(٣) المصدر السابق ٢ : ٣٦ . وقد ورد في المصدر نفسه أنّ السّلطان الناصر أرسل إلى أخيه العادل رسالة ثالثة بهذا الخصوص . انظر ص ٣٦ / ٣٧ . وذكر ابن فضل الله العمري (٧٤٩ هـ) بشأن أولئك الأسرى ما نصّه : «وقتل لؤلؤ أكثرهم ، وأخذ الباقين أسرى ، وأرسل منهم ألفي رجل إلى مِنى لينحروا بها ، وعادوا بالباقين إلى مصر ، فقُتلوا عن آخرهم . (انظر : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار / مخطوط رقم ٣٤٣٩ أيا صوفيا / السّفر السّابع والعشرون / ص ٨٠) .

(٤) سيأتي ذكرها عند الحديث عن أسرى المسلمين .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مَن يَقَعُ بأيديهم من الفرنجة ، ويتسابقون إلى تنفيذ العقوبة انتقاماً لدماء المسلمين الّتي سَفَحَها الملكُ ظُلْماً وعُدواناً (١) .

ويُفهم من كلام للقاضي ابن شدّاد أنّ الاسرى إذا كان استسلامهم من غير قتال ، كانوا آمنين على أنفسهم وأموالهم فلا يتعرّض لهَم أحدٌ بالقتل أو السّجن أو الاسترقاق (٢) .

وهنا يتّجه بنا البحث إلى تبيان موقف الفرنجة من أسرى المسلمين :

لقد كشفت النُصوص الأدبيّة لكتّاب هذا العهد عن هذا الموقف ، ولعلّ فيما أخبَر به ابن جُبير عن حال أسرى المسلمين في بلاد الفرنجة ما ينبىء بسوء المعاملة الّتي كان يَلقاها هؤلاء من آسريهم ، يقول هذا الرحّالة (٣) : « ومن الفجائع الّتي يُعايِنُها مَن حَلّ بلادهم ، أسرى المسلمين يرسفون في القيود ، ويُصَرَّفون في الخدمة الشاقّة تَصريف العبيد ، والأسيراتُ المسلماتُ كذلك ، في أسواقهم خَلاخيلُ الحديد ، فتنفَطر لهَم الأفئدة ، ولا يُغني الاشفاق عنهم شيئاً » .

أمّا غدرُ الفرنجة بالأسرى فتشهد عليه فعلة ملك انجلترا بأسرى المسلمين في عكّا (٥٨٧ / ١١٩١) بعد أن أمّنهم على أنفسهم إن هُم سَلّموا إليه البلد ، واستقرّ الاتفاقُ على دَفع مَبلغ من المال مقابلَ إطلاق سراحِهم وخروجهم بأموالهم وذَراريهم ونسائهم ، فإن لَمْ يُدفع المالُ ضُرِبَ عليهم الرِقُّ وبَقوا في أسر الفرنج (٤) . وقد صَوّر ابنُ شدّاد هذه الحادثة بقوله (٥) : « . . . فَغَدَرَ بهم ، وأظهرَ ما كانَ أبطَن ، وفَعَلَ ما أرادَ أن يفعَلَه بعدَ أخذ المال والأسارى ، على ما أخبَر به أهلُ مِلّته فيما بعد . . . ثُمّ أحضَروا من الأسارى المسلمين مَن كتَب الله شَهادَتَه في ذلك ، وكانوا زُهاء ثَلاثةِ آلافِ مُسلمٍ في الجِبال وأوثَقوهم في الجِبال وحَمَلوا عَليهم حملَةَ الرّجُلِ الواحد ، فَقَتلوهُم صَبراً طَعْناً وضَرْباً بالسّيف . . . » .

وقد كان الفرنجة يَستبقون أعداداً من الأسرى لغايات منها : استغلالهم في الاعمال الانشائية الشاقّة، وكانوا يختارون لهَا من يظنّون فيه القُوّة والقدرة على النهوض بهذا العمل (٦) ؛ واتخاذُهم وسيلةَ ضَغط حين يتمّ الاتفاق على تبادل الأسرى ، ولتحقيق هذه الغاية فإنهم كانوا يحتفظون بأرباب الأقدار من أسرى المسلمين (٧) ؛ واتخاذُهم سلعةً يعرضونها للبيع ويحققون ببيعها مكاسب ماديّة (٨) .

---

(١) النوادر السلطانية الصفحات ١٧٧ - ١٧٩ .

(٢) المصدر السابق : ١١٧ .

(٣) ابن جُبير ، محمد بن أحمد بن جُبير (٦١٤ هـ) ، رحلة ابن جبير . دار ومكتبة الهلال ، بيروت (١٩٨١) ص : ٢٥٢ .

(٤) النوادر السلطانية : ١٧٤ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) المصدر نفسه .

(٧) المصدر نفسه : ١٧٤ .

(٨) رحلة ابن جبير : ٢٥٢ - ٢٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول ابن شدّاد عند حديثه عَن أسرى عكّا واستبقاء بعضهم أحياءً من أجل الخدمة (١): « . . . ولم يُبقوا من المسلمين إلاّ رجلاً معروفاً مُقدّماً ، أو قَرّياً أيداً للعمل في عمائرهم » . وأمّا الغاية من استبقائهم أحياءً لمزيد من الكسب المادّي ، فيوضحّها قولُ أسامة بن منقذ (٢) : « . . . فكان الافرنج يسوقون أساراهم إليّ لأشتريهم ، فكنتُ أشتري منهم مَن سَهّل الله تعالى خلاصه » ، ثمّ يروي أسامة أنّ شيطاناً منهم يقال له : كليام جيبا ، أخذ مركباً فيه نحو أربعمائة من المغاربة ، ففَكّ أسامة أسَر عددٍ منهم، واراد أسامة أن يشتري واحداً آخر ، فأبى كليام إلاّ بَيعهم جميعاً صفقةً واحدة ، ولم يكن مع أسامة ثمنُهم ، ثُمّ إنّ مسلمي قُرى عكّا ساعدوا أولئك على الهرب ، ولم ينتفع آسرهم بشيء من المال (٣) .

هاتان صفحتان من ظروف الأسر تمثلان أسرى الفرنجة في حوزة المسلمين ، وأسرى المسلمين عند الفرنجة ، وبقي أن نتحدّث عن صفحة ثالثة هي موقف المسلمين أنفسِهم من أساراهم عند الفرنجة ، وتدلّ حكاية أسامة بن منقذ المتقدّمة أنّ القادرين مالِيّاً من أهل الخير كانوا يفتدون أولئك الأسرى ، فأسامة نفسُه اشترى عدداً منهم في مَرّة واحدة ، كما كان أسامة يشتري باسم مُعين الدّين أُنُر ثم يحاسبه ، وكان معين الدّين ـ في نظر أسامة ـ أسرع النّاس إلى فعل خير وكَسب مثوبة (٤) .

وكانت لصلاح الدّين في هذا المجال اليدُ الطّولى ، وكان الفرنج يعرفون اهتمامه بالأسرى ، فلمّا فتح حصن تبنين ، وأخذ يضع شروط الصُلح تقرّبَ إليه أهلُ البلاد بإطلاق سَراحهم (٥) « فخرج المأسورون مسرورين . . وسُرّ بهم السلطانُ وسَرَّ بهِم ، وأقرّهم وقرّبهم ، وكساهم وحَباهم . . . وهذا دَأبُه في كُلّ بَلَدٍ يفتحه ، ومُلك يربحه ، إنّه يبدأ بالأسارى فيفكّ قيودَها ، ويُعيد بعد عُدمها وجودَها . . . فخلّص تلك السّنةَ من الأسر أكثر من عشرين ألف أسير » .

ويتفنّن العماد في وصف أنواع السّبايا ، وكأنّه في هذا الاسهاب المتعمّد يعكِس أهواءَ نفسه وأمنياتها على الفئة الّتي يصفها (٦) : « عذراءُ مفتَرعة ، وحسناءُ مُنتزَعة ، ومُخطَفَةٌ مختَطَفة ، وقويّة مُستضعَفة . . . » ولكنه لا ينسى الجانب الانساني المؤلم من الصّورة حين يقول (٧) : «وحاسرةٌ عن حسرة، وثاكلةٌ لواحِدها، وآكِلَةٌ لساعِدها، وعاضّةٌ على يديها » .

---

(١) النوادر السلطانية : ١٧٤ .
(٢) الاعتبار : ٨١ .
(٣) المصدر السابق : ٨١ - ٨٢ .
(٤) المصدر نفسه : ٨٢ .
(٥) الفتح القُسّي : ١٠٠ - ١٠١ .
(٦) المصدر السابق : ٩٣ .
(٧) المصدر نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلّ في الحكاية التالية التي رواها أسامة بن مُنقذ ، على بساطتها ، ما يوحي بسوء المعاملة التي كانت تتعرّض لها السّبايا المسلمات من قِبَل الفرنجة ، فقد أُصيب أحدُهم بالهذيان لَمّا سُبِيَت ابنته ، ولم ترتدّ إليه نفسه إلاّ بعد أن تيقنّ من موتها قبل وصولها معسكر الأعداء ، قال أسامة (١) : « وكان في جُند الجسر رجلٌ كُرديّ يُقال له : أبو الجيش ، له بنتٌ اسمُها رَفَول ، قد سباها الافرنج ، وهو قد توَسوَس عليها ، يَقول لكُلّ من لَقيه يوماً : سُبِيَت رَفَول . فخرجنا من الغَد نسيرُ على النّهر ، فرأينا في جانب الماءِ سواداً ، فقُلنا لبعض الغلمان : اسبح أبصِرْ ما هذا السّواد ؟ فمضى إليه ، فإذا ذلك السّوادُ رَفَول ، عليها ثوبٌ أزرق ، وقد رَمَت نفسَها من عَلى فَرَس الافرنجي الّذي أخذها ، فغَرِقت وعَلِقَ ثوبُها في شجرة صفصاف ، فسَكَنَت لَوعَةُ أبيها » .

* * *

(١) الاعتبار : ١٩٢ ـ ١٩٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الخامس

صورة المعركة ونتائجها في الأدب
مع التركيز على أهم المعالم الفنيّة في أدب الحرب

١ . صورة المعركة في الأدب :

قد يكونُ اهتمامُ الأدب فيما يتعلّق بالمعركة بعيداً عمّا يهتمّ به التاريخ الحربيّ أو فَنُّ الحرب في كثير من الظّواهر ، ولذلك فإنّ هذا الفصل ليس من الضروري أن يلتزم بكُل العناصر التّي ذُكِرَت من قبل ، وإنّما يَذكر بعضها ويُعَرّج على أشياءَ ينفرد بها الأدب نفسُه .

١) غبار المعركة :

من النّادر أن يهتمّ المؤرخ ـ مثلا ـ بغبار المعركة ، إلاّ إذا اتخذه رمزاً لكثرة الناس ، وشّدة الالتحام ، وعنف الحركة ، ولكن هذا الموضوع يتردّد كثيراً في الأدب لأنّ الشاعر مثلا ، قد يرى في النّقْع صورة لَيل ، ويرى في السّيوف نُجوماً تُنير ذلك الليّل ، أو يختار صوراً أخرى مُتفنّنا في إبراز قدرته التّخييليّة .

فالنّقع عند ابن القيسراني يُخْفي كواكب الدُّجى ، فكأنّها كامنةٌ فيه ، حَتّى يجيء القَنا فيُخرجَها من مكمنها (١) :

في عَسْكر يُخفي كواكبَ لَيله ... نَقعٌ ، فيُطلِعُها القَنا الخَطّارُ

ويَقرِنُ تاجُ الملوك الأيّوبي ★ يوماً تحَتجب الشمسُ فيه ويشتد الظلام بالاضاءة المنبعثة من السّيوف والزّرد (٢) :

فكان يوماً إذا اشتَدّ الظلامُ به ... من العَجاج ، أضاءَ البيض والزّردُ

وهَمُّ الشاعر أن يَرسُم التقابلَ بين الظّلام والنّور ـ والنّقع ولمعان السّلاح ، كقول فتيان (٣) :

والنّقعُ لَيلٌ في نهار شبهُهُ ... زُرقُ الأسنّة في سَواد الحِنْدِس

---

(١) كتاب الرّوضتين ١ : ٦٨

(٢) ديوان تاج الملوك الأيّوبي ، تحقيق : د. محمد عبدالحميد سالم ، هَجَر للطباعة والنشر ، القاهرة (١٩٨٨) ص : ١٣٤ .

(٣) ديوان فتيان : ٢١٩ ، وانظر ص : ١٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتعود المقابلة بين النقع مقترناً بالسُّيوف ، وبين الدّخان مقترنا باللّهب عند ابن القيسراني ، إذ يقول (١) :

والنّقعُ فوق صقال البيض مُنعقدٌ كما استقلّ دُخانٌ تحتَهُ لَهَبُ

ويُزحزح العمادُ المعنى السّابق عن مركزه قليلاً ، ولكنّه يجمع أكثر المعاني التّي تَقَدَّمت ، فيقول (٢):

وكأن بين النّقع لمعَ حديدها نارٌ تألّقُ من خلال دُخانِ
غطّى العجاجُ به نجومَ سمائه لتنوبَ عنها أنجمُ الخُرصانِ

ويبدو وكأنّ الشعراء لمحوا هذه الصورة ولم يتجاوزوها إلى غيرها .

٢) الغارة :

والغارة في ما توحيه اللّفظة ذهابُ سريّة في غزوة مستعجلة ، تَرجع أو لا ترجع محمّلةً بالغنائم ، وهي ليست عملَ جيش كبير ، واهتمامُ الشّعر بها بسبب سرعة الحركة ، أو الانقضاض ، واعتمادها على المفاجأة ، كقول ابن سناء الملك في غارات عساكر صلاح الدّين على بانياس (٣) .

يَشِنّ عليها غارةً بعد غارةٍ فقد أصبحت من شَنّ غاراته شَنّا
عَفَت وخَلَت من ساكنيها ديارُهم فلا مَعقِلٌ يُنشا ولا منزل يَغنى

وكقول تاج الملوك في أثناء مدحه لأخيه العادل (٤) :

ويومَ غارَتِنا لم أنسَهُ أبداً وقد تَيَقّظ قومٌ بعدما رَقَدوا
وأقبل الشوبكُ الممنوعُ جانبُه وقد أطافَت به الطّعانَةُ النُجدُ
ثمّ اجتنينا ببيض الهند ما غرسوا والنارِ ما زَرَعوا فيه وما حَصدوا
ثمّ ارتحلنا وخلّفنا ديارَهُمُ بَلا قعاً ليسَ إلاّ البومُ والوَتدُ

والغارة ضرب من الحرب ليس وقفاً على المسلمين دون غيرهم ، بل يشاركهم فيه الآخرون ، وقد

---

(١) د . عادل جابر ، شعر ابن القيسراني ـ جمع وتحقيق ودراسة ـ رسالة دكتوراه ـ الجامعة الأردنية ص ٦٧ .
(٢) الخريدة (بداية قسم الشام) : ٥٣ .
(٣) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ٣٢١ .
(٤) ديوان تاج الملوك : ١٣٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نزل نور الدين بعسكره في البقيعة تحت حصن الأكراد (٥٥٨ / ١١٦٣) فأغار عليه الفرنجة ، والمسلمون عنهم في غفلة ، وهذه الواقعة هي التّي عناها ابن الدّهان حين قال (١) :

وما يَعيبُك ما نالوه من سَلَبٍ ... بالقَتْل قد توتَرُ الآسادُ بالحِيل
وإنما أخلدوا جُبناً إلى خُدَعٍ ... إذلم يكن لَهُمُ بالجيش من قِبَل
واستيقظوا وأراد الله غفلتكم ... لينفُذ القدرُ المحتومُ في الأزل

أي أن ابن الدّهان يرى أن هذه الغارة التي لم يستطع نور الدين صدّها غنمت وعادت سالمة ، تشبه في طبيعة نتائجها الانتصار . والرّوح العامة في الأبيات هي الرّوح التي يقفها الشعر على وجه الاجمال إن كان يتحدث عن هزيمة أو خسارة ، إنّ طريقته العامة هي أن يحاول إيجاد مُسَوّغ يبني عليه مواساته للممدوح فيما خسره ، ويُعزّيه عن فقده .

٣) الكمائن :

ومن أساليب الحرب التّي استعملها المسلمون وكذلك الفرنجةُ ، اسلوبُ الكمائن ، ومثالُها الكمائن التّي أعدها الفرنجة للمسلمين في مقدّمة معركة مرجعيون (٥٧٥ / ١١٨٠) ، وفيها يقول سِبطُ ابنِ التعاويذي ★ (٢) :

كَمَنوا وكم لك من كَمين سعادةٍ ... في الغيب تَظهَرُ من وراء كَمينِ
فَهَوتْ نُجومُ سُعودهم وقَضى لهم ... بالنَّحس طائرُهم بمَرج عيونِ

ولكنّ الكمينَ « تكتيك » دقيق لا يمكن نقلُ صورته كاملةً في الشّعر ، وجُلّ ما هنالك أن يذكرَه الشّاعرُ ذِكراً في قصيدته ، وذكرُ الكمين في الشّعر محضَ ذِكرٍ لا يُضيف شيئاً إلى معرفتنا ، لأنّ كُلّ الناس يعرفون أنّ أسلوب الكمين موجود معروف .

٤) الاحاطة بالعدوّ :

وتُعَدّ خُطّةُ الإحاطة بالعدوّ من كلّ جانب من أكثر الخطط شيوعاً لدى المسلمين ، إذ كانوا حسب قول الدكتور سميل (٣) ـ يطبّقونها في حروبهم مع الفرنجة .

---

(١) خبر الحادثة في الباهر : ١١٦ ، والكواكب الدرّيّة : ١٦١ ، وكتاب الرّوضتين ١ : ١٢٧ ، والأبيات في ديوان ابن الدهّان : ٧٠ وفي خريدة القصر (قسم الشام) ٢ : ٢٨٩ .

(٢) ديوان سبط ابن التّعاويذي ، (محمد بن عبيد الله بن عبدالله) صحّحه مرجليوث ، دار صادر - بيروت (١٩٦٧) ص ١٢٣ .

(٣) فنّ الحرب عند الصليبيين : ١٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول الحكيم الجلياني واصفاً احاطة صلاح الدّين (٥٨٣ / ١١٨٧) بجيش العدوّ في حطّين (١) :

حَطّوا بِحطّينَ مُلكاً كافياً عجَباً ... في ساعَةٍ زالَ ذاكَ المُلكُ والقُدَرُ
أهوى إليهم صلاحُ الدّين مفترساً ... وهو الغَضَنفَرُ أعدى ظُفْرَهُ الظَّفَرُ
أَملى عليهم فصاروا وَسْطَ كَفَّتِه ... كَسِربِ طَيرٍ حَواها القانصُ الذّكَرُ

وقال ابن رواحة يصف الخطّة نفسها (٢) :

تَمَلَّكَ حولَهم شرقاً وغرباً ... فصاروا لاقتناصٍ تحتَ رَهْنِ
أطافَ عليهمُ من كُلِّ فَجٍّ ... قبائلُ يُقبلون بغير وَهْن
أقامَ بآلِ أيّوبٍ رباطاً ... رأت فيه الفرنجُ مضيقَ سِجنِ

٥) إقامة سَدٍّ بشريّ :

وإقامة سَدّ بشريّ لحماية المواقع التّى يقصد العدوّ احتلالها خُطّة مُتّبعة ، وقد لجأ إليها صلاح الدّين عندما علم أنّ الفرنجة قصدوا دمياط (٥٦٥ / ١١٧٠) ، وفي تلك المناسبة يقول فتيان (٣) :

ولَمّا أتوا دمياط كالبحر طامياً ... وليسَ له من كَثرة القومِ ساحلُ
رأَوا دونَها أُسْداً بأيديهمُ القَنا ... وبيضاً رِقاقاً أحكَمَتْها الصّياقِلُ
ودازوا بها في البَحرِ من كُلِّ جانب ... ومِن دونها سَدٌّ من الموت حائلُ

وقول فتيان : ومن دونها سَدٌّ من الموت حائل إشارة إلى هذا النّوع من الخطط .

٦) مشاغلة العدوّ :

ومن الخطط مشاغلةُ العَدوّ ، وهذه تتمّ على وجوه بحسب ما يلائم الظّرف والمكان ، فمن المشاغلة أنّهم يقسمون جيشهم إلى قسمين : قسم يتولىّ الموقع الذي يريدون الدّخول إليه ، وقسم يُرابط عن بُعد ويقوم بمشاغلة أيّة نجدة يمكن أن تأتي لفكّ الحصار على نحو ما فعل الفرنجة في حصارهم لدمياط (٦١٦ / ١٢١٩) (٤) .

---

(١) كتاب الرّوضتين ٢ : ١١٧ .
(٢) الخريدة (قسم الشام) ١ : ٤٩١ .
(٣) ديوان فتيان : ٣١٥ .
(٤) الإلمام : ١ : ١٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن المشاغلة تخريبُ هدف للعدوّ شُغلوا عنه في مكانٍ آخر ، فقد شُغل الفرنجة (٥٦٨ / ١١٧٣) بغارة في ناحية حوران ، فما كان من نور الدين إلاّ أن أرسل سريّة لتُهاجمَ أعمال طبريّة الّتي غاب حاميها، فأحرَقت السَّريّةُ ودمَّرَت ، وفي ذلك يقول العماد (١) :

أخَلوا بلادَهُمُ فَحَلَّ بأهلها ... منكَ الغَداةَ طوارقُ الحَدَثان
أنهَضْتَ حين خَلَتْ إليها عسكراً ... أخلى قواعدَها منَ البُنيان
وشَغَلْتَ جائشَهم بجيش هَدَّهُم ... فَجَنى ثِمارَ النُّصْرةِ الجيشان
عادوا وحينَ رأوا خَرابَ بُيوتهم ... يَئسوا مِنَ الأوطارِ والأوطانِ

وشبيهٌ بالخطّة السّابقة جَرُّ العدوّ إلى منطقة لتخلوَ منطقةٌ أخرى يتّخذُ منها المسلمون هدفاً لهجومهم (كما فعل زنكي يوم الرُّها ـ وقد أشرتُ إليه غير مرّة في هذه الدراسة) فقال ابن القيسراني (٢) :

فأضَرمَها نارين : حَرباً وخُدعةً ... فما راعَ إلاّ سورُها وانهدامُه

٧) **حصار المدن :**

وتمثّل أبيات ابن سناء الملك التّالية أنموذجاً لما يُقال في حصار المدن ، وفي إقامة سَدٍّ بشريٍّ أغلَقَ كُلَّ الطّرق إلى المدينة، وذلك في معرض حديثه عن حصار الفرنج لتبنين (٥٩٤ / ١١٩٨) ، إذ يقول (٣) :

جئتَ لِتبنينَ ، ومِن حَولِها ... قومٌ كأعداد الحصى للحِصار
سَدّوا عليها الطُّرْق حتّى لَقد ... كادوا يسدّون طريقَ القطار
ويَمّموا الثَّغرَ وطافوا به ... وأحدقوا كالغِلّ لا كالسِّوار
واجتمعوا حولاً وهم حَولَه ... مَدّوا كَسَيلٍ وأحاطوا كَنار

---

(١) ديوان العماد : ٤١٠ .

(٢) شعر ابن القيسراني (جمع عادل جابر) : ١٤٤ .

(٣) ديوان ابن سناء الملك ١ : ٢٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢ ـ صورة نتائج المعركة في الأدب

١) النّصر :

عَبّر الشعراء الزنكيون والأيوبيّون عن مشاعرهم تجاه النّصر بصور متعدّدة ، كما نرى مثلاً في ابتهاج ابن القيسراني بالنّصر في معرض مدحه لنور الدّين ، وقد كَسَرَ الفرنج على يَغْرا وهزمهم إلى حصن حارم (٥٤٣ / ١١٤٨) ، إذ قال (١) :

جَرّت بالنّصر أقلامُ العوالي ... وليسَ سوى النّجيعِ لها مِدادُ

وقول ابن المجاور ★ في فتح صلاح الدّين لبانيا (٢) :

لِلّه يومٌ عَروبةٍ إذ أعرَبَت ... ساعاتُه عن نَصرك المتَعرّفِ

ويتّخذ التعبير عن النّصر لديهم طرائقَ شَتّى ، من أهمّها ذكر انتصار الرّموز أحدِها على الآخر ، كعودة القرآن ليحلّ محلاً كان يشغله الصّليب ، في قول ابن السّاعاتي (٣) :

كَبا من أعاليه صليبٌ وبيعةٌ ... وشيّد بها دينٌ حنيفٌ ومصحفُ
صَليبَةُ عُبّادِ الصّليبِ ومنزلُ النـ ... ـزال ، لقد غادرْتَهُ وهو صَفصَفُ

وقريبٌ من هذا قول ابن مُنير في فتح حصن أفاميّة (٤) :

حَتّى اذا اشتَملتْكَ أشرقَ سُورُها ... عِزاً ، وحَلاّها سَناكَ سوارَها
خَرّ الصّليبُ وقد علَت نَغَماتُها ... واستَوْبَلَت صَلَواتُه تكرارَها

وقال ابن مُنير في فتح انطرسوس (٥٤٧ / ١١٥٢) (٥) :

رَفَعَ القصورَ على نضائِدِ هامِهم ... من بَعدِ ما جَعَل القصور قُبورا
بشَواحِب الألياطِ تقطو في الظّلا ... م قَطاً ، وتَهوي في الصّباح نُسورا (٦)
غادرت انطرسوسَ كالطّرس انمحى ... رَسْماً ، وحَمّر ردعُها يحمورا (٧)

---

(١) كتاب الرّوضتين ١ : ٥٦ .
(٢) المصدر السابق ٢ : ١٠٣ .
(٣) المصدر نفسه ٢ . ١٢ .
(٤) ديوان ابن منير : ٢١٦ .
(٥) المصدر السابق : ٢٤٤ .
(٦) شواحب الألياط : كناية عن القتلى ، تقطو : تقارب الخطو .
(٧) يحمور : بُليدة بالقرب من انطرسوس .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكنّى ابن السّاعاتي عن النّصر في حديثه عن انتصار المسلمين في طبرية (٥٨٣ / ١١٨٧) بِفَضّ الختام ووُلوج اللّيث العرين فقال (١) :

فَضَضْتَ خِتامَها قَسراً ومَن ذا ... يَصُدُّ اللّيثَ أن يَلِجَ العَرينا

٢) **الهزيمة** :

إذا مُني المسلمون بالهزيمة كان الحديث ينصَبّ على محاولة التقليل من آثار الفشل خشيةَ أن يتطرّق اليأس إلى النفوس ، وقد عَدّ بعضهم خسارة المسلمين استجابةً للحسَد ، والحسَدُ لا يكون إلاّ للقوّي وما ذاك إلاّ محاولة لتهدئة النفوس وطمأنتها، فَدَعا مَن ثَقُل عليهم أمرُ الخسارة إلى استمداد العظة والعبرة من يَوم حُنين، إذ قاتل المسلمون وهم كثرة، فانهزموا وفيهم خيرُ الخلق وخاتم الرّسل، فقال ابن الدهّان (٢) :

جيشٌ أصابَتهُمُ عينُ الكَمال ومَا ... يَخلو من العَين إلاّ غيرُ مُكتمل
لهم بيوم حُنَين أسوةٌ وهُمُ ... خيرُ الأنام ، وفيهم خاتَمُ الرُّسلِ

كذلك ذهب ابن سعدان الحلبي في محاولة للتقليل من شأن الهزيمة التي مُني بها المسلمون في الرّملة ، فأشاد بالأعمال التّي قام بها عسكر المسلمين في عسقلان في وقت سابق ، ثم وَجّه تهديداتِه إلى الصليبيين بالانتقام ، داعياً صلاح الدّين وجيشَه إلى عدم الرّكون إلى اليأس والاستسلام (٣) :

قَرّبْتَ من عسقلانٍ كلّ نائبةٍ ... باتت تُقَلّلُ بوَكّافٍ من الأسل
فاضَ النّجيعُ عليها وهي مُمْحِلَةٌ ... فأصبحت مرتعاً للخيل والإبِل
قُل للفرنجيةِ الخَذْلى رُوَيْدَكمُ ... بالثأر ، أو تخرجُ الشّعرى من الحمَل
ترقّبوها من الغَوّار طالعةً ... خوارقُ الأرض تمحو رونقَ الأُصُل
كأنني بِنَوا صيهنّ يُقدِمُها ... كاسٍ من الجود عُريانٌ من البُخل
حسبُ العدا يا صلاحَ الدّين حسبُهمُ ... أن يَقرِفوك بجُرحٍ غيرِ مُندَمِل
وهل يخافُ لسانَ النّحل ملتمِسٌ ... مَرّت على اصبعيه لذّةُ العَسَل

فيما وصف ابن القيسراني كسرة الفرنج على دمشق (٥٢٣ / ١١٢٨) ، فقال (٤) :

---

(١) كتاب الرّوضتين ٢ : ٨٤ .
(٢) المصدر السابق ١ : ٢٨ .
(٣) المصدر نفسه ١ : ٢٧٤ .
(٤) المصدر نفسه ١ : ٥٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وافـــوا دمـــشـــقَ فَظَنّـــوا أنّها جِدَةٌ ... فـــفـــارَقـــوهـــا وفي أيـديهـمُ الـعَدَمُ
وأيـقـنـوا مـع ضـيـاء الـصُّبح أنّـهـمُ ... إن لم يَـــزولـــوا سراعـــاً زالـت الخِـيَـمُ
فـغـادروا أكـثـرَ الـقُربـان وانـجـفَـلـوا ... وخَـلّـفـوا أكبر الـصُّـلـبـان وانهـزمـوا
مُـسـتَـسـلِـمِـيَن لأيدي المسلمينَ وقـدْ ... أغـــرى الـقَـنـابِـتَـمادي خَطـفِـسِهِم نَهَمُ

٣) اتفاقيّات الصُّلح والمهادنة :

ذكـر شـعـراء الـدّولـتين الزنكيـة والأيوبيّة بعض اتفـاقـات الهُدن في شـعـرهم ، دون تطرّق منهم إلى تفـصـيلاتها ، ولكنّهم قد يبيّنون الدّافع إلى الهدنة والمسالمة ، وهو في تقديرهم لا يعدو أحد أمرين : إلحاح الفـرنجـة في طَلَب الصُّلح جـرّاءَ الضّغط الواقع عليهم من المسلمين ؛ والاشفاقِ من سَفْك دماء المسلمين إن كان الطّرَف المقابل من المسلمين ، كما حصل في بعض المواقف .

وقـد رصـد الشـعـراء كـثيراً من المواقف التي ألَحَّ فيها الفرنجة بطلب الصّلح ، إمّا فكّاً لحصار ، أو تخلّصـاً من القـتل والبَوار ، بعد أن يكون المسلمون قد تمكّنوا منهم ، وفي هذا المعنى يقول ابن دُنَيْر (١) :

راسـوا بـحـيـث اطـلَـخـمّ الأمـرُ سـلـمَهم ... وقَد رأوا غـــارةً هـــانـــت لهَا الـغِـيَـرُ
لم يـطـلـبـوا الـسِّـلـمَ إلاّ بعـد علـمـهمُ ... بـــأنّ ســـيـــفَك لا يُـبـــقـــي ولا يَذَرُ

ويقول ابن الدّهّان (٢) :

ومـــا خـــضَـعَ الـفـرنـجُ لـذَيـلـكَ حَتّى ... رأوا مـــالا يُـطـــاقُ مـن الـكـفـــاح
ومـــا ســـألـوك عـقـدَ الـصُّـلـحِ وُداً ... ولـكـــن خـــوفَ مُـعـلَـمـــةٍ رَداح
مَلأْتَ بـــلادَهـــمْ سَهْلاً وحَزْنـــاً ... أُســـوداً تحـــتَ غـابـات الـرِّمـاح

ولعلّ أقـوى دعـوة لرفض الهدنة إنّما صدرت عن طلائع بن رُزّيك يحُذّر نور الدين من قبول الهدنة مع الفرنجة ، ويُذكّره بنقضهم للعهود دائما (٣) :

فـقـولـوا لـنـور الـدّيـن ليس لجـائف ال ... جـراحـات إلاّ الـكـيُّ في الـطبّ والبَـطُّ
فـدَع عـنـك سـيلاً لـلـفـرنـج وهُـدنـةً ... بـها أبَـداً يُـخـطـي سـواهم ولم يُـخطوا
تـأمّـلْ فـكـم شرطٍ شَرَطْتَ عـلـيـهـمُ ... قـديماً ، وكـم غـدرٍ بـه نُقِـضَ الشّرْطُ
وَشمّر فـإنّـا أعـنَـا بـكُـلِّ مـا ... سـألْتَ وجَـهّزنـا الجـيـوشَ ولـن يُـبـطـو

(١) ديوان ابن دُنَيْر : ٢ : ٦٩ .
(٢) كتاب الرّوضتين ٢ : ١٦ .
(٣) ديوان طلائع بن رُزّيك : ٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه ليست تحذيراً وَحَسْب وإنما هو وعد بالمؤازرة لدى استئناف الحرب ، وتحريضٌ على تحمُّل عبء القتال والمشاركة فيه .

وقال شرف الدين الأنصاري ★ ينفي عن ممدوحه الملك المظفّر تقيّ الدين صاحب حماة أن يكون قد جنح إلى السّلم جنوحاً فيه غُبن ، إذ إنّ هذا لا يليق بالمسلم ، استلهاماً من قول الله تعالى : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السَّلم وأنتمُ الأعلَون ، واللهُ معكم ولن يَتِرَكُم أعمالكم ﴾ (١) (محمّد : ٣٥) :

فما جَنَحْتَ إلى سِلـــمٍ عـــلى غُبُنٍ ولا قَـنِـعْـتَ بـإرهـابٍ وتَـهـديـدِ

أما الجنوحُ إلى السّلم حقناً لدماء المسلين واشفاقاً من أن يريق بعضهم دَمَ بعض ، فمنه ما قاله ابن القيسراني في نور الدين (٢) :

وقـد عَلِمَ الأعـداء مُذبِتّ جـانـحـاً إلى السِّلم ما تَنوي بذاك وما تَنحو

وقد ذكر الشعراء عدم التزام الفرنجة بعهود الصُّلح التي كانوا يوقعونها مع المسلمين في أحيان كثيرة ، ومن ذلك قول الجلياني (٣) :

وفَيْتَ لهـم حتّى أحَبّوك سـاطـيـاً فَهُم وَوَفـاءُ العَهد قَـيدُ المخاصِم
فـخـانـوا فـخـابـوا فـانـتـدَوا فـتـلاوَمـوا فـقـالـوا خُذلْـنـا بـارتـكـاب الجـرائم

وقال أسامة بن منقذ يصف غدر الملك بلدوين أحد ملوكهم (٤) :

فَـسَـلـه اللّـعينَ الخـائنَ الخـاتَـن الّـذي لَه الـغـدرُ ديـنٌ ، مـابـهِ صـنـعَ الـغَدرُ
دَعَتـــهُ إلى نَكْـثِ الـيـمـين وغـدرِه بـذمـتـه الـنـفـسُ الخـسـيـسَـةُ والمكـرُ

٤) الأسـرى :

كـان الحـديثُ عن الأسرى لدى شـعراء الدّولتين الزّنكية والأيوبيّة مجالاً للفخر ، ولا سيّما حين يكون الأسير ملكا أو أميراً ، أو ممن لهم شأنٌ ومكانة لدى قومهم ، فإيقـاع أمثـال هؤلاء في الأسر ، كـان يُنظر

---

(١) مفرّج الكروب ٤ : ٣٠٣ .
(٢) كتاب الروضتين ١ : ١٧٩ .
(٣) عيون الانباء : ٦٣٠ .
(٤) ديوان أسامة : ٢٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إليه على أنّه دليل اقتدار وتفوّق على الخصم ، وهذا ما نجده في قول أسامة بن منقذ (١) :

وفي سجننا الفتك خيرُ ملوكهم ... وإن لم يكن خيرٌ لديهم ولا برُ
أسرناهُ من حِصن العُرَيْمَة راغماً ... وقد قُتلَت فُرسانُه فهُمُ جُزُرُ

وفي قوله :

ونَحنُ أسَرنا الجوسَلينَ ولم يَكُن ... ليخشى من الأيام نائبَةً تعرو
وكان يَظُنُّ الغِرُّ أنّا نبيعُه ... بِمالٍ ، وكم ظَنّ به يهلكُ الغِرُّ

وقد يكون الحديث عن الأسرى مجالاً للهجاء ، موسوماً بالسّخرية والاستهزاء ، ولمّا كانت السخريّة من العناصر الفنيّة المتّميزة ، فإني سأرجيء الحديث عنها إلى القسم الخاصّ بالظواهر الفنيّة الكبرى من هذا الفصل .

ومثلما تحدّثت النصوص الشعرية عن الأسرى من الرّجال ، تحدّثت كذلك عن السّبايا ، وفيما وصف الشعراء الأسرى بالشجاعة والفروسيّة وعلوّ المنزلة في أقوامهم حيناً ، وبالذلّة والجُبن والصَّغار بعد هزيمتهم فأسرُهم حيناً آخر ، فقد أضفوا صفات الحُسن والجمال على سباياهُم ، ومن ذلك ما قاله الشّاغوري (٢) :

حَتّى لقد بيعت عَقائلُ أُرهقت ... بالسّبْي بالثّمن الأخسّ الأحقَر
فمن كُلّ حوريّ ضئيل موَشّج ... كالغُصن مِيّاداً ثقيلِ مؤزّر
وأوانسٍ مثلِ الشموس سوافراً ... من كاعِبٍ مثل الغزال ومُعصرِ

ومنه قولُ ابن سناء الملك (٣) :

ولَمْ يبقَ إلاّ مَن سَبى الجيشُ منهمُ ... وإن كان يَسبي الجيشَ بالحُدَق النُّجل
عَذارى أسارى كُبّلتْ بشُعورها ... فَجَرّحها في السّاق والمعصم العَبْل

ويعكس الشعر الصُّور المختلفة من معاملة أسرى الفرنج ، أعني : القتل والمفاداة والمَنّ ، فالقتلُ

---

(١) ديوان أسامة : ٢٠١ .
(٢) ديوان فتيان : ١٤٠ .
(٣) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ٢٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(أو التكحيل) في حال « جوسلين » أيّام نور الدّين ، يُمثّله قولُ أسامة بن مُنقذ (١) :

فَلَمّا اسْتَبَحْنا مُلْكَهُ وبِلادَه ... ولم يبقَ مالٌ يُستباحُ ولا ثَغرُ
كَحَلْناه نبغي الأجرَ في فِعلِنا به ... وفي مثلِ ما قد نالَهُ يُحرَزُ الأجرُ

والمفاداة في مرجعيون (٥٧٥ / ١١٧٩) يُعبّرُ عنها ابن سناء الملك بقوله (٢) :

وأضحى أسيراً بسادويلُ وغيرُهُ ... قُرونُ مُلوكٍ كم أبادوا لهم قِرنا
أُساري جُباري لا يُرجّون فديةً ... ولا يأملون الدّهر فكّاً ولا أمنا

ومع أنّ البيتين المتقدمينّ يمكن أن يُفهم منهما أنّ السُّلطان قد رفض الفداء في بداية الأمر ، إلاّ أنّ الأخبار أفادت أنّه قبلَ منهم افتداء أنفُسهم بالمال وبالافراج عن أسرى المسلمين (٣) .

والمنّ على الأسرى هو ما فعله الملك المعظّم عيسى إثر فتح دمياط وذكره ابنُ عُنَين بقوله (٤) :

لَقوا الموت من زُرق الأسنّة أحمراً ... فألقوا بأيديهم إلينا فأحسَنّا
وما بَرِحَ الإحسانُ فينا سَجيّةً ... توارَثها عن صيد آبائنا الإبنا
مَنَحْنا بقاياهم حياةً جديدةً ... فعاشوا بأعناقٍ مُقلّدةٍ منّا

وفي الحادثة نفسها قال بهاء الدين زُهَير (٥) :

وجاءَ ملوكُ الرّوم نحوكَ خُضّعاً ... تُجَرِّرُ أذيال المهانة والصُّغر
فَمَنَّ عليهم بالأمان تكرُّماً ... على الرُّغم من بيض الصّوارم والسُّمر

أمّا بالنسبة للسّبايا فلا يجوز قتلهنّ وإنما يَصرن رقيقاً للمسلمين وهذا ما أشار إليه الشعراء من عرض الأسيرات للبيع وكُنّ في بعض الأحيان لكثرة عددهن يُدَلّل عليهنّ بأرخص الأثمان فلا يجدن من يسومهنّ قال العماد (٦) :

سَبايا بلادُ السلّه مملوءةٌ بها ... وقد شُرِيَت بَخساً وقد عُرِضَت نَخساً
يُطافُ بها الأسواقَ لا راغبٌ لها ... لكثرتها كم كثرةٍ توجبُ الوَكسا

---

(١) كتاب الرّوضتين ٢ : ٨
(٢) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ٣٢١ .
(٣) كتاب الرّوضتين (دار الجيل) ٢ : ٨ - ٩ .
(٤) ديوان ابن عنين : ٢٩ .
(٥) ديوان بهاء الدين زهير : ١٢١ ، ١٢٦ .
(٦) كتاب الروضتين ٢ : ٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يذكر الشعراء في شعرهم الأسرى من المسلمين الذين كانوا يقعون في قبضة الفرنجة إلاّ قليلاً ، وذلك لأنّ الحديث عن الأسر والسّبي مُرتبطٌ عندهم بموضوعات المدح والفخر فإذا ما تحدّثوا عنه حاولواأن يُقللوا من شأنه ، مثلما فَعَلَ ابنُ الدهّان في أثناء حديثه عن إغارة الفرنجة على معسكر المسلمين قُرب حِصن الأكراد ، فذكر أنّ الفرنجة لم يتمكنوا من أخذ ما يبتغونه من الأسرى ، فإنّ جُلّ مَن أسروهم من الغلمان والسّوقة ، ولا مجال للفرنجة لأن يفخروا بأسر أمثال هؤلاء الناس ، قال ابن الدهّان (١) :

ومارَجَعْتم بأسرى ، خابَ سعيُكم غيرَ الأصاغر والأتباعِ والسِّفَلِ

٣ ـ أهم المعالم الفنية في أدب الحرب :

١) رسم حدود هذه الدراسة الفنيّة :

منذ الفتوحات الاسلاميّة الأولى لديار الشام ومصر والعراق عاش بين المسلمين جماعاتٌ من النصارى (المسيحيين) الذين ينتمون إلى مذاهب مُختلفة ، وقد وضعت تشريعات واضحة لطبيعة التعامل بين الفريقين ، كذلك دخلت دار الاسلام مع دار الحرب في علاقات متباينةٍ بين سلم وحرب ، ووُضعت تشريعاتٌ لتُحدد العلاقات التجارية والبروتوكوليّة وغيرها بين الدّارين ، ومن ثَمّ فإنّ المسلمين لم يكونوا بحاجة إلى أن ينتظروا قيام الحروب الصّليبيّة كي يفهموا شيئاً من عقائد النّصارى وعباداتهم وعاداتهم ، ليست الحروب الصليبيّة التي أفهمت المسلمين أنّ النّصارى يدينون بعقيدة التثليث (الأب ـ الإبن ـ الرّوح القدس) ولا هي التي أنبأتهم أنّ المسيحيين قُلف لا يختتنون ، وأنّهم يُعظمون الصليب (وبخاصّة الصليب الأعظم أو صليب الصَّلبوت) وأنّ لهم كنائس وأديرةً ضخمةً ذات مناره جميلة وأنّهم يُحلّلون شرب الخمر ، ويحلقون لحاهم .

كذلك ليس من المستغرب أن يَقتبس بعض الفرنجة حين يعيشون بين المسلمين عاداتٍ اسلاميّة ، وأن يُتقن بعضهم الحديث باللغة العربيّة وأن يتهادوا في وقت السّلم أشياء يقدّرونها جميعاً مثل : الصُّقور والبُزاة لأنها تستخدم في الصّيد ، وهو أمرٌ يولَع به الفريقان ، وأن يُقبلوا على التعامل التجاري فيما بينهم حين تُعلَن الهُدنة . وأن يَتَسيدَ فريق من مهارات يُتقنها الآخر وهكذا ، وكلّ هذا غير داخل في موضوع هذه الدراسة ، إذ الدراسة تحُدّدُ بالحرب وعلاقة الأدب بها و بفنونها ، وكُلّ ما يقع هنا من موضوعات إنما يُشير إلى علاقات اجتماعية او اقتصادية أو سياسيّة .

غير أنّه قد يهُمّنا أشياءُ قد أوجدَتها الحرب ، أو عملت في تعميقها أو كانت مجهولة فكشفت عنها ،

---

(١) ديوان ابن الدهان : ٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فإذا كنّا غير معنيين بتقديس الصّليب لأنه أثرٌ متعارَفٌ مشهورٌ قبل أن تبدأ الحروب الصليبيّة بقرون ، فإنّه يهمّنا أنْ ندرك أنّ الحرب عَمّقت التعبير بعبادة الصليب كما عَمّقت ايحاءات الاحتقار في استعمال كلمة « القُلف » . لقد بدأت الحرب الصليبيّة على أساس تعصُّبٍ عميق يستثير الكراهية فكان من الطبيعي أن تحمل الحربُ المواكِبةُ للتقتيل والتمثيل كُلّ أحقاد النفوس . ولعلّ المسلمين ما كانوا يُدركون تمام الإدراك معنى سيطرة البابا على الجمّ الغفير من معتنقي الدّيانة المسيحيّة ، فكشفت الحرب لهم عن هذه الناحية بوضوح ، ولعلّهم لم يكونوا على علم جلّي بمعاني مبادىء الفروسيّة عند الفرنج ، فأتاحت الحربُ لهم معرفتها ومعرفة المنزلة التي تحتلّها طبقة الفرسان بينهم ، ولعلّهم أيضاً اطّلعوا على صلة هذا التنظيم بالنظام الاقطاعي جُملة . ومع الزّمن كشفت لهم الحرب عن مزايا كثيرة أعجبتهم بل أدهشتهم في هؤلاء الأغمار الأجلاف .

لكنّ المسلمين وقفوا موقف الحيرة أو الدهشة أمام أشياء كثيرة صَاحَبت تلك الحملات الحربيّة أو نشأت بداعٍ منها ، منها تكوين منظمات مثل: فُرسان المعبد والاسبتارية والتوتونيّة ، ولم يكن مجُرد تكوين المنظمات مثار دهشة ، بل كانت الدهشة نابعةً من سؤال محُير هو : كيف تستطيع منظّماتٌ تعمل باسم الدين أن تكون على ذلك القدْر من الوحشيّة في معاملة الآخرين ، حَتّى لتكاد تكون مجردّة من أيّ شُعور إنساني ؟ ! وشَيءٌ آخر أذهل المسلمين ولم يجدوا له تفسيراً ، وهو ليس تحرّر المرأة الصليبيّة ، بل مدى تحرّرها بحيث تُقدّمُ نفسها قُرباناً عن طواعية ورضى ، واقترن ذلك لدى المسلمين بموت الغيرة لدى الرّجل الصّليبي ، وإنّ انعدام الغيرة يؤدي إلى الانحلال في المستوى الأخلاقي .

أشياء كثيرةٌ يمكن أن تستوقفنا ، ولكنّ هذه الدراسة قد تكفّلت ـ ما أمكنها ذلك ـ ببيانها من حيث علاقتُها بالحرب وفنونها ، ولستُ أرى في إثارتها من جديد إلاّ نوعاً من التكرار . لكنّ هناك نقطةً تتعلّق بالنواحي الفنيّة التي يعالجها هذا الفصل ، ولا بُدّ من إبداء الرأي فيها ، هل يجوز للدارس أن يعتقد ـ وهو يدرس فنّ الحرب في عصر ما ـ فصولاً أو فقراتٍ يدرُس فيها عناصر فنيّة مثل الاقتباس والتّضمين والجناس وما أشبه ذلك ؟

دَعني أقرر أولاً أنّه ليس لدينا قصيدة حرب كاملة تمثّلُ في سياقها الكُلّي ما يتصل بالمعركة والجيش وطريقة المواجهة . . . الخ ، وإنما يجيء الحديث عن الحرب في سياق المدح أو الرّثاء أو الفخر ، أي أنّ هنالك أبياتاً في كل قصيدة تتناول موضوع الحرب بحسب ما يقتضيه الموضوع الكبير أمدحاً كان أم رثاءً أم فخراً ، وتلك الأبيات المتّصلة بالحرب تخضع للقانون العامّ الذي يخضع له سائر القصيدة فهي ذاتُ نصيب من الاقتباس والتضمين والجناس وغير ذلك من المحسنات ، لا لأنها أبيات في الحرب ، بل لأن الشعر كُلّه أيّاً كان موضوعه مُعَرّضٌ لمثل تلك الظّواهر . ومن أجل ذلك أرى إفرادَها بالدّراسَة من هذه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النواحي إعطاءها تمييزاً لا تستحقّه .

غير أنّ جانباً مهمّاً أغفلته الفصول السّابقة ، وهو يتعلّق باللّغة أكثر مما يتعلّق بالأدب ، وأعني به ما دخل اللّغة العربيّة من ألفاظ جديدة بسبب اكتشاف أنظمة لم تكن معروفة مثل السّرجندية والبرجاسيّة ، وبسبب شيوع ألقاب لا تُترجم مثل البرنس والكُند والبارون وغيرها وبما أنّ الفصل بين هذه الألفاظ الفرنجيّة والألفاظ التي جاءت مع الأنظمة الحربيّة التركيّة والكرديّة غيرُ مُتيسر ، فإنيّ سأفرد لها مُلحقاً ، يتناولها على حروف الهجاء ، مع شرح موجز لكلّ مصطلح منها .

٢) دور العماد الأصفهاني في إشاعة بعض المعالم الفنيّة في أدب الحرب :

يُمثّل العماد الأصفهاني موقفاً متفرّداً بين شعراء هذا العصر وكُتّابه ، وهذا لا يعود إلى حُظوته عندصلاح الدين والقاضي الفاضل وحسب بل لاندماجه الكُلّي من الزاوية الادبيّة ـ في أحداث الحروب الصليبيّة وتطوّراتها ، ووقوفه موقفَ المُعَبّر الرّسمي عن تلك الحروب ، ومحاولته أن يدوّن تاريخها بأسلوب جديد ، ولذلك استطاع العماد أن يضع أصولاً كثيرة في أدب تلك الحروب ، وأن يكون رائداً في كثير من الأمور ، بعضُها تابَعهُ فيه غيرُه من الأدباء ، وبعضها استقلّ هو به ، وسأعرض هنا بعض تلك الأصول لأنها تُعين على دراسة الرّسائل الفنيّة التي ميزّت جانبا من أدب ذلك العصر .

(أ) : اشتقاق الجناس من أسماء الفرنجة :

للعماد الأصفهاني غَرامٌ بتحوير الأسماء والألقاب الأجنبيّة وصياغة أشكالٍ جديدة منها طلباً للجناس، فالقُمص (comes) قَمَّص والبرنس تَبَرنَس . . . وهكذا . ومن أمثلة ذلك قولهُ (١) :

فَرّ فَريريّاً وأزعجها ... نداء داويّها تَلَهُّفها

يُسطرُ مطرانها العذابُ كما ... يَردى بهدِّ السُّقوف أُسقُفُها

وقولُه (٢) :

لمّا رأى الداويُّ داوي دائه ... وَلىّ بطاعونٍ بغير طِعانِ (٣)

طَلَبَ الفريريُّ الفرارَ بِطُلبه ... مُتباعداً عن هُلكه المتداني

والهَنفري مذ هانَ فَرّ مؤملاً ... لِسلامةٍ والهونُ شأن الشّاني

باروا فبارونيُّهم بفنائه ... مودٍ وسَيِّدُهُم أسيرُ عانِ

---

(١) ديوان العماد : ٣١٠ .

(٢) المصدر السابق : ٤١٥ - ٤١٦ .

(٣) وردت داوي دائه في الديوان : روانداءه ، والصّواب ما أثبتّ وهو أكثر انسجاماً مع سياسة العماد التي تعتمد التشنيق، وأقرب الى المعنى .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه طريقة جرى عليها العمادُ في نثره وأمعن فيها كقوله (١) :

« فللداوية دويّ ، وللبارونية من البَوار في الهاوية هُوىّ ، وللاستبتار تَبار ، وما للفريرية من الموت فرار » . والأمثلة على ذلك كثيرة لديه، وهو يتعمّد بهذه الطريقة توليد الصُّور والمعاني ، ولكنه لا يتوقّف عند الأسماء والألقاب الأجنبية ، بل يحاول ذلك في مواقف مختلفة .

(ب) تَطلُّب الصّورة مهما يَبعُد مَطلَبُها :

لعلّ من الظواهر الفنيّة التي يحاول الشاعرُ أن يتميّز بها ، أن يفاجيء قُرّاءَهُ أو مستمعيه بصور لم تؤلَف من قبل ، وتلك تشهد له بالابداع والاختراع ، وقد يُوفَّق الشاعر في تصيّد المتباعدات ليصنع صورةً جديدة ، ولكنّ المحاولة نفسَها محفوفةٌ بالخطر لأنها كثيرا ما تجيء مفتعلة ؛ وللعماد الأصفهاني شغَفٌ باصطياد الصّور ، دون نظر إن كانت ناجحة أو مخفقة ، وهذه نماذج منها :

١ ـ ممدوحه يلعَب الصّولجان ، ولكنّه أحياناً يجعل السُّيوفَ صوالجَه ، ويجعل من رؤوس الأعداء كُراتٍ يلعب بها (٢) :

صوارمُه صوالجُه إذا ما ... رؤوسُ عِداهُ كانت كالكُرين

٢ ـ سهامُ الممدوحِ طيورٌ ، ولكنها تختار عيونَ الأعادي وكوناً لها (٣) :

وما لِطيورِ أسهُمه المواضي ... سوى مُقَلِ الأعادي من وُكونِ

٣ ـ عَدوُّ ممدوحه (تقي الدّين) له طَنينٌ كالذباب ، ولهذا يُسَلطُ عليه ذُبابَ سَيفه لِيُحدثَ فيه طنيناً (٤) :

عَدوُّك كالذُّباب لَه طَنينٌ ... وفيه ذُبابُ سيفك ذو طنين

٤ ـ الأسلحة كالعُشاق . فالرُّمح يشبه ناحلاً مُتلَوِّباً من سقمه ، والسيفُ الأبيضُ الذي يَرعُفُ دَماً يُشبهُ مُضنىً جُرح وجُرحُه ما زال نديّاً بالدمّ (٥) :

فالأسمرُ العسّالُ يحكي ناحلاً ... مُتَلوِّباً مِن سُقمه لم يَنَهِ
والأبيضُ الرّعافُ يشبهُ مُدنَفاً ... أِلِفَ الضّنا وأصابَهُ جُرحٌ صَهي

---

(١) الفيح القُسّي : ١٢٥ .
(٢) ديوان العماد : ٤٢٧ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر نفسه : ٤٢٩ .
(٥) المصدر نفسه : ٤٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنّ جِدّة الصّورة أو غرابتَها أمرٌ نسبيّ ، وكثيراً ما يمزجُ العمادُ التّصوير بطلب البديع فتجيء الصّورة لديه معقدّة كأنها أُحجيةٌ مثل قوله (١) :

أجفانهم نفَت الغِرارَ كما انتفى ... ماضي الغِرار بهم من الأجفانِ (٢)

ومن الحقّ أن يكون البحثُ عن الصورة الجديدة أو الغريبة شركةً بين الشُّعراء ولهذا يُمكن أن نعّد تصوير ابن منير لأقامية بأنها فتحَت فَمَها ، فهتمه الممدوح (٣) :

فَغَرَت أقاميةٌ فَمَها فَهَتَمْتَه ..... .

من الصّور الغريبة ؛ ومثل ذلك صورةُ أخلاف المنيّة عند ابن الدهّان (٤) :

وفي يوم بيسانٍ سقيتَهُمُ الرّدى ... وغادرتَ أخلافَ المنيَّةِ حُفّلا

ولدى طلائع ابن رُزّيك صورةٌ تجمع بين الجمال والغرابة ، وهي أنّ الفرنجة كاتَبوا يطلبون الصّلح ، والردُّ الأمثل عليهم هو إرسال سطورٍ من خيل إليهم (٥) :

وقد كاتَبوا في الصُّلح لكنْ جوابُهم ... بحَضرتنا ما يُنبتُ الخطّ لا الخَطّ

سطورُ خُيولٍ لا تَغِبُّ ديارَهم ... لها بالمواضي والقنا الشكلُ والنّقط

وكثيراً ماتجيء الصورة مألوفةً لا غرابة فيها ، وتمثل عنصراً مهمّاً في تكبير المنظر أو توضيحه ، فالصّور التي وضَعها الشعراءُ للجيش الإسلامي أو الصّليبي كثيرة متنوّعة ، ولكنك تستطيع أن تردّ أكثرها إلى نوعين من الصّور : صورٍ مائية وصورٍ حيوانيّة ، فالجيشُ كالبحر لدى كُلّ من ابن القيسراني والعماد ، أو كالسّيل عند ابن الدهّان ، أو كالطّوفان عند القاضي الفاضل (٦) .

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ١ : ٨٥ .

(٢) الغرار الأولى : النوم القليل ، والثانية : حدّ السيف .

(٣) ديوان ابن مُنير : ٢١٦ .

(٤) ديوان ابن الدهّان : ٣٩ .

(٥) ديوان طلائع بن رُزّيك : ٨٤ .
وانظر كذلك ديوان أسامة بن منقذ : ١٧٧ .

(٦) هذه هي الابيات على التوالي :

★ أجريتَ بحراً من المذاقِ معتكِرا ... أمواجه بأواسي اليأس تلتطم
(كتاب الروضتين ١ - ١ : ٥٤) .

★ قد كان جيشكم كبحرٍ زاخرٍ ... واللابسون جَواشِناً حيتانُه
(كتاب الروضتين ١ . ٢٥٦) .

★ بحجافلٍ مثل السّيوفِ تَدافَعت ... وإذا السيولُ تدافَعَت لم تُدفع

★ وَطِئَتْهُمُ رُعْماً فلَم يُغنِ حَشدهُم ... ومَن ذا يَرُدُّ السيلَ مِن حيث أقبلا
(ديوان ابن الدهّان : ٣٠ ، ٣٩) .

★ سفينةُ نوحٍ ما ركبتَ وعسكرٌ ... كطوفانه ، والشّامُ بالفَتح قد نُودي
(ديوان القاضي الفاضل ١ : ٢٦١) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمـا تشبيهُ الجيش بصور حيوانية ، فقد ورد عند ابن مُنير حين شبّه الجيش بالأسود (١) .

دَلَفَت لهـا تـقـتَفـيـك الأسـودُ والـبـيـضُ والـسُّـمـرُ آجـامُـهـا

وقال ابن منير أيضاً في قصيدة أخرى (٢) :

زارَهـا يَزارُ في أُسـد وَغـىً تُبـدلُ الأُسـدَ مـن الـزَّأْر الأنـين

كـذلك شبّه ابن القيسراني جيش الفرنجة بالأسود ، في أثناء حديثه عن وقوع عدد كبير منهم أسرى في قبضة الملك العادل نور الدين (٣) :

مـن بـاتـت الأسـد أسرى في سـلاسـلـه هـل يـأسِـرُ الـغُـلـبَ إلاّ مَن لـه الغَلَب

وشبّه العماد جيش الفرنجة بالذئاب (٤) :

أقـامـت بـغـاب الـسّاحِـلَـيْـنِ جنودُكم وقـد طُردت عـنـهُ ذئابهُم الـطُّلُسْ

وشبّه العِرقلة الكَلبي ★ جيش نور الدين بالثّعالب (٥) :

يـظـنّ صـلاحُ الـديـن فـرسـان جِلـقٍ كَفُرسـانـه مـا الأُسـدُ مـثـلُ الـثّعـالـب

وشبّه الرّشيدُ النّابُلسي جيش النّاصر صلاح الدين بالنّمور (٦) :

زاروا نـمـوراً ولا تُغـنـي وَقـاحَتُهـم إذا أسـودُك في أبـطـالهـم زَأروا

وشبّه العماد جيش صلاح الدين كذلك بالأفاعي تُنشِبُ أنيابها في رقاب الأعداء (٧) :

غَداة أُسودُ الحرب مُعتَقِلو القَنا أسـاودُ تبغي من نـحُور العِدا نَهْسا

---

(١) ديوان ابن مُنير : ١٩٥

(٢) المصدر السابق : ١٩٩

(٣) كتاب الرّوضتين ١ : ٥٩ .

(٤) المصدر السابق : ٢ : ١٠٢

(٥) المصدر نفسه ١ : ٩٥ (وصلاح الدين هنا هو الياغسياني) .

(٦) المصدر نفسه ٢ : ١٩٤

(٧) المصدر نفسه ٢ : ٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكنّ تكرار هذه الصّور ، لا يسمح لها بتجدُّد تأثيرها ، لأنها سرَعان ما تصبح مُبتذلة .
وهذه مجموعة أخرى متنوعة من الصّور ، تصلح أن تُقارَن ببعض ما تقدّم:
يقول ابن سناء الملك (١) :

تزاحمَت الأبطالُ فيه فخُرّقت ... ثيابٌ لها من عَهد داوَد تُلبسُ

ويقول كذلك (٢) :

ومن شادَ داراً للجهاد فأصبحت ... بها الرّمحُ يبني والحُسامُ يهُندسُ

ويقول فتيانُ الشّاغوري (٣) :

أتوْك وأفواهُ المنايا فواغِرٌ ... لِتبطعَنَهم شَزراً وتضربهم هَبرا

ويقول (٤) :

سنا بكُها عزّت بإذلالك العدا ... فداست خُدوداً كُنّ من عِزها صُعراً

ويقول كذلك (٥) :

إذا ما اشتكت يوماً أسِنَّتهُم صدى ... فليسَ لها إلاّ الدماءَ مناهلُ

ويقول ابن منير (٦) :

ضَحِكَت لكَ الأيامُ واكتأبَ العِدا ... قَلقاً ، فجِئتَ مبشراً ونذيرا

والحديث عن الصورة وتنوّعها يطول ، ولكني أكتفي بما أوردتُ مضيفاً بعض صُورٍ وردَت لدى العماد في النّثر ، والمقصود منها الاغراقُ في التكبير ، وذلك قولهُ (٧) : « وبُحورُ السّوابح مُتموِّجة ، وغُدران السّوابغ مُترجرجة ، وبوارقُ البيارقِ متبوِّجة » .

---

(١) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ١٧٣
(٢) المصدر السابق ٢ : ١٧٢
(٣) ديوان فتيان الشاغوري : ١٤٨
(٤) المصدر السابق : ١٤٨
(٥) المصدر نفسه : ٣١٥
(٦) ديوان ابن مُنير : ٢٤٦
(٧) الفتح القُسّي : ٨٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(جـ) العماد الأصفهاني والألوان

استطاع العماد الأصفهاني أن يكثر في شعره ونثره من استخدام الألوان ، حتى لَيُمكن أن يُقال أنّه اكتشف « لعبة فنيّة » . ولعل سبب اكتشافه لها أنّه منذُ البداية وقف يطيل النظر عند تعدّد ألوان الرايات في ساحة القتال ، ذلك أنّ الرايات هي البديل الاصطناعيُّ لتعدّد الألوان في الطبيعة ، مع فرق أساسي هو اقترانها بشعور العظمة الانسانية أو المجد الحربي ، كما أنها تُمثّل ايجادَ ربيعٍ متنوّعِ الألوان في غير أوان الربيع، يقول العماد في الرّايات (١) :

وكتيبةٍ مثلِ الرّياض كأنما ... رايـاتُـهـا منـشـورةٌ أزهـارُ
وكأنما خُضُر البيارق للقَنا ... وَرَقٌ وهـامـاتُ العِداة ثـمـارُ
وكمائمُ الأعماد عـن زُهـر الظُبـا ... فُـتِـقَـت فـكُـلّ صَقيلةٍ نُـوّار

لذلك فإننا إذا نظرنا إلى أصل « لعبة اللّون » هنا وجدناها نتاجاً حربياً ، وممّا يؤكد صِلتها بالرّايات قولُه (٢) : « ورايـاتٌ صُفر تخفق بعذبات الياسمين ، وألويةٌ حمر كشقائق النعمان » . أمّا التجمعاتُ اللّونيةُ التي تصنع مَرجاً متعدّدَ الألوان ، وإن كانت ملَوّنةً من عناصر متباعدة فهي قولُه (٣) : « حتى انتظمت له كتيبةٌ شهباء ، وبهمة دهماء ، ولاحت له غُرّةُ النّصر وهي بيضاء ، وسُقي بماء المنون الهادمة وصوارمُه وهي حمراء ، وساروا وليلةُ العَجاج في يوم الهياج سوداء ، والخضراء من وَقع الحوافر ونقع الحوافر (٤) غبراء » . ويُخيّلُ العماد أنّه في كُل مرّة يرسم حديقة من ألوان معيّنة ، وأنّها في الظاهر جميلة ، ولكن عند التفتيش نجد أنّ جمالها مُستَمدّ من الزّهو بالنّصر وحسب، كقوله (٥) : « وأضرمْنا منهم نارَ الحديد الأخضر في الوريد الأحمر ، وروّينا دماءَ البيض والسُمر بدم العدوّ الأزرق من بني الأصفر ، فما ابيضّ يومُ النّصر حَتّى اسودّ بالنقع جَوّه . وما أزهرَ نورُ الشقائق حتى مَطَر بوْبل النبْل نَوْه . . . » .

ومن نماذج لعبة اللّون في شعره قوله (٦) :

بنو الأصفر الافرنج لاقو ببيضه ... وسُمر عواليه منايـاهُـمُ حمرا
وما أبيضّ يوم النّصر واخضَرّ روضهُ ... من الخصب حتى اسودّ بالنقع واغبرّا

---

(١) ديوان العماد : ١٦٤
(٢) الفتح القُسّي : ٧٣
(٣) البرق الشّامي ٣ : ١٦٢ - ١٦٣
(٤) الحوافر الثانية : جمع حافرة وهي الطريق
(٥) المصدر السابق ٣ : ١٧٠
(٦) ديوان العماد : ١٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأمثلة ذلك كله كثيرة في شعره ونثره . وقد تجد هذه الطّريقة عند غيره ، ولكنّ الشعراء الآخرين أقلّ منه إلحاحاً على الإيغال في رسم الصّور اللونيّة ، وأكثرُ ما يعتمدون على التّداعي والمقابلة بين لونين ، كقول ابن السّاعاتي (١) :

وما رجعَت أعلامك الصُّفرُ ساعةً ... إلى أن غَدَت أكبادها السّودُ تَرجف

أو كقول فتيان الشاغوري (٢) :

رايـاتـه صُفـراً يَرِدْن وتـنـثـنـي ... حُمراً تمـجّ نـجـيـعَ آل الأصـفـر

(د) قصّة الرحلة العماديّة بين الشام ومصر ومغزاها الفني :

قد تكون الغاية الظاهريّة من ايراد قصة هذه الرحلة أن يقول الشاعر بعد أن يختم المنازل التي أوصلته إلى هدفه أنّه بلغ كعبة النّدى ، إلى الرّجل الجواد الذي يُكاثر بجوده الرّمل ، يعني صلاحَ الدّين . ولكنّ هذا الهدف هو أبسط الأهداف مثلما أنّه أوضحها ، ولدى العماد أهدافٌ أخرى منها إصراره على أن يكون توحيدُ مصر والشّام من أهداف هذا السلطان ، ومن أهدافه الأخرى أن يظّل يذكر مدى تعلّقه بمصر التي ترمز إلى القاضي الفاضل ومكانته فيها ، هذا إلى نزعة خاصّة لدى العماد في ولَعه بترديد أسماء المواقع الجغرافيّة ، لأنّ في ترديدها ، وهو الغريبُ عن الشام ومصر راحةً نفسيّة له ، ونَفياً للشعور بالاغتراب ، ثم إنّه في قصّة هذه الرحلة يستعيد ظاهرة أدبية كانَ من أوّل رُوّادها أبو نُواس ، وهذا نموذج من رحلة له قام بها من الشام إلى مصر (٣) :

تـرَكـنـا دمـشـقـاً والجنانُ وراءنا ... وقد أمّـنـا بـالـكُسوة الرفـقـةُ السفـرا
وجئنا إلى المرج الـذي طـاب نَشرهُ ... فـلا زال مـن أحـبـابـنـا طَيّباً نَشرا
رَحَلنا بمَرج الصُّفر العيسَ غُدوةً ... فسارت وحَطَّت في مَحجّتها ظُهرا
وقد قطعت تُبنى إلى الدّير بعدها ... وما عَرّست حَتّى أناخت على بُصرى
نـزلـنـا الدّنـاحَ والجلاعبَ بعدَها ... وبـعـدهما غُدرَ البَشـامـيّة الـغُزرا
ورأسَ الجَشا والقَريتَين وكُلّها ... مواردُ فيها السُحبُ قد غادَرَت غُدرا
وَرَدْنا من الزيتون حُسْمى وأيلةً ... وجُزنا عـقـابـا كـان مسلكُها وَعْرا

(١) ديوان ابن السّاعاتي ٢ : ٤٠٩
(٢) ديوان فتيان الشاغوري : ١٤١
(٣) ديوان العماد : ١٥٦ - ١٥٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ألى قُـلَّـة الـرّاعـي إلى نـابـعٍ إلى ... جـراولَ فـالـنَّـخـلِ الـذّي لم يزل قَفـرا
إلى مـنـزلٍ في روضـة الجَمَل اغـتَـدَت ... بـه عِـيـسُنا في صَدر شـارحـه صـدرا
ودَون حَشـا لمـا حـشَـشْـنـا رِكـابَـنـا ... عُـيـونٌ لموسـى لم يزَل مـاؤهـا مُـرّا
هـنـالك تـلقّـانـا الـوفـود بِـبـرِّهـم ... فَـسُـرّوا بـنـا نَفـسـاً وزادوا بـنـا بـشراً

أمـا مـا هو الأصل الأدبي الذي يؤسـسه هنا العماد ، فأصلٌ يتّصل به ولا يتعدّاه إلى غيره ، وذلك أن قـصّة الرّحلة هي سرَد بسـيط للمنازل ، وذلك يريحه هو من طلب الصّور المعـقّدة ويُسلمه إلى البساطة التي يكاد يفـتقدها بكثرة محاولاته الخروجَ على المألوف .

(هـ) التدرُّج في الغاية :

قـد يكون شـعـراء آخـرون قبل العماد مثلُ ابن القيسراني وابن مُنير وغيرهما ألحوا على أنْ لا بُدّ من فتح القـدس وردّها إلى حظيرة الإسـلام بغَضّ النظر عَمّن هو القـائد المخـاطَبُ بذلك ، فقد كان التحريض على استردادها يدلّ على مكانتـهـا الخـاصّة في نفوس المسلمين ، كما كان يوحي بالثقة في القائد ، ويشير أحياناً إلى قـدرة الشاعر على التنبؤ بما يخبئه المستقبل ، فمنذ عهد مبكر كان ابن مُنير يقول لعماد الدّين زنكي (١) :

وغـدا يُلـتـقـى عـلـى الـقـدس لهـا ... كَـلـكَـلٌ يَـدرُسـهـا درسَ الـدريس

ثم يقول لابنه نور الدين (٢) :

حـتّى نـرى عـيسـى من الـقـدس قـد ... لجـا إلى سَـيـفـك مُـسـتَـنـصِـرا

ويتّخذ ابنُ القيسراني نغمة التّحريض القويّ في قوله لنور الدين (٣) :

فـانهض إلى المسجد الأقصى بذي لَجَبٍ ... يـولـيك أقـصى المنى فـالـقـدسُ مـرتقبُ

ويقول له ايضا (٤) :

وقـد أصـبـح الـبـيـت الـمـقـدّس طـاهراً ... ولـيـس سـوى جـاري الـدّمـاء لـه طُهـر

---

(١) ديوان ابن منير : ٢٠٠
(٢) المصدر السابق : ٢٠٨
(٣) كتاب الروضتين ١ : ٥٩
(٤) المصدر السابق ١ : ٧٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يدرك الشاعران عصر صلاح الدين وإلاّ لاستمرّا في ترديد هذه الأمنية أو الحضّ على تحقيق ذلك الهدف . ولكنّ العماد ورث هذه الدعوة وجعلها ديدَنه ، لا يَسأمُ من تكرارها ، لأنّ في تكرارها إيماناً بالبَطَل الممدوح وغيرةً على الاسلام ، فهو يقول مُوجّهاً الخطاب إلى أسد الدين شيركوه (١) :

فتحتَ مصر وأرجو أن تَصيرَ بها ... مُيسِّراً فتحَ بيت القدس عن كثب

ويقول مخاطباً نور الدّين (٢) :

أبشرِ فبيتُ القُدس يَتلو مَنبِجاً ... ولَمَنبجٌ لسِواه كالأنموذج

ويقول أيضاً في قصيدة يمدح بها نور الدين (٣) :

وطَهّرْ القدسَ من رِجس الفرنج وَثِبْ ... على البُغاث وُثوبَ الأجدلِ القَطِم

وحين فُتِحت القدسُ وتحقّقت أمنية العماد ، أخذ يحاول إبراز شيئين : عظمةِ الفَتح ، وقد خَصّص لوصف هذه العظمةِ كُتُباً ، والتدرّج في التحريض على حيازة ما تبقّى من المدن والمعاقل والحصون . ففي إبراز عظمة ما أدّاه الأيّوبيّون باسترداد القدس تَراه يقول للملك الأفضل عليّ بن صلاح الدّين (٤) :

والقدسُ أعضَلَ داؤه مِن قَبلكم ... فَوَفَيْتُمُ بشفاء ذاك المعضل

دَرَجَ الملوكُ على تمنّي فتحِه ... زَمناً وغُلّتُهم به لم تُبلَل

وأتى زمانُكمُ فأمكنَ آخراً ... ما قد تعذّرَ في الزمان الأوّل

ما كان قَطُّ ولا يكونُ كفتحِكم ... لِلقدس في الماضي ولا في المستقبل

وفي التحريض على استكمال الفَتح يقول (٥) :

قُلْ للمليك صلاحِ الدّين أكرمَ مَن ... يمشي على الأرض أو مَن يركب الفَرَسا

مِن بعد فتحِكَ بيتَ القدسِ ليس سوى ... صُورٍ فإنْ فُتِحَتَ فاقصِد طرابُلُسا

أثِر على يوم أنطرسوسَ ذا لَجَبٍ ... وابعثْ إلى ليلِ أنطاكيةَ العَسَسا

وأخْلِ ساحلَ هذا الشّامِ أجمعَه ... مِن العُداةَ ومَن في دينه وَكسا

ولا تَدَعْ منهمُ نَفْساً ولا نَفَساً ... فإنّهم يأخذون النفسَ والنَّفَسا

---

(١) ديوان العماد : ٨٠

(٢) المصدر السابق : ١٠٢

(٣) المصدر نفسه : ٣٨٢

(٤) المصدر نفسه : ٣٥١

(٥) المصدر نفسه : ٢٢٨ - ٢٢٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي هذا كُلِّه كان العماد كأنّما يرسم خُطّةً مُتدرِّجةً لأعمال الفتح بعد سقوط القدس ، ويحاول أن يبثّ الثقة في نفس القائد ونفوس جيشه . ولم يكتف أيضاً بذلك ، بل صعد إلى درجة جديدة ، هي فتح ما تبقى من العالم المشرقيّ غير خاضع لسيطرة الأيّوبيين (١) :

ودَمِّرْ على الباقين واجتَثَّ أصولَهم ... فإنَّكَ قَدْ صَيَّرتَ دينارَهم فَلسا

وإنّ بلاد الشرق مُظلِمةٌ فخُذ ... خراسان والنهرين والتُرْكَ والفُرسا

وبعدَ الفرنج الكرْجُ فاقصِدْ بلادَهم ... بعزمك واملأ من دمائِهِمُ الرَّمْسا

وهكذا تَفوّقَ العمادُ على كُلّ من سبقه أو عاصره من الشعراء في فهم روح التدرُّج ، وفي جَعل آمالِ الشِّعر مواكبةً لأهداف المعركة ، وفي هذا الموقف يتجلّى التآزرُ بين القائدِ والشاعر في الرّبط بيْن العمل المُخلص والقول المُخلص .

٣) معالم فنّية عامّة :

(أ) الرّبط بين الماضي والحاضر :

يقوم الأدب على تواصل تُراثيّ مُستمرّ ، فَيُصبحُ الماضي بأحداثه وشخوصه وأمكنتِه مجموعات من الرّموز الكبرى الّتي يُقاس عليها غيرُها . فمعركةُ بَدْرٍ تُمثّل فتحاً عظيماً في مسيرة الدعوة الاسلامية ، ومعركة عمورية تُعدُّ محورَ انتصارٍ للمظلوم ، ولهذا تغدو كُلٌّ منهما معياراً يُقاس به ما سِواه ، وبخاصة إن كانت هناك معالم شَبَه بين الحادثتين . بل إنّ قصيدةً مثلَ قصيدة أبي تمّام في عمورية تُصبح مقياس المستوى الجميل في الحديث المَلحَميّ الشّعري عن فتح مدينة ، وبها يُقاس فَتح الرُّها أو فتحُ القُدس أو غيرُهما ؛ وتَستعيدُ ذاكرةُ الشّاعر مقام عمرَ بن الخطّاب وهو يَستَعيدُ القدس ، بمقام صلاح الدين ، مع الفرق الواضح بين السّلم والحرب ، ولهذا يُعَدّ الرّبْط بين الماضي والحاضر من أهم الظّواهر الفنيّة التي تبعَثُ على الارتياح عن طريق المقارنة والمقايسة .

وسوف أعرضُ هُنا لنماذج من هذا الرّبط ، محاولاً أن أستكثرَ من الأمثلة ما استطعت :

فأوّلُ ما استرعى نظري أنّ العماد الكاتب ربط بين فتح القدس على يد صلاح الدين ، وتطهيرها من الصُّلبان ، وبيْن فتح مكّة في عهد الرّسول صَلّى اللّه عليه وسلم ، وتطهيرها من الأصنام والصّلبان ، إذ يقول (٢) :

نَفى من القدس صُلباناً كما نُفيَت ... مِن بَيت مكّة أزلامٌ وأنصاب

---

(١) ديوان العماد : ٢٣٣

(٢) كتاب الرّوضتين ٢ : ١٠٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وربَط الجلياني بَين الفَتحين ، فقال (١) :

إذا صفِرَت من آلِ أصفر ساحةُ الـ ... مقدّس ضاهت فتحَ أمّ القرى قِدما

فيما رَبَط غيرُهما بين فتح القدس في عهد صلاح الدّين ، وفتح الفاروق عُمَرَ لَهَا : وذلك هو ابنُ السّاعاتي الذي يقول (٢) :

هو الفاتحُ البيتَ المقدّسَ بعدَما ... تحامَتْه ساداتُ الدُّنا ومَسودُها

فضيلةُ فَتحٍ كان ثاني خَليفةٍ ... من القوم مُبديها ، وأنتَ مُعيدُها

وربَط الجلياني بين فتح طبريّة ووقعةِ حِطينَ ، وبينَ فُتوحات القادسية في عهدِ عمرَ بنِ الخطّاب ، فقال (٣) :

أما رَأيتُمُ فُتوحَ القادسيّة في ... أكنافِ لُوبيةَ تجلى وذا عُمَرُ

وشبّه ابنُ مُنير فتحَ الرُّها على يد عماد الدين بفتح الخليفة المعتصم لعمورية في النصف الأوّل من القرن الثالث الهجري ، فقال (٤) :

يهدي بمعتَصم بالله فتكتَهُ ... حَديثُها نَسَخَ الماضي وأنساه

إنّ الرُّها غيرُ عمّوريةٍ وكَذا ... مَن رامَها ليسَ مغزاه كمغزاهُ

ولم يقتصر الرّبطُ على تاريخ الإسلام ، وإنّما تعدّاه إلى حوادث وقعت قبل الإسلام ، ومن ذلك الرّبطُ بين ما انتابَ اليهودَ في بيت المقدس على يد (بُختنصّر) وبين ما لحقَ أصحاب دمشق المتآمرين مع الفرنجة على يد نور الدّين . يقول ابنُ مُنير (٥) :

وأُقسِمُ ما ذاقَ اليهودُ بابليا ... وموضِعها من بُختنصّر أسوَدُ

ومنه كذلك رَبطُ الحكيم الجلياني حضورَ أبناء صلاح الدّين من مصر إلى الشّام ، بانتقال أنصار نبيّ الله موسى من مصر إلى فلسطين وتيههم في الصّحراء ، فيقول (٦) :

أسباطُ يوسفَ من مصر أتَوا ولهَم ... من غير تيهٍ بها سَلوى وإمنانُ

---

(١) كتاب الرّوضتين ٢ : ١١٦

(٢) المصدر السابق ٢ : ١٠٧

(٣) المصدر نفسه ٢ : ١١٧

(٤) ديوان ابن مُنير : ١٩٦

(٥) المصدر السابق : ٢٣١

(٦) كتاب الروضتين ١ : ١١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وشبّه سعيدٌ الحلبيّ اذعان ابن تَيسانَ صاحبِ آمد واستسلامه لصلاح الدين بإذعان الزبّاء لقصير بن سَعد اللّخمي ، فقال (١) :

وأنزَلْتَ بالكُرهِ ابنَ تيسانَ مُحرَجاً ... كما أنزل الزبّاءَ كُسرهاً قَصيرُها

ومثل الذي فعل الشعراء فعل الكُتّابُ ، فقد استخدموا أسلوبَ الرّبط بين الحوادث الكبرى في زمنهم والحوادث التاريخيّة المشابهة ، ومن ذلك الرّبطُ بين بعض فتوحات صلاح الدين والفتوحات الاسلامية الأولى في عهد الرّسول صلى الله عليه وسلّم وصحابته ، قال العماد (٢) : « وخوطِبَ النبيُّ بقوله: (ولقد مَنَنّا عليك مرّة أخرى) فالأولى في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلمّ والصّحابة ، والأخرى هذه الّتي عُتِقَ فيها من رِقّ الكآبة . . » .

وقال القاضي الفاضل رابطاً بين انتصار المسلمين في حلب على يد صلاح الدين وبين معجزة انتصار المسلمين في بدر (٣) : « وثاروا إلى الملاعين بالعَزم الجَري ، ذاكرين مُعجزةَ اليوم البَدري» .

وربط القاضي الفاضل كذلك بين قصة ركوب الفرنجة البحر الاحمر لغزو مقدّسات المسلمين في مكّة، وقِصّةِ أصحاب الفيل الّذين زَحفوا بقيادة أبرهة لاجتثاث البيت الحرام ، فقال (٤) : « ورَجوا أن تشحَذَ البصائرَ آيةٌ كآية هذا البيت إذ قصده أصحاب الفيل ، ووَكلوا إلى اللّه الأمر ، وكان حسبَهم ونِعمَ الوكيل » .

ويقرب من هذا ما شاع عند الشعراء بصورة خاصّة ، من تشبيههم لقادة المسلمين على أرض مصر والشام في زمنهم بقادةِ عظام سابقين ، فقال الجُوّاني ★ مخاطباً صلاح الدين (٥) :

يا يوسفُ الصّديقُ أنتَ لفَتحها ... فاروقُها عُمرُ الإمامُ الأطهرُ

ولأنتَ عُثمانُ الشريعةَ بَعدَه ... ولأنتَ في نصر النبوّة حيدَرُ

وقال العماد في أسد الدين شيركوه (٦) :

أصبَحْتَ بالعدل والإقدام منفرداً ... فقُل لنا : أعِلّي أنتَ أم عُمَرُ

اسكندَرٌ ذكروا أخبارَ حكمته ... ونحنُ فيك رأينا كُلَّ ما ذَكَروا

ورُستُمٌ خبّرونا عن شجاعته ... وصارَ فيكَ عَياناً ذلك الخَبَرُ

---

(١) كتاب الروضتين ٢ : ٣٩

(٢) المصدر السابق ٢ : ٨٩

(٣) البرق الشامي ٥ : ١٤١

(٤) المصدر السابق ٥ : ٧٣

(٥) كتاب الرّوضتين ٢ : ١٠٥

(٦) المصدر السابق ١ : ١٤٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومثل ذلك كثير (١) .

وقد ربط بعضُ الشّعراء بين بيت المقدس والبيت الحرام في سياق الحديث ، والسّبب في ذلك واضح ، وهو التّنبيه على مكانة القدس في نفوس المسلمين ، واظهار الحرص على استنقاذه حين كان في الأسر ، والمحافظةُ عليه وحمايته بعد أن تمّ تحريرُه . ومن ذلك ما قاله العمادُ على أثر فتح القدس (٢) :

فـفـي مُوافَقَة البـيـت المـقـدّس لـلـــ ـبـيـت الحـرام ، لـنـا تـيـهٌ وإعـجـابُ

وما قاله في القصيدة نفسها :

والـصّخـرُ والحـجـرُ الملـثـومُ جـانـبـهُ كـــلاهما لاعـــتمار الخلـــق محرابُ

ومنه ما قالَه الشاغوري (٣) :

حَتّى جَمَعـتَ لمـعـشر الإسـلام بـيـ ـن الـصـخـرة الـعـظـمـى وبين المَشْعَر
فـلـصَـخـرَةُ البيت المقدّس كـفـؤُها الـ ـحَجَرُ المـفَضّلُ عـنـد أفـضـل مـعـشر

ومـثـالُه في النّثر ما ورد في كتاب للعماد مُوَجّه إلى اليمن (٤) : « فالبيتُ الحرامُ مُساوٍ للبيت المقدّس ، مُنَدّى مِنّا كـلاهما من المُهج والانفسُ بالأنفُس ، وإنه من المساجد الثلاثة الّتي تَشُدُّ إليها الرِّحالَ الرِّجالُ ، ويَضيقُ عَن وصف شَرَفِها في حَلْبة البيانِ المجال . . . » .

(ب) صُوَرٌ مكرورة :

إنّ تلاقي الماضي والحاضر برَبطهما معاً ، استدعى أن تختزنَ الذاكرة الشعريّة صوراً دالّة ، وأن تستثيرها من مكامنها عند الحاجة إليها ، ولّما كنتُ في هذا الفصل أحاول توضيحَ المعالم الفنيّة ، فأنا أرجو أن أتوقّف عند الصّور لا عند العبارات والمعاني ، فلو فرضنا أنّ بعض الشعراء أخذوا صورة الحوت الذي التقم ذا النّون واستغلّوها في البناء الشعريّ لَصَحّ أن نقول : هذه واحدة من الصّور المكرورة ، أمّا إذا كرّروا الادعية مثلاً ، فإنهم لا يكرّرون إلاّ معنىً أو نماذجَ من التّعبير ، وهذا الثاني لا يدخل ضمن هذه الفقرة .

---

(١) انظر : الرّوضتين ٢ : ١٠٣ ، ١١٨ ، وديوان فتيان : ١٩٤ ، وديوان ابن مُنير : ٢٢٩

(٢) كتاب الرّوضتين ٢ : ١٠٢

(٣) المصدر السابق ٢ : ١١٩

(٤) النبح الغَسّيّ : ١٩٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن هذه الصّور الّتي تكرّر ورودها في النصّوص الشعريّة والنثرية لأدباء هذا العصر، صورةُ الشّهُبِ تُقذَف بها عفاريتُ الجنّ، وذلك في مقام الاشادة بفعالية الأسلحة التي كان يستخدمها الجيش الاسلامي آنذاك ـ على الغالب ـ وهي صورة مأخوذة من القرآن الكريم إذ تكرّرت هذه الصّورة في غير موقع من كتاب الله العزيز، ومن ذلك قوله (١): ﴿ولقد جَعلْنا في السّماء بُروجاً وزيّناها للناظرين* وحفظناها من كُلّ شيطان رجيم * إلاّ مَن استرقَ السّمع فأتبَعَه شِهابٌ مُبين﴾ (الحجر ١٦ ـ ١٨)، ولعَلّ في ذلك ما يُوَضّح السبب في تردّد هذه الصّورة في أدب هذه الفترة، فالحربُ صبغتها دينيّة، ولا أولى من القرآن بالعودة إليه وتدبّر معانيه والاستعانة بصوره، واستخدامها في وصف الواقع الّذي يعيشونه، بالإضافة إلى أنهّم كانوا يحسّون بالفخر والاعتزاز بالانتصارات التي كانوا يحققونها في معاركهم مع الفرنجة، ولا أبلغ من كلمات القرآن وصوره في رسم صورة الهزيمة التي كان يُمنى بها الفرنجة أحياناً كثيرة.

وأسامة بن مُنقذ هو أحدُ شعراء هذا العصر الّذين استخدموا هذه الصورة ، فقال (٢):

يُبارينَ شُهبَ القَذف يحَملْنَ مثلَها ... من الحتف للباغي الرّجيم رواجمُ

ومثله فتيان الشاغوري الذي يقول (٣) :

كأنّ كُماةَ التُرك عند نزالهم ... ملائكةٌ بالشّهب تَرمي الأباليسا

ويقول (٤) :

وهناك لم يُرَ غيرُ نَجمٍ مُقبلٍ ... في إثر عفريتٍ رجيمٍ مُدبر

ويقول كذلك (٥) :

ما رَمى الأعداءَ إلاّ خِلتَه ... مَلَكاً يرمي بشُهب القَذف جِنّا

فيما يقول ابنُ القيسراني مخاطباً تاجَ الملوك بوري (٦) :

أتبَعْتَ جِنّ سرايـاهم مُضَمّرَةً ... فيها نجومٌ إذا جَدّ الوَغى رَجَموا

---

(١) انظر سورة الجنّ : ٨ ، الصافات : ١٠

(٢) ديوان أسامة : ٢٢٤

(٣) ديوان الشاغوري : ٢٢٣

(٤) المصدر السابق : ١٤٤

(٥) المصدر نفسه : ٥١٠ ، والممدوح هنا هو الأمير سراسنقر

(٦) كتاب الرّوضتين ١ : ٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول ابن قسيم الحموي مادحاً عماد الدّين (١) :

كـأنّكَ في الـعَجـاجِ شـهـابُ نورٍ تَوقَدُّ ، وهـو شـيـطـانٌ رَجـيـمُ

ومـثلما تكرّرت هذه الصّورة في الشـعر ، فقد تكررت في النثر ، فجاء في كتاب للقاضي الفاضل (٢) : « وماهم إلاّ كـلابٌ قَد تَعاوَت ، وشَياطينُ قـد تَغاوت ، وإن لم يُقـذَفوا من كُلّ جانب دُحورا ، ويُتبعوا بكلّ شِهـابٍ ثاقبٍ مَدحـورا ، اسـتأسدوا واستكلبوا» . وجاء في كتاب آخر له (٣) : « فأمّا السّائرة إلى قلعة أيلةَ ، فإنها انقـضّت على مُرابطي مَنع الماء انقـضـاضَ الجوارح على بنات الماء ، وقَذَفَتْها قَذفَ شُهُبِ السّماء مُسترقي سمع الظّلماء . . » .

(ج) الوضع النفسي للمنتصر :

لابُدّ أن نـتـذكّر في هذا الموقف حـقـيـقـة مـهـمّة ، وهي أنّ الذي يصنع النّصر شـخص ، وأنّ الذي يتـحـدث عنه مـفـتـخراً شخصٌ آخر ، ولهذا فإنّ الحديث عن الوضع النفسي للمنتصر إنّما يقوم به في أغلب الأحـوال امـرؤ شـارك في النتائج باسم الفَرح الجماعي ، دون أن تكون له يَدٌ واضحةٌ في بلوغ تلك النتائج . ومن السّهل أن يعبرّ الشـاعـر عن مجمـوع ذلك الفَرَح بالحـديث عن سرور المنتصرين (أو الفريق المنتصر) أو أن يضع حـقـيـقتين متقابلتين هما سرور الفريق المنتصر وحزنُ الفريق المنهزم . وتلك هي أبسط نماذج التعبير عن هذه الحقيقة ، كقول ابن السّاعاتي في فتح طبريّة (٤) .

فـيـا لـلّه كـم سَـرّت قـلـوبـاً ويـا لـلّه كـم أبـكـت عُيـونـا

وقـول العماد في حديثه عن مخاضة الأحزان (٥) :

وقـد اسـتـفـاد المشركـون تعـازياً والمسـلـمـون تهـانـيـاً بِتـهـان

غير أنّ الأديب قـد يتأتى للتـعـبير عن النصر بأشكال مُختلفـة ، فهو قد يتحدث عن تبادل المنتصرين للتهنئات فيما بينهم ، كقول فتيان الشاغوري (٦) :

لَمْ يَـخْـلُ سـمعٌ من هناء مـهنّىءٍ لـلـمـسـلـمين ومـن سماع مُبشرّ

---

(١) كتاب الرّوضتين ١ : ٣٢ .
(٢) صبح الاعشى ٧ : ٢٣ .
(٣) البَرق الشّامي ٥ : ٧٣ .
(٤) كـتاب الرّوضتين ٢ : ٨٤ وديوان ابن السّاعاتي ٢ : ٤٠٦
(٥) الخريدة (قسم الشام) ١ : ٦٠ وديوان العماد : ٤١٦
(٦) كـتاب الروضتين ٢ : ٨٤ وديوان فتيان الشاغوري : ١٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهنا ايضاً قد تكون التهنئة أرحبَ مجالٍ لتصوير الفرحة العامّة أو فرحة المهنّىء الخاصّة بالنصّر ، ولهذا فإنّ القصيدة التي تقال في مناسبة إحراز نصر تُعَدُّ كلُّها تعبيراً مباشراً وغير مباشر عن إحساس بأهميّة النصر ، وكذلك هي حال الرّسالة التي يرفعها الكاتبُ للمنتصر بمناسبة انتصاره ، كقول القاضي الفاضل (١) : «ليَهنِ المولى أنّ اللّه قد أقام به الدّين القيّم ، وأنّه كما قيل : أصبحت مولاي ومولى كلّ مسلم ، وأنّه قد أسبغ عليه النعمتين : الباطنةَ والظاهرة ، وأورثه المُلكين : ملكَ الدنيا وملك الآخرة ، كَتب المملوك هذه الخدمة والرؤوسُ إلى الآن لم ترفع من سجودها ، والدّموعُ لم تمسح من خُدودها ، وكلّما فكّر الخادم أنّ البيعَ تعود وهي مساجد ، والمكانُ الذي كان يُقال فيه أنّ اللّه ثالثُ ثلاثة يُقال اليومَ فيه أنّه الواحد ، جَدّد للّه شكراً ، تارة بفيض من لسانه وتارة بفيض من جفنه . . . » .

وقد جرت العادة أيّام الحروب الصليبية أن تزفّ بشائر النّصر تباعاً إلى الديوان العزيز (ديوان الخليفة العبّاسي) على شكل رسائل ، ولهذا يمكن أن يُعدّ هذا النوع من التهنئات الصّورة النموذجية الكبيرة الّتي اضطلع بها الكُتّابُ دون الشعراء ، وإذا تذكّرنا أنّ العماد كتب في فتح القدس في يوم واحد سبعين كتاب بشارة (٢) ، أدركنا ضخامة الأدب النثري الذي واكب الانتصارات . وتتضمّن هذه الكتب إظهار الحُبور بنقل (القدس مثلاً) من حال إلى حال ، والثناءَ على الرّجل الذي نذَرَ نفسَه لتحريرها ، وكثرةَ الحَمْدَلَة شكراً للّهِ على ما أنعَمَ به من نَصر ، وحكايةَ جانب من الأعمال المتتابعة الّتي تحَقق بها النّصر ، وإسنادَ الحُبور لا إلى الناس وحسب وإنّما أيضاً إلى الأماكن ، كوصف سرور المسجد الأقصى وقبّة الصّخرة بعودتها إلى حوزة الاسلام ، إلى غير ذلك من عناصرَ تقتضيها مناسبةٌ دون أخرى .

وهناك طرق كثيرة قد يسلكها الشاعر أو الكاتب حين يريد أن يتحدّث عن الفرح بالانتصار ، وهي في ظاهرها لا توحي بذلك لأوّل وَهلة ، مثل مجرّد تعديد الأيّام أو المَواطِن التي تتابعت فيها الانتصارات ، فإنّ حَشْدَها جميعاً في نطاق واحد عندما يعرض ذكر واحد منها ، يحمل معاني كثيرةً غيرَ مباشرة ، ومن ذلك قول العماد (٣) :

وقد طابَ ريّانا على طبريّة ... فيها طيبَها مغنى ويا حُسنها مَرسى
وَعَكّا وما عَكّا فقد كان فتحها ... لاجلائهم عن مدنٍ ساحلهم كنسا
وصيدا وبيروتٌ وتبنينُ كلُّها ... بسيفك ألفى أنفه الرّغمَ والتُّعسا
ويافا وأرسوفٌ وتُبنى وغزّةٌ ... تخذت بها بين الطُّلى والظُّبا عرسا
وفي عسقلان الكفرُ ذلّ بملككم ... فمنظَرُه بل أمرُه اربَدّ وارجَسّا

(١) كتاب الروضتين ٢ : ٨٢ ـ ٨٣
(٢) المصدر السابق ٢ : ٩٦
(٣) المصدر نفسه ٢ : ١٠٢ وديوان العماد : ٢٣٢ ـ ٢٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا العدّ الذي يورده العماد لمواقع النّصر يختلف عن عدّ أسامة بن منقذ لانتصارات نور الدين ، ففي حالة أسامة هنالك مَيلٌ إلى الترتيب الزّمني ، وفتح حصن بعد حصن : تل باشر ، تل عزاز ، برج الرصاص ، حارم ، كفر لاثا ، حصن باسوطا . . . (١) :

وفي حصن باسوطا وقورص ذلّتِ الصِّعابُ لَنا والنصْر يُقدمه النّصر
وفامية والبارةُ استنقذتهُما لنا هِمّةٌ من دونها الفَرْغُ والغَفْرُ
وحصنٌ بسرفودٍ وأنّب سهّلت لنا واستحالَ العُسر وهو لنا يُسر
وفي تلّ عَمّارٍ وفي تلّ خالدٍ وفي حصن سلقين لملكةٍ قَصر
وما مثلُ راوندانَ حصنٌ وإنّه لُمتَنعٌ لولم يُسَهِّلْ له القَسْرْ

فقد فرض السّياق الحربي هنا نفسه على الشعر ، دون أن يكون الشعر مضطراً إلى ذلك .

(د) الوضع النّفسي للمنهزم :

سآخذ قصيدة نموذجية لأسامة بن منقذ تصوّر الحالة النفسيّة للمنهزم ، وهذا التصوير يعتمد على عنصر الخوف ، ولكنّه الخوف الذي يضع صاحبه أسيراً للأوهام والتخيلات المرعبة في النهار ، حتى لَيحسَبُ الرُّبى جيوشاً ، وموجَ البحر أساطيل متتابعة ، فإذا جَنّ عليه اللّيل غدا فريسةً للكوابيس المنغّصة ، ورُبّما أصبحت هذه الصورة ـ على تفاوت بين عناصرها ـ من أهّم الصّور التي ركّز عليها الشاعر المسلم في إبراز الاضطراب النفسي (الذي يبلغ مرحلة المرض تقريباً) لدى جند العدوّ ، يقول أسامة (٢) :

وقسَمت الفرنجَ شطرين فهذا عانٍ وهذا قَتيلُ
والذي لم يحَن بسيفك من خو فك أمس وعقلُه مخبول
مثّل الخوفُ بين عينيه جيشاً لك في عُقر داره ما يزول
فالرُّبى عنده جيوش وموج البحر في كُلّ لَجّةٍ أسطول
وإذا ما غفا أقضّ به المضجعَ في الحُلم سيفُك المسلول

إنّ مثل هذا التحليل يُعَدّ تطويراً لمقولة : «نُصرتُ بالرُّعب» لأنّه لا يكتفي بتقرير حقيقة ، وإنما يرسم حالة انهيار نفسيّ آتٍ عن طريق الرّعب أو الخوف .

بعد هذه الصّورة «المكبّرة» تجيء الاشارات عن الخوف وفعله في النفوس مقتضبة ؛ وهذه أمثلة

---

(١) ديوان أسامة : ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

(٢) المصدر السابق : ١٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تصلح للمقارنة مع الصّورة الّتي رسمها أسامة :

فَممّا وصف به الشعراءُ حالة الخوف التي كانت تتملّك الصليبيين في بعض المواقف ، ما قاله ابن سناء الملك (١) :

خافَت وخافَ وفَرّ المالكون لها ... فالمُدن في رَهَبٍ والقومُ في هَرَب

وما قاله العماد (٢) :

وَلّوا وقلبُ شجاعهم في صَدره ... كالسّيف يُرعد في يَمين جَبان

وما قاله علم الدين أيدَمُر (٣) :

أمّا العدوّ فأمسى لا قَرارَ له ... من الحِذارِ ، وقَرّت عَيْنُ كُلِّ وَلي

وما قاله ابن عنين (٤) :

سقيناهُمُ كأساً نَفَت عنهم الكَرى ... وكيفَ يَنامُ اللّيلَ مَن عَدِمَ الأمنا

ومن ذلك ما قاله ابن سناء الملك في تصوير الوضع النفسي «لبادويل» أحد ملوكهم (٥) :

يُروّعه الصّبْحُ المنيرُ إذا بَدا ... ويوحشُه اللّيلُ البهيمُ إذا جَنّا

على أنّ الشاعر قد يقف موقفاً وسطاً بين الصورة الكبيرة التي جاء بها أسامة وبين الذّكر العابر لقضيّة الرعب ، فقول العماد (٦) :

تمكّن الرّعب في قلب العدوّ بها ... تمكُّنَ النّار بالإحراق في الفحم

يرسم صورة جديدة لتمكّن الرعب في القلوب ، وقولُ العماد نفسه (٧) :

أخفت الشِّرْكَ حَتّى الذعرُ منهم ... يُرى قبل الولادة في الجنين

تعبيرٌ آخر عن تمكّن الرّعب ، ولكنّه موضوع في صورة جديدة .

---

(١) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ٢

(٢) ديوان العماد : ٤١٣

(٣) المختار من ديوان علم الدين أبدمر : ٧

(٤) ديوان ابن عُنين : ٢٩

(٥) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ٣٢١

(٦) ديوان العماد : ٣٨١

(٧) المصدر السابق : ٤٢٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا نجد أنّ الشعر في بحثه عن جدّة الصّور يحاول أن يتجاوز الوضع التقريري الأوّل لمعنى النصرّ بالرُّعب .

(هـ) السخرية بالمنهزم :

رُبّما كانت السخرية بالمنهزم في شعر هذا العصر لا تُمثّل تصويراً فكاهياً عالي النبرة ، وإنّما ترسم مفارقات ، بين تقدير العدوّ وضخامة استعداده ، ثم ما لقيه من مصير مناقض لذلك ، فهي تُعلي التقابل بين جانبين : الأمل وخيبة الأمل ، كقول ابن القيسراني في كسرة الافرنج على دمشق (٥٢٣/ ١١٢٠) (١) :

سَرَوا لينتهبوا الأعمار فانتُهبوا ... قتلاً ويَغتَنِموا الأموال فاغتُنموا
وافوا دمشق فظنّوا أنها جَدَة ... ففارقوها وفي أيديهمُ العَدَم
وأيقنوا مع ضياء الصبح أنهم ... إن لم يزولوا سراعاً زالت الخيم
فغادروا أكثر الغربان وانجفلوا ... وخلّفوا أكبر الصُلبان وانهزموا

وقد يتأتى الشاعر إلى السخرية برسم أوضاع طبيعيّة في صور معكوسة ، فرأس البرنس يحتاج إلى وساد ، ولكن من السخرية أن يكون السّنان وساداً له ، والبرنسُ قد ترجّل ، فأعادوه إلى ظهر الفرس (فَرَسوه) وما جوادُه الجديدُ إلاّ عصا الرُّمح ، وحين شوهد في محلّه الجديد كان غضيض المقلتين مع أنّه غيرُ نعسان ، وعائرَ العينين وليس فيهما سُهاد (٢) :

وللابرنس فوق الرُّمح رأسٌ ... تسوسَدَ والسّنان له وسادُ
ترجّلَ للسّلام ففرّسوه ... وليس سوى القناةِ له جَوادُ
غضيض المقلتين ولا نعاس ... وعائرُها وليسَ به سُهادُ

وقد مهر ابن القيسراني في إبراز نماذج مختلفة من السخرية بالخاسر في الحرب ، وهو يعود إلى الحادثة الواحدة بصور مختلفة ، فرأس الابرنس الذي وُصف من قبلُ متوسّداً السّنان ، وصف في موقف آخر بأنّه ثمرة للقنا ، ومن العجيب أن يطلع القنا ثَمَراً ، وحين تبتغي القناة في رأسه نفقاً فإنها تجد سرباً «لثعلبها» في نحره (٣) :

---

(١) كتاب الرّوضتين ١ : ٥٤
(٢) المصدر السابق : ٥٦
(٣) المصدر نفسه ١ : ٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عـجـبـتُ للصّعدة السّمراء مثمرةً ... بـرأسـه إنّ إثمار الـقَنـا عَجَبُ
إذا الـقـناةُ ابتَغَت في رأسـه نفـقـاً ... بـدا لـثـعـلـبـهـا من نحـره سَرَب

وللجليـاني قصيدة قالها بعد انكسار الفرنج في حطّين ، تكاد تقوم في معظمها على السخرية ، ولذلك فإنّه حـاول أن يستـغلّ فـيـهـا كُلّ مـا يمكن أن يحقق لقصيدته النجاح في هذه المهمة التي تحتاج إلى براعة خـاصّة، فـحـشـد فيها كثيراً من المفارقات ، وبنى السّياق على التقابل والتضادّ ودفوع التجاذب بين ما يُتوقّع ومـا لا يُتوقّع ، يقول (١) :

أتـوا بـحـبـالٍ أُبرمَت لإسـارنـا ... فـسُقناهـمُ فـيـهـا قـطـيناً مجدّدا
وسـامـوا تجـاراً تـشـتـريـنـا غـوالـيـاً ... فـبعناهمُ بالرُّخص جَهراً على النّدا
وجَرّوا جـيـوشاً كالسّيول على الصُّوا ... فـآضَت غـثـاءً في الـبـطـاح مُمَدّدا
وقـالـوا مـلـوك الارض طوعُ قـيـادِنا ... إذا الـكُلُّ مـنـهم في القُيـود مُعَبّدا
وقـد أقـطـع الـكـنـدُ العـراق مُوَقّعاً ... فـأودعَ سِجْـنـاً وسـط جلّق مُؤصَدا
وأقـسـمَ أن يَسـقـي بـدجـلـة خـيله ... فما وَرَدَ الأردنّ إلاّ مُصَفّدا

ويقول :

عـلـيـهـم مـن البلوى سُرادقُ ذِلّة ... وَمَن ذَلّ مـاتَت نـفـسُه فَتَقـيّدا
ترى المِنسَر الديويّ يُلقي سـلاحه ... وينـسـابُ مـا بيْنَ السّبـايا مُلَهّدا
يُبـاعـون أسرابـاً شرائحَ أحـبُلٍ ... كـشِلّة عـصـفور من الرّيش جُرّدا

ويذكـر الابرنس أرناط الذي طالما يغدر بوعوده ، فيقول :

ألم تـرَ لـلـسّلـطـان صَدّق نـذره ... دَمَ الغـادر الإبرنس فـاقـتيد أربدا
وبـاشَره بـالـقَتـل وسـط جَنـابـه ... وعـايَنـه الـكُنـد المـلـيـكُ فأرعـدا

ومن أبرز القـصـائد المبنيّة على السـخـرية قـصيدة ابن مطروح★التي نظمها على أثر هزيمة الفرنسيس وعـسـاكره في دمياط ، وفيها يقول (٢) :

قُل لـلـفـرنـسـيـس إذا جئتـه ... مـقـالَ حَقّ عـن قَوْول فَصـيـح
آجَرَكَ الـلّهُ عـلـى مـا جـرى ... مـن قـتـل عُبّاد يَسوع المسيح

---

(١) كتاب الرّوضتين ٢ : ١١٧ ـ ١١٨
(٢) الذّهبي، العِبَر في خَبَر مَن غَبَر ، تحقيق : د. صلاح الدين المنجّد، وزارة الارشاد ـ الكويت (١٩٦٣) ٤ : ٣٨/٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أتيتَ مصراً تبتغي مُلكها ... تزعمُ أنّ الزّمر يا طبلُ ريح
فَساقَكَ الحينُ إلى أدهَمٍ ... ضاق به في ناظريك الفَسيح
وَفّقَكَ اللّهُ لأمثالها ... لعلّ عيسى منكمُ يستريح
وقل لهم إن أضمروا عودةً ... لأخذ ثأرٍ أو لقَصْدٍ قَبيح
دارُ ابن لُقمان على حالها ... والقيدُ باقٍ ، والطّواشي صَبيح

وتستمدّ هذه القصيدة قوة السّخرية فيها من محاولة الاقتراب من اللّهجة المحكيّة في بعض عباراتها ، ومن استعمال الأدعية مقلوبةً ، ومن الثقة النفسيّة بالثبات الذي لا يتزعزع .

ومن السّخرية كذلك قول ابن اسرائيل ★ في المناسبة نفسها (١) :

إنّ غارة الفرنسيس الّتي ... جاءت جِباءً لسيّد الأُمَراء
ببياض القرطاس في اللّون، لكن ... صَبَغَتْها سيوفُنا بِدِماءِ

وقد تتمّ السخرية بالاهتداء إلى صور غريبة مضحكة ، ويكون لها وقعٌ قويّ ، من ذلك قول العماد في رأس البرنس (٢) :

وغاصَ إذ طارَ ذاكَ الرّأسُ في دمه ... كأنّهُ ضِفدَع في الماء قَد غَطَسا
مازال يعطُس مزكوماً بغدرته ... والقتلُ تَشميتُ من بالغَدر قد عَطَسا

فصورة السّيف الذي غاص في الرأس وتشبيهه بالضفدع ، وذكر العطاس بسبب الغدر ، وتشميته بالقتل ، صورتان نادرتان ، وهما من اختراع العماد .

وقريب من ذلك وَصفُ العماد بأنّ رأس البرنس يابسٌ (أي عنيد) وأنّه كان لابُدّ من أن يُبَلّ يبّسُه بما يجعله نَدياً ، فكانت تنديته بحسامٍ أسال دمه (٣) :

شكا يبّساً رأسُ البرنس الذي به ... تندّى حسامٌ حاسِمٌ ذلك اليُبسا

وليس من الضروري في تصوير المنهزم أو الأسير أن يلجأ الشاعر إلى التهكّم ، بل قد يكتفي بتقريرٍ واقع حال ، كأن يتحدّث عن احساس الأسير بالذلّة ، دون أن يسمح لروح الشّماتة بالتغلغل فيها ، وذلك مثل قول أحد الشعراء (٤) :

---

(١) الذّيل على الرّوضتين : ١٨٤ .
(٢) ديوان العماد : ٢٢٩ .
(٣) المصدر السابق : ٢٣٥ .
(٤) ذيل تاريخ دمشق (طبعة دمشق): ٥٢٤ (ولم يذكر اسم الشاعر) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مثل يوم الفرنج حين عَلتهم ذِلّة الأسر والسبَلا والشّقاء
وبراياتهم على العيس زُفّوا بين ذُلّ وحَسرة وعَناء
بعد عِزّ لهم وهيبة ذِكرٍ في مصافّ الحروب والهيجاء

وفي النّثر ، صَوّر العمادُ الاحساس بالذلّة والشعور بالهوان عند الفرنجة في معرض حديثه عن نوبة يافا ، فقال (١) : « . . . ورَأوا عِزّهم في ذُلّهم ، وصَونهَم في بَذلهم ، وسَلامَتَهم في سلمهم ، وغناهمُ في عُدمهم ، ولانوا بعد الاشتداد ، ودانوا للانقياد ، وهانوا بعد الاعتزاز ، وهابوا بعد الاغترار » .

(و) صورة المدينة المفتوحة أو العصيّة على الفتح :

في أكثر الأحيان تتمثّل المدينة في صورة امرأة ، ويستتبع ذلك صوراً جنسية متعدّدة . وها هنا فروق دقيقة في التصوير ، فالمدينة في عهدة العدو إذا جرى الاستيلاء عليها ، فلا بأس من تصويرها تُفترع عنوة، ولكنّ الشاعر في الأغلب يعفّ عن تصوير الاستباحة كقول ابن القيسراني في فتح عماد الدّين للرُّها (٢) :

مدينة إفكٍ منذ خمسين حِجّةً يفلّ حديدَ الهند عنها حِدادُه
وجامحةٍ عَزّ الملوكَ قيادُها إلى أن ثناها مَن يَعِزُّ قيادُه
فصّدت صُدودَ البكر عند افتضاضها وهيهاتَ كان السيفُ حتماً سِفادُه

ففي ذكر الشّاعر أنّ الرّها ظلّت مدينة إفك على مدى خمسين عاماً ، إيحاء بأنها لم تكن «حَصاناً» ، ولكنّه لا ينسب إلى عماد الدين «تعهيرَها» .

وعلى نحو مختلف تكون العلاقة بين نور الدّين ودمشق حين أصبحت في حوزته ، فهي قد جرى «البناء بها» . حسب الشعائر الاسلامية إذ خُطِبَت ، ووافق وليّها على خطبتها ، وكانت على مَرّ الأيّام تُسِرّ لنور الدين حُبّاً كامناً ، ولكنها «حَصان» ، والحصَان تتمنّع دَلالاً (٣) :

خطَبتَ فلم يَحجبْك عنها وَليُّها وخَطبُ العُلا بالسّيف مادونَه ستر
جَلاها لك الإقبالُ حوريّةَ السّنا عليها من الفردوس أرديةٌ خضُر
خَلوبٌ أكَنّت من هواك محبّةً نَمَت فانتَمت جَهراً وسِرُّ الهوى جَهر
فسُقت إليها الأمن والعدلَ نِحلة فأمست ولا أسْر تخاف ولا إصْر

---

(١) النبع التُّسيّ : ٦٠٨ .
(٢) كتاب الرّوضتين ١ : ٣٨ .
(٣) المصدر السابق : ١ : ٧٣ (والأبيات لابن القيسراني) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فإن صافحت يُمناك من بعد هجرها ... فأحلى التّلاقي ما تقدّمه هجرُ
وهل هي إلاّ كالحصان تمنّعت ... دلالاً ، وإن عَزّ الحيا وغَلا المهرُ

وقريب من ذلك صورة حلب لدى ابن السّاعاتي ، فهو يحرّض صلاح الدين على أخذها ، لأنها عقيلة جميلة رشيقة القدّ أسيلة الخدّ (مع عفّة صانتها عن التبذّل) فإذا لم تَقبل فَليخطبْها مكابرة بالرّماح ، لأنّها لا تريد بعلاً سواه . ويتأتّى الشاعر إلى معنى دقيق حين يقول : إنّها لم تعلن العصيان تمنّعاً ، وإنّما غضبت لأنّ صلاح الدين أهملها وأقبل على غيرها (١) :

هي العقيلة حُسناً والزمانُ بها ... مُتيّمٌ كَلِفُ الأحشاء غيرُ خلي
رشيقة القدّ لا تسمو إليه يَدٌ ... أسيلةُ الخدّ لا تَدنو من القُبَل
بِكرُ المعاقل فاخطبها مكابرةً ... بكُلّ ألمى أصمّ الكعبِ مُعتدل
فما سواك لها بَعْلٌ وقد عَطِلت ... فحلّها بتلافيها من العَطَل
غارت وحقّك من جاراتها فشكت ... ما بالُه بافتضاضي غيرُ مُحتفل

وطبريّة وإن كانت في حوزة الصّليبيين فإنّ اقتراب صلاح الدّين منها وَضمّها إلى «زوجاته» يضعها موضع الحصان العنيفة ، وهذا لا يتناقض ـ في رأي الشاعر ـ وافتضاضها قَسراً (٢) :

وما طبريّة إلاّ هَدِيٌّ ... تَرفّعُ عن أكفّ اللاّمسينا
حَصانُ الذّيل لم تُقذَف بسوءٍ ... وسَلْ عنها اللّيالي والسّنينا
فَضَضْتَ ختامَها قَسْراً ومَنْ ذا ... يصدّ اللّيث أن يَلِجَ العَرينا

هذه صورة مكتملة ، حافلة بالحيويّة ، قد رُسمت أبعادها بعناية ، وهي قائمة على دقّة واقعيّة ، فلكلّ مدينة من المدن المذكورة حالٌ في استسلامها (أو فتحها) تختلف عمّا جرى لغيرها من المدن ، وهذا ما يحاول الشّاعر أن يبرزه ، وإن لم يكن مطالَباً بهذا القدر من الدقّة .

غير أنّ صورة الافتراع وحدها قد أصبحت من الصّور المكرورة في شعر هذه الفترة ونثرها ، وأجتزىء بها عن الصورة الكبيرة التي عرضت أمثلة منها ، من ذلك قول العماد مخاطباً صلاح الدين (٣) :

وافترِعْها بِكراً لها في مدى الدّهـ ... ـرِ رَواحٌ في مدحكم وبُكور

(١) ديوان ابن السّاعاتي ٢ : ٣٨٣ .
(٢) المصدر السابق ٢ : ٤٠٦ .
(٣) ديوان العماد : ١٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقوله في وصف أحد الفتوح (١) :

هو فَتْحٌ بِكْرٌ ، ودونَ البرَايا خَصَّنا اللّهُ بافتراع البكر

أمّا استخدام كُتّاب النثر لهذه الصورة ، فمثاله قول القاضي الفاضل في إحدى رسائله (٢) : «صَبّح الخادمُ طبريّة فافتضّ عُذرتَها بالسّيف ، وهجم عليها هجومَ الطّيف» ، ومن الصور الغريبة قوله في رسالة أخرى (٣) :

«وكان الفرنج قد ركبوا من الأمر نُكرا ، وافتضّوا من البحر بكرا» ، ومنه قول العماد في حديث له عن فتح طبريّة (٤) : « وعدنا إلى طبرية ، فتسلّمنا قلعَتها ، وحَلَلْنا عقدتها ، وفَرَعْنا ذروتها ، وافتَرَعْنا عُذرتها» .

* * *

(١) ديوان العماد : ٢٠٠ .
(٢) كتاب الروضتين ٢ : ٨٧ .
(٣) البرق الشامي ٥ : ٧٣ .
(٤) الفتح القُسّي : ١٩٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملخص

اعتمدت هذه الدراسة في محاولة بلورة صورة لفن الحرب في عهد الدولتين الزنكية والأيّوبية على أربعة أنواع من المصادر هي :

(١) النثر الأدبي

(٢) الشعر

(٣) المؤلفات التاريخيّة

(٤) المؤلفات التي تتناول فنّ الحرب مباشرة

وقد أضفتُ المؤلفاتِ التاريخيّة إلى مصادر هذه الدراسة لأنني أومن ابتداءً أنّه لا يمكن لباحث في فنّ الحرب في عصر من العصور أن يستغني عن المؤلفات التاريخية وأمثالها فينحّيها جانباً ، وذلك لأمور ، منها قدرة التاريخ الفائقة على إيراد أدقّ التفاصيل ممّا قد يعجز عنه الأدب ، وقد شجّع في هذا الاتجاه وفرة المؤلفات التاريخية في هذا العصر ، والخصوصية التي كان يتصف بها مؤرخو هذا العصر في بعض الحالات، وهذه الخصوصية تتلخص بأنّ المؤرّخ والأديب قد تبادلا دوريهما في كثير من الأحيان ، يصدق هذا على مؤرّخ مثل ابن الاثير في «الباهر» ، كما يصدق على أديب ضاع عنده الحدّ الفاصل بين التاريخ والأدب ، وهو العماد الاصفهاني في : «الفيح القسيّ» و «البرق الشّامي» ، وفي مثل هذه الحال لا يعود هناك فرق بين التّاريخ والأدب ، ولصعوبة الفصل الدّقيق بين الاثنين ، لابُدّ من الافادة منهما معاً .

أمّا عن دور الأدب في تتبّع فنّ الحرب في هذا العصر ، فقد مرّ في مراحل :

- قبل ظهور عماد الدين زنكي ، كانت ردود الفعل الأدبيّة خافتة ، ولذلك فإنّ معتمد الدارس هو المصادر التاريخيّة ، ككتاب «الاعتبار» وكتاب «ذيل تاريخ دمشق» ويتميّز الأوّل بتقديم صور حَيّة من فَنّ الحرب في هذه الفترة .
- في عهد عماد الدّين ، والجزء الأكبر من عهد ولده نور الدين ، ظهر شاعران واكبا الاعمال الحربيّة للقائدين ، واتخذا منها فرصاً لمدحهما وتخليد مآثرهما الحربيّة والجهاديّة ، وهذان الشاعران هما : ابن القيسراني وابن مُنير (٥٤٨/١١٥٣) . كما دخل العماد الكاتب في خدمة نور الدّين (٥٦٢/١١٦٧) فشهد ديوان الرسائل على يديه نقلة نوعيّة .
- فيما كانت الفترة الصّلاحيّة من أغنى فترات الحروب الصليبيّة بالنصوص الأدبية : الشعرية والنثرية التي تضطلع بنقل صورة الحرب . وإذا كان النثر فيما سبق من فترات غير ذي دور واضح في هذا المجال ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهو في هذه الفترة منافسٌ قويٌّ جداً للشعر ، ولا سيّما بوجود شاهدين قويّين هما : القاضي الفاضل والعماد الاصفهاني ، اللّذان كان لهما دورٌ في صياغة القرار السياسي آنئذ .

وبانتقالنا من التمهيد إلى جوهر الدراسة ، من الطبيعي أن نبدأ الحديث عن الجيش مادّة الحرب الرئيسية الأولى ، فقد كشفت هذه الدراسة عن أنّ الجيش الاسلامي النظامي في عهد الزنكيين والأيّوبيين كان يُمثّل الإمارات التي دخل أصحابها في علاقة أو حلف مع السلطان ، وقد بلغ هذا الجيش ذروته في عهد صلاح الدّين بسبب تزايد عدد تلك الإمارات ، وكان حشد الجيوش واستنفارها يتمّ حسب الإمارات التي تنتمي إليها ، ويطلق على مجموع الاعداد المستنفرة اسم «العسكر» أو «العساكر» ، ولهذه العساكر قائد أعلى (مُقدّم) ، ولكلّ وحدة فيها أميرٌ أو أكثر بحسب عددها ، ويتمّ عرضها في مكان مختار يطلق عليه «البيكار» ، فإذا ما تمّ عرض الجيش وتهيّأ للتحرك دُقّت الكوس ونعرت الأبواق ، وأول من يتحرك هم الطلائع للاستكشاف ، فإذا كان الجيش في حالة نزول ترتّب في ميمنة وميسرة وقلب ، وإذا كان في حالة ركون ترتّب على شكل أطلاب ، ولربما أضيف في الحالة الأولى فئتان : الطليعة والسّاقة (المؤخّرة) وغالبا ما يكون القائد في القلب .

وفي العادة يتمّ اختيار المكان الصالح للمصافّ بحيث يكون مشرفاً على العدوّ غير مفتقر إلى الماء ، ويمكن القول : إنّ من الأمور المهمّة الّتي تتصّل بالتعبئة معرفةَ الجغرافية العامّة والخاصّة : فالعامّة تتمثّل بمعرفة أوّليّة عن البلاد أو المنطقة التي تجري فيها الحرب ، وبأيّ شيء تتميّز ، والخاصّة : وتعني معرفة طوبوغرافيّة الأرض التي تجري فيها المعركة . وقد كانت هذه ميزة لصالح أهل الشّام أولاً ، ثم ما لبث الصليبيون أن تحسّنت معرفتهم بها بعد طول مقامهم .

وكان ينضمّ إلى تلك الوحدات النظاميّة في الجيش الاسلامي حشود غير نظاميّة من الاعراب والتركمان ، والاغرب حالاً هو انخراط اللصوص في الجيش زمن صلاح الدين ، وكانوا أشدّ نكاية في العدوّ من السّوقة والمتطوّعين ، في حين لم يكن للمرأة المسلمة في هذا العصر دورٌ يُذكر في الحرب على عكس المرأة الفرنجية التي كانت مساهمتها في هذه الحروب ملحوظة .

والقائد الأعلى للعسكر الاسلامي هو السلطان نفسه ، في الغالب ، وكانت تُعينه بطانة مكوّنة من أمراء الجيوش أو من أفراد أثبتوا قدرتهم في ميدان الحرب أو في سداد الرّأي ، أو في كليهما . وكان كُلٌّ من الرجال الثلاثة (عماد الدين ، نور الدين ، صلاح الدين) الذين يمثلون هذا العصر أصدق تمثيل ، يبني سياسته الحربيّة ، وسياسة الحكم بشكل عامّ على مبدأ الشورى ، وإن كان صلاح الدين أشدّهم احتكاماً إليها وتعويلاً عليها ، وأربابُ الشورى لديه أكثرهم من أمراء الحرب ومقدّميها ، وكثيراً ما كان يتنازل عن رأي رآه إذا كان مخالفاً لرأي الجماعة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمّا عن الجيش الصّليبي ، فقد كان توقّد المشاعر الدينيّة وسيطرة الكنيسة من جهة ، ونظام التبعيّة الاقطاعيّة والتفتيش عن أرض جديدة من جهة أخرى ، عاملين مهمين في استثارة النّاس من أوروبا إلى الحرب ، وانخراطهم في جيوش بعضها نظامي وبعضها غير نظامي ، وقد ربط الكُتّاب والشعراء في هذا العصر بين الصليبيين والكثرة لأنهّم كانوا يفاجأون في الحملات المختلفة بأعداد كبيرة من الفرنجة .

كان جيش الفرنجة يتكوّن من قسمين رئيسيّين : الفرسان وهم الأكثر أهميّة ، والرّجالة وكان عددهم كبيراً جداً في الجيش الواحد . وقد ظهرت فئتان رئيسيّتان من الفرسان بادىء الامر هما : الداويّة والاسبتاريّة ، وكان المسلمون يخشونهما لأنهّم محاربون مُدَرّبون أشداء جفاة الطّبع ، ثم ظهرت منظمة الفرسان التوتون ، بالاضافة إلى طوائف أخرى أقلّ أهميّة .

وتجنّباً للدّخول في مزيد من التفاصيل ، يمكن القول : إنّ الجيش الصليبي كان يتكوّن من العناصر الأربعة التالية :

- المنظمات أو الأخويات العسكريّة (المتقدّم ذكرها) .
- الحجّاج الذين يأتون سنوياً إلى الأرض المقدّسة .
- طبقة الفرسان الخفيفي التسليح ، وهم من ابناء البلاد الأصلية (التركبول) .
- المرتزقة ، الذين أصبحت الحاجة إليهم ماسّة بعد الحملة الأولى .

وقاعدة التعبئة لدى الجيش الصّليبي قسمة الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب ، أيضاً ، ولكنهم كانوا يتميزون بأنهّم إذا ما ترتّب العسكر للزّحف ، كان الفرسان في الوسط ، واصطفّ الرجّالة حولهم كالسّور، وعليهم الكبورة الثخينة والزّرديات السابغة المحكمة ، وتوحي طريقتهم تلك بعظم حرصهم على تمييز الفرسان ، فمن أجل الفرسان وسلامتهم يقف الرّجّالة يتلقّون السّهام بثبات عجيب . ويبدو أنّ دور الرّجّالة عندهم لم يزد على مساندة الفرسان وتكوين جدار حاجز دونهم .

أمّا القيادة فكان يتولاّها في الغالب أحدُ الملوك ، أو الأمراء ولربما اشترك عدّة ملوك في حملة واحدة، وقد كانت الشورى عندهم أساساً تقوم عليها الحياة الحربيّة وغير الحربيّة ، والرّأي الأوّل فيها (كما يقول أسامة بن منقذ) للفرسان ، فإذا رأى الفرسان رأياً لا يستطيع أن ينقضه أحد ، حتى ولا الملك نفسه ، ومن طريف ما يُذكر في هذا المقام ، أنّ التشاور بينهم للحرب كان يتمّ وهم على ظهور الخيل .

★ ★ ★

ومادّة الحرب الرئيسية الأخرى هي السّلاح ، وقد اتّضح من هذه الدّراسة أنّ الدّولة في العصرين الزنكي والأيّوبي كانت توزّع الاسلحة على المحاربين والمدن الصّامدة في وجه العدوان الصّليبي ، إذ كانت لديها خزائن سلاح متعدّدة تعرف واحدتها باسم «زَرْدِخاناه» وتحتوي على أنواع الاسلحة المختلفة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويمكن تصنيف السّلاح الذي كان يستخدم في ذلك العصر سواءٌ من قِبل المسلمين أو من قِبَل الفرنجة على النحو التالي :

- **أسلحة القتال الميداني** : وبعض هذه الاسلحة هجومي وبعضها دفاعي (وقائي) ، أمّا الأسلحة الهجومية (أسلحة القتال) فقد استخدم المسلمون وكذلك الفرنجة نوعين من السيوف : الطويلة التي تصلح للفرسان ، والقصيرة التي يستخدمها الرجّالة ، واتّخذ المسلمون سيوفاً أخرى على غرار السيف الصّليبي ، فوُجد السّيف المستقيم ذو الحدّين ، العريض المسطّح الشفرة ، كما طوّروا صناعة الرّماح ، واستخدموا الدّبابيس واللّتوت ، واستخدموا القِسيّ على نطاق واسع .

ومن أهم الاسلحة الميدانيّة الخيل ، فالفرسان والخيّالة هم عصب المعركة .

وباستقراء صورة هذه الاسلحة عند شعراء هذا العصر نجد أنّ تناول الشعراء لها لا يعدو أن يكون هامشياً إلاّ ما ندر (باستثناء الخيل) فيما بدا النثر أرحب صدراً في منح مختلف الاسلحة الدور الملائم لِكلٍّ منها ، وبالنسبة إلى الخيل يمكن القول : إنّ النماذج الشعريّة التي ذكرت فيها الخيل تشتمل على روح شعريّة جميلة .

وأمّا الاسلحة الوقائية ، فتتمثّل بالزّرديات على اختلاف مادّتها وحجومها ، وبالخوذة أو البيضة التي تستخدم لوقاية الرأس بالاضافة إلى التّراس المختلفة .

- **أسلحة الحصار** : وتشتمل على نوعين رئيسيين من السّلاح هما : القوس والنّبال ، وقد استخدم المسلمون منها أنواعاً مطوّرة تعطي نتائج أفضل كالجروخ والنّاوكات والزنبوركات ، والمنجنيق والدبّابة ، وقد أدخل المسلمون عليها كثيراً من الإضافات لتتلاءم مع طبيعة التحصينات والأبراج التي كان يقيمها الفرنجة . واستخدم الفرنجة هم أيضاً أسلحة حصار وُصفت بأنها عجيبة ، ومنها الدبّابة والسّلالم والابراج المتحركة والثابتة . كما استخدم الطّرّفان الزراقات والنفّاطات .

ومن أسلحة الحصار الدفاعيّة التي استخدمها المسلمون الطّوارقُ والجفاتي والجنويّات ، وهي بصفة عامّة تِراسٌ كبيرة الحجم تستخدم لغايات خاصّة .

- **أسلحة الحرب البحريّة** : وقوامها الاسطول ، وقد عني المسلمون بأمره ، لكنّه بقي مقصراً عن أن يبلغ درجة أسطول الفرنجة في موانىء مصر والشام .
- **الحصون والقلاع** : وقد شاع بناؤها في هذا العصر ، ولكنّ عناية الفرنجة بها كانت أشدّ ، وذلك بسبب الظروف الخاصّة التي اكتنفت وجودهم في هذه المنطقة ، ويلاحظ أنّ هذه الحصون استرعت انتباهَ الشعراء والكُتّاب فأكثروا من وصفها وبالغوا بالتحدّث عن تحليقها ومنعتها .
- **أسلحة غير مادّية** : ومن أبرزها التحريض والإثارة ، وأبطاله هم الشعراء ، وقد انصبّ في معظمه على

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تحرير القدس . والايمان الحافز : وهو عنصر فعّال يتحقق عندما يصدق القادة في توجّهاتهم . والحزم وحسن الرأي والتدبير : وهما من عُدّة النّصر ، إذا ما اقترن أحدهما بالآخر . وأخيراً الرُّعب : وهو سلاح نفسيٌّ مهم ، يمكن أن يحسم المعركة قبل اللّقاء ، وقد كثرَ الحديث عنه لدى شعراء هذا العصر.

- **جهاز الاتّصالات والخدمات** : ويتشكّل في العادة من عناصر بشرية وأخرى غير بشرية ، أمّا العناصر البشرية فهم الاصطبلية وغلمان الحرب والنجّابون والعَوّامون والجواسيس والمخبرون والحجارون والنجارون ، وسواهم . وأمّا العناصر غير البشرية فينضوي تحتها الحمامُ الهوادي ، وكان نور الدين أوّل من اتخذه وعني به عناية فائقة ، وعَمّم استخدامه في معظم الأقاليم ، كما ينطوي تحتها دوابُّ الحمل وأدواتُه (البُطَس والمراكب الحمالّة والبراكيس) .

★ ★ ★

وفي مجال التخطيط الحربي ، يمكن القول بأنّ المسلمين وكذلك الفرنجة استخدموا اساليب مُتعدّدة في اثناء الحروب الصليبية ويمكن إيجاز هذه الأساليب بما يلي :

- التنكّر لتسهيل الدّخول في صفوف الأعداء .
- الأخذ على غرّة ، ومعروف أنّ الاتكاء على عنصر المفاجأة هو من أكثر الوسائل شيوعاً في التخطيط الحربي ، وقد تكون هذه المفاجأة مجرّد غارة محدودة الهدف ، وقد تكون بعيدة الأثر واسعة النتائج .
- المواجهة العامدة (التهديد والوعيد) وقد يتمّ ذلك من خلال رسائل متبادلة ، وهو جزء من الحرب النفسية .
- التضليل بتغيير الهدف ، وقد استخدم المسلمون هذا التكتيك في مواقف متعددة ، لعلّ من أبرزها ما صنعه عماد الدّين يوم فتح الرُّها (٥٣٩ / ١١٤٤) .
- الايهام بالهزيمة أو التراجع الصوري ، على نحو ما صنع نور الدّين في حصار حارم (٥٥٩ / ١١٦٤) .
- العمل على جبهتين ، كعمل نور الدين حين فتح جبهة ثانية ضدّ الفرنج في الشّام ، وأرسل الامدادات إلى صلاح الدين في مصر ليشغل الفرنج على جبهتين فيضعف قواهم .
- الكمين : ويلفت النظر هنا كثرة استخدامه في الحروب الصليبيّة ولا سيّما في الجانب الاسلامي .

وطبيعي أن يقود الحديث عن الخطط الحربيّة إلى التحدّث عن أنواع المعارك ، فقد غلبت في هذا العصر الأنواع التالية من المعارك :

- المعركة في أثناء الزّحف ، وهذا اللّون من أصعب المعارك ، ويصلح إذا كان الفريق المبادر للهجوم يتحرك بأسرعَ من خصمه ، وقد كان الاتراك في العسكر الاسلامي يفضّلون هذا اللّون بسبب تميّزهم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بخفّة الحركة، بينما كان الفرنجة ينزعجون منه، ومن أبرز أمثلتها في هذا العصر معركتان: حطين (٥٨٣/ ١١٨٧) وأرسوف (٥٨٦ / ١١٩١) .

- المعركة البحريّة : وقد كان التفوّق واضحاً فيها للفرنجة
- المعارك الميدانيّة الالتحاميّة : ويمتاز هذا النوع من المعارك بأنه لا يستغرق زمناً طويلاً ، كما أنّه لا بُدّ أن ينتهي بنتيجة ، ومن نماذجه في هذا العصر موقعة عسقلان (٤٩٢ / ١٠٩٩) وموقعة بانياس (٥٧٥ / ١١٧٩) .
- الحصار البري والبحري : وفي هذا المجال يمكن القول بأنّ من أبرز سمات الحرب في هذا العصر تقدّم آلة الحصار وبروج المقاومة ، ويبدو أنّ كُلّ تطوير في سلاح من اسلحة الحماية والمقاومة كان يستدعي تطويراً مضاداً لشّل فاعلية ذلك السّلاح ، فكما طرأ تطوّر على صنعة البرج والدّبابة مثلاً ، طرأت زيادة في فاعلية النّار اليونانيّة ، وتطورٌ في آلات النّقب والنّقض المستخدمة . وقد أبرزت الحروب الصليبيّة تفوقاً واضحاً للمسلمين في مجال النقب ، واشتهر أمر النقابين الحلبيّين . والحصار وسيلة قد تطبّق في البحر أيضاً ، فكانت سفن المسلمين مثلاً تقوم بمحاصرة سفن الفرنجة ، وتحيط بها من كل جانب حتى تضطرّها إلى التسليم ، وقد تلجأ السفن إلى المطاردة وقذف سفن العدوّ بالنشّاب على نحو ما جرى بأيله (٥٧٨ / ١١٨٢) .

لكنّ حصار المدن والحصون البحريّة لم يكن للمسلمين قِبَلٌ بها ، لِضعف أسطولهم ، فيما تفوّق الفرنج في هذا المجال ، وحصارهم لعكّا هو المثال الأبرز .

★ ★ ★

وكان كثير من المعارك ينتهي بتوقيع هدنة أو اتفاقية صلح ، ويلوح من خلال هذه الدراسة أنّ المسلمين كانوا يُرجّحون المصلحة العليا قبل إعلان رأيهم بعرض الصُّلح ، وكان السُّلطان يلجأ في هذا الأمر إلى الشورى ، فإن وجد المسلمون أنّ ما يمكن أن يترتب على المسلمين من أذىً أكبر مما يمكن أن يترتّب من نفع امتنعوا عن قَبوله .

. . وكان المسلمون ينظرون إلى الهدن بعين الحذر والتيقظ نظراً لما عهدوه في خصمهم من عدم الوفاء والالتزام بالعهود والمواثيق . وهنا يظهر دور الأدب بوضوح ، إذ كان الشعراء والكُتّاب يحذّرون السّلاطين من غدر الفرنجة ويذكّرونهم بما كان قد وقع منهم في وقت سابق ، وجرى الشعراء على أنّ الدافع إلى توقيع الهدن في أغلب الأحيان هو الاستجابة لإلحاح الفرنجة في طلب الصُّلح جَرّاء الضغط الواقع عليهم . فيما تناول الكتّاب الحديث عن الهدن بصورة أوسع وأشمل .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمّا ما كانت تُسفر عنه المعارك من أسرى ، فقد كانت سياسة المسلمين تجاهه تقوم أصلاً على مبدأ تطبيق حكم الله في الأسرى فإمّا المَنّ بإطلاق سراحهم ، وإمّا الفداء بالمال أو بفك أسر عدد من المسلمين في المقابل أو بكليهما ، فإن عجزوا عن الفدية ضمن مُدّة محدّدة ضُرب عليهم الرقّ . فإذا كان الاسرى ممّن لا تُؤمَن غائلتهم إن أُطلق سراحهم ، وقد يأتون بما يعود بالضرر على المسلمين فقد كان السلطان يأمر بقتلهم ، وكذلك كان يفعل عندما كان الفرنجة يغدرون بأسرى المسلمين لديهم . فيما نُقل عن الفرنجة أنهّم كانوا يسيئون معاملة أسراهم ، فيستغلّون مَن يتبقّى لديهم بالاعمال الانشائية الشاقّة ، ويختارون مَن يظنّون فيه القوّة والقدرة على النهوض بهذا العمل ، وربّما اتخذ الفرنجة الأسرى وسيلة ضغط حين يتمّ الاتفاق على تبادل الأسرى ، كما كانوا أحياناً يتّخذون من أسراهم سلعة يعرضونها للبيع ويحققون ببيعها مكاسب ماديّة .

وبالحديث عن الأسرى يكون هذا الملخص قد اقترب من نهايته وهنا لابُدّ من الاشارة إلى دور الأديب في تصوير بعض ظواهر المعركة ممّا قد لا يلتفت اليه المؤرّخ أو كاتب فنّ الحرب ، فمن تلك الظواهر : وصف غبار المعركة ، إذ من النّادر أن يهتمّ مُؤرّخ بغبار المعركة ، إلاّ إذا اتخذه رمزاً لكثرة الناس وشدّة الالتحام ، ولكنّ هذا الموضوع كثر الحديث عنه عند الأدباء في هذا العصر .

ومن الظواهر كذلك تصويرُ النّصر أو الهزيمة ، وقد عبرّ الشعراء عن مشاعرهم تجاه النصر بصورة مختلفة تنمّ عن احساس عامّ بالفرح والسُّرور . فإذا كان الحديث عن الهزيمة إن كانت في جانب المسلمين، فالاتجاه الغالب يدور حول تقليل آثار الفشل ، حفاظاً على الرّوح المعنويّة ، وإن كانت في جانب الفرنجة فالحديث عنها يكون في الغالب مشفوعاً بالشماتة والسّخرية .

وقد جاء اهتمام الأدب بهذه الظواهر لتقف جنباً إلى جنب مع الظواهر الحربيّة الأخرى التي اشترك الأديب والمؤرخ في رصد صورتها من أجل تقديم صورة متكاملة لفن الحرب في هذا العصر .

وفي الختام كان لابُدّ من الحديث عن أبرز المعالم الفنيّة ذات الصّلة بأدب الحرب في هذا العصر ، وقد اعتُبر العماد الاصفهاني نموذجاً حَيّاً وشاهداً قوياً على هذا الأدب شعره ونثره ، فما من أحد ينكر أنّ العماد استطاع أن يضع أصولاً كثيرة في أدب الحروب الصليبية وذلك لاندماجه الكليّ ـ من الزاوية الأدبيّة ـ في أحداث تلك الحروب . ووقوفه موقف المعبرّ الرسميّ عنها ، ومحاولته أن يُدوّن تاريخها بأسلوب جديد ، ومن أبرز تلك الأصول التي يمكن النظر إليها على أنهّا من مميّزات الأدب في هذا العصر :

★ اشتقاق الجناس من أسماء الفرنجة .

★ تطلّب الصورة منها يبعد مطلبها .

★ استخدام الالوان استخداماً يسترعي النظر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

★ الاكثار من ذكر أسماء المواقع الجغرافية .

★ التدرّج في الغاية (من خصوصيات العماد) .

★ الرّبط بين الماضي والحاضر .

★ تكرار بعض الصور .

★ تصوير الوضع النفسي للمنتصر والوضع النفسي للمنهزم .

★ تصوير المدينة المفتوحة وتلك العصيّة على الفتح .

❊ ❊ ❊

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تعريف بالأعلام

١ ـ ابن الأثير (٦٣٠ هـ) :

أبوالحسن عزّ الدين علّي بن الأثير ين محمد الشيباني الجزري، المؤرخ، صاحب التصانيف المعروفة، ومنها : « الكامل في التاريخ » و « الباهر في أخبار الدولة الاتابكيّة » .

(النجوم الزاهرة ٦ : ٢٨١)

٢ ـ ابن اسرائيل (٦٧٧هـ) :

محمد بن سوار بن اسرائيل بن الخضر ، نجم الدّين أبو المعالي الشيباني ، شاعر مشهور ، كان متصوفاً قادراً على النظم ، مكثراً منه ، وهو من أهل دمشق ، وُلد وعاش فيها .

(فوات الوفيات ٣ : ٣٨٣) .

٣ ـ ابن بُصاقة (٦٥٠هـ) :

نصر الله ين هبة الله بن بُصاقة ، الحَنَفي الكاتب ، كتب لبعض سلاطين بني أيوب .

(شذرات الذهب ٥ : ٢٥٢)

٤ ـ ابن دُنَينير:

ابراهيم بن محمد بن ابراهيم ، شرف الدّين ، وصفه الصّفدي بأنّه إمام فاضل ، ومن تصانيفه «الكافي في علم القوافي» و «الشهاب الناجم في علم وضع التراجم» ، وقد عاصر الملك الظاهر غازي .

(الوافي بالوفيات ٦ : ١٢٦)

٥ ـ ابن الدهّان (٥٨١هـ) :

المهذّب عبد الله بن اسعد بن علي ، الموصلي الشافعي ، وكان شاعراً مجيداً ، وله بَصَرٌ بالنّحو . وتوفّي في حمص .(النجوم الزاهرة ٦ : ١٠٠) .

٦ ـ ابن الذروي (٥٧٧هـ) :

علي بن يحيى . وكان قاضياً وجيهاً وشاعراً مجيداً ، وهو من أهل مصر ، ولد وعاش فيها .

(فوات الوفيات ٣ : ١١٣) .

٧ ـ ابن رواحة (٥٨٥هـ) :

الحسين بن عبد الله بن رواحة الأنصاري الشافعي الحموي الشاعر ، استشهد على عكّا .

(الخريدة ـ قسم الشام ـ ١ : ٤٧ ، وفوات الوفيات ١ : ٣٧٦)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٨ ـ ابن السّاعاتي (٦٠٤هـ) :

بهاء الدين علي بن محمد بن رستم ، المعروف بابن السّاعاتي ، شاعر معروف ، وكانت وفاته بالقاهرة عن إحدى وخمسين سنة .

(شذرات الذهب ٥ : ١٣ ـ ١٤)

٩ ـ ابن سناء الملك (٦٠٨هـ) :

ولُقّبَ بالقاضي السّعيد ، أديبٌ وشاعر مجُيد ، ذاع صيته وشاع ذكره ، وقد ترك شعراً كثيراً ، ومؤلفاً في الموشّحات سَمّاه : « دار الطّراز » .

(معجم الأدباء ١٩ : ٢٦٥)

١٠ ـ ابن شَدّاد (٦٣٢هـ) :

يوسف بن رافع بن تميم ، بهاء الدّين ، قاضي قضاة صلاح الدّين الأيّوبي ، وأحد مستشاريه المقرّبين ، وصاحب سيرة السلطان : «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيّة» وقد توفي في حلب .

(الذيل على الرّوضتين : ١٦٣)

١١ ـ ابن عساكر (٥٧١هـ) :

الحافظ ابن عساكر ، ثقة الدّين ، أبو القاسم عليّ بن الحسين بن هبة الله ، الدمشقي الشافعي ، من أصحاب الحديث ، وقد عُرف بغزارة علمه ، وله الكتاب المعروف « تاريخ دمشق » .

وفي دمشق كانت وفاته .

(الخريدة / شعراء الشام / ١ : ٢٧٤) .

١٢ ـ ابن عُنين (٦٣٠هـ) :

محمد بن نصر الله بن مكارم ، شرف الدين ، كوفي الأصل ، دمشقيّ المولد والنشأة ، كان مقدّماً بين شعراء زمانه . وكثر عنده المديح والهجاء .

(الوافي بالوفيات ٥ : ١٢٢)

١٣ ـ ابن قُسَيم الحموي (بعد ٥٤٠هـ) :

أبو المجد ، مسلم بن الخضر بن مسلم بن قُسَيْم الحموي التّنوخي من أهل حماة ، ذو شعر جيّد ، وكان معاصراً لابن القيسراني وابن مُنير .

(الخريدة / شعراء الشام / ١ : ٤٣٤)

١٤ ـ ابن القلانسي (٥٥٥هـ) :

حمزة بن أسد بن عليّ أبو يعلى التميمّي الدمشقيّ ، كان فاضلاً أديباً مُترسّلاً ، وهو صاحب « ذَيل

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تاريخ دمشق » .

(النجوم الزاهرة ٥ : ٣٣٢)

١٥ ـ ابن القيسراني (٥٤٨هـ) :

أبو عبد الله ، محمد بن نصر بن صغير القيسراني ، المولود بعكّا ، وكانت نشأته بقيساريّة فنُسب إليها ، ثم رحل إلى حلب فدمشق ، ووصف بأنّه شاعر زمانه .

(الخريدة / شعراء الشام / ١ : ٩٦ ، النجوم الزاهرة ٥ : ٣٠٢)

١٦ ـ ابن مطروح (٦٥٠هـ) :

جمال الدين ، أبو الحسن بن يحيى بن عيسى بن ابراهيم بن الحسين ، الشهير بابن مطروح ، وُلد ونشأ في صعيد مصر ، ثم قدم القاهرة فبرع في الكتابة والأدب ، وتوثّقت صلتُه بالملك الصّالح نجم الدين أيّوب ، فكتب له ومدحه في شعره .

(النجوم الزاهرة ٧ : ٢٧) .

١٧ ـ ابنَ مَنْكَلي (٧٨٤هـ) :

محمد بن محمود بن منكلي القاهري ، عُرف بصناعة الحرب ، ومن آثاره : « أنُس المَلا بوحش الفَلا» و «الأدلة الرسميّة في التّعابي الحربيّة» و «المنهل العذب لورود أهل الحرب» .

(شذرات الذهب ٦ : ٢٨٦ ، هديّة العارفين ، اسماعيل باشا البغدادي (١٣٣٩هـ) ، مكتبة المثنى (١٩٥١) ٢ : ١٧٢ . ومعجم المؤلّفين ١٢ : ٨)

١٨ ـ ابن مُنير (٥٤٨هـ) :

أبو الحسين ، أحمد ين مُنير بن أحمد الطّرابُلسي ، المُلقب مُهَذّب الدّين ، كان أحد مشهوري عصره في نظم الشعر ، وقد كثر في شعره المدح والهجاء ، وكانت إقامته في دمشق .

(ابن خلكان (٦٨١هـ) ، وفيات الأعيان ، تحقيق : د . احسان عبّاس ، دارصادر (١٩٦٨) ١ : ١٥٦) .

١٩ ـ ابن النبيه (٦١٩هـ) :

كمال الدين ، عليّ بن محمد بن يوسف ، المعروف بابن النّبيه ، وصفه ابن العماد الحنبلي بأنّه ، العلامة الكاتب الشاعر ، صاحب ديوان الملك الأشرف موسى .

(شذرات الذهب ٥ : ٨٥)

٢٠ ـ ابن النحّاس : (. . .)

واسمه عليّ ، ويقال إنّه ابن عريف النّحاسين بدمشق ، غير أنّه لم يكن له اسمٌ في الدّيوان ، وقد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان عارفاً بالنفط والحريق ، وإليه الفضل في حرق الأبراج التي نصبها الفرنجة على أسوار عكّا ٥٨٦ . ويذكر سبط ابن الجوزي أنّه اجتمع بابن النّحاس في حلب سنة ٦٠٣، وكان يحضر مجالسه.

(الفيح القُسّي ٣٧٠ ومرآة الزّمان ٨ : ٢٥٧)

٢١ ـ أبو شامة المقدس (٦٦٥هـ) :

عبد الرحمن بن اسماعيل بن عثمان ، مقدسّي الأصل ، دمشقيّ النشأة ، فقيه ومقرىء ومؤرخ ونحوي .

(بُغية الوعاة في طبقات النُّحاة ، السيوطي (٩١١هـ) تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم (١٩٧٩) ٢ : ٧٨) .

٢٢ ـ اسامة بن منقذ (٥٨٤هـ) :

أسامة بن مرشد بن منقذ ، مؤيد الدّولة ، كانت ولادته في « شيزر » بالقرب من حماة ٤٨٨، وهو من الأمراء الشعراء الفرسان ، وله عدّة مؤلفات من أشهرها : كتاب الاعتبار والمنازل والدّيار ، والعَصا ، وله ديوان شعر كبير .

(معجم الأدباء ٥ : ١٩٢)

٢٣ ـ الأشرف موسى (٦٣٥هـ) :

الملك الأشرف ، أبو الفتح مُظفّر الدين موسى شاه أرمَن ابنُ السلطان الملك العادل ، مَلَك الرُّها أيّام أبيه ، ثُم ملك دمشق ،وفيها كانت وفاته . وقد عُرف بالحلم والجود .

(النجوم الزاهرة ٦ : ٣٠٠)

٢٤ـ الملك الأفضل (٦٢٢هـ)

علّي بن صلاح الدّين يوسف بن أيّوب ، كان ولّي عهد أبيه ، وقد ملك دمشق وما حولها ، والأرض المقدسةَ وأعمالها .

(الذيل على الرّوضتين : ١٤٥ ، النجوم الزاهرة ٦ : ٢٦٢) .

٢٥ ـ الملك الأمجد (٦٢٨هـ):

مجد الدين أبو المظفر بهرام شاه بن فَرّوخ شاه بن أيّوب صاحب بعلبك ، وكان جواداً محسناً وشاعراً مجيداً ، قُتل على يد مملوك له .

(شذرات الذهب ٥ : ١٢٦ ـ ١٢٧)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢٦ ـ إياز الطّويل (٥٨٧هـ) :

بعض مماليك صلاح الدين ، كان بطلاً شجاعاً ، له صولات وجولات مع الفرنجة ، «جرت له وقعات مثيرة صدقت أخبار الأوائل»

(النوادر السّلطانية : ١٨٠) .

٢٧ ـ بهاء الدين زهير (٦٥٦هـ) :

بهاء الدّين زهير بن محمد بن عليّ الأزدي المكّي ، ولد ونشأ بقوص من أراضي مصر ، صحب الملك الكامل الأيوبّي وكتب له ، كما قال فيه شعراً ، وهو شاعر مشهور .

(النجوم الزاهرة ٧ : ٦٢ ، شذرات الذهب ٥ : ٢٧٦)

٢٨ ـ تاج الملوك الأيّوبّي (٥٧٩هـ) :

تاج الملوك بوري بن أيّوب بن شادي ، أخو السّلطان صلاح الدّين ، جَمَع بين مكارم الأخلاق والشجاعة والفصاحة ، وكان شاعراً بليغاً ، توفّي من سهم أصابه في حصار حلب .

(النجوم الزاهرة ٦ : ٩٦)

٢٩ ـ الجلياني (٦٠٠هـ) :

حكيم الزمان ، أبو الفضل عبد المنعم بن عمر بن عبد اللّه الغسّاني الأندلسي الجلياني ، عاش في الشام ، وامتهن الكحالة والطّب وبرع فيهما ، كما برع في الأدب وصناعة الشعر .

عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء : ٦٣٠) .

٣٠ ـ الجوّاني (٥٨٨هـ) :

الشريف النسّابة المصري محمد بن أسعد بن علي بن معمر الحلبي ، نقيب الأشراف بالديار المصريّة .

(الرّوضتين ٢ : ١٠٥) .

٣١ ـ دلدرم اليساروقي (٦١١هـ) :

بدر الدّين دلدرم اليساروقي ، صاحب تلّ باشر ، وقد كان من قادة عساكر صلاح الدّين .

(الذّيل على الرّوضتين : ٨٧)

٣٢ ـ الرّشيد النّابلسي (٦١٩هـ) :

عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن المفرّج بن بكّار ، شاعرٌ معروف في زمنه ، مدح صلاح الدّين وأبناءه ، واتّصل في أخرياته بالملك المعظم عيسى ، ولم يزل منقطعاً إليه إلى أن توفّي .

(وفيات الأعيان ٥ : ٢٦٦)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣٣ ـ زين الدّين بن نَجا (٥٩٩هـ) :

أبو الحسن علي بن ابراهيم بن نَجا الحنبلي ، وُلد بدمشق ونشأ فيها ، واشتغل بالتفسير والوعظ ، فكانت له منزلة جليلة لدى صلاح الدّين ، ويُقال : إنّ زين الدين هو الذي كشف تآمر عمارة اليمني وأصحابه لاعادة الفاطميّين إلى الحُكم في مصر .

(الذيل على الرّوضتين : ٣٥)

٣٤ ـ سالم (. . .)

ويكنى أبا العلاء ، كاتب هشام بن عبد الملك ، وكان خَتَنَ عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وهو أحد الفصحاء البلغاء .

(الفهرست دار المعرفة ـ د . ت : ١٧١) .

٣٥ ـ سبط ابن التّعاويذي (٥٨٣هـ) :

محمد بن عُبيد الله ، أبو الفتح البغدادي ، شاعر مشهور ، وله ديوان شعر كبير معظمه في المدح .

(النجوم الزاهرة ٦ : ١٠٥)

٣٦ ـ سعادة الحمصي (أواخر القرن السّادس) :

سعادة بن عبد الله ، من أهل حمص ، كان ضريراً مملوكاً لبعض الدمشقيّين ، سافر إلى مصر في أول عهد صلاح الدّين فمدحه ثم عاد إلى دمشق .

(خريدة القصر شعراء الشام ١ : ٤٠٦)

٣٧ ـ الشّاغوري (٦١٥هـ) :

فتيان بن علي الأسدي ، المنعوت بالشّهاب الشاغوري نسبة إلى الشّاغور بظاهر دمشق ، وله حديث وشعْر كثير .

(خريدة القصر شعراء الشام ١ : ٢٤٧ ، التكملة لوفيات النّقلة ، المنذري ٤ : ٣١٢)

٣٨ ـ شرف الدّين الأنصاري (٦٦٢هـ) :

الصّاحب شرف الدّين عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصاري وُلد في دمشق ، وعاش وتوفّي في حماة ، وكان شاعراً مجيداً .

(النجوم الزاهرة ٧ : ٢١٤)

٣٩ ـ طغتكين (٥٢٣هـ) :

الأمير ظهير الدّين ، حكم دمشق عدّة سنوات ، وجاهد الفرنج غيرَ مَرّة ، وكان عادلاً في رعيّته .

(النجوم الزاهرة ٥ : ٢٣٤)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤٠ ـ طلائعُ بن رُزّيك (٥٥٦هـ)

الملك الصالح ، وكنيته أبو الغارات ، أرمني الأصل ، أقام وزيراً بمصر سبع سنوات إلى أن قتله أحد الباطنيّة ، وكان جَواداً ممدّحاً وشاعراً مجيدا .

(النجوم الزاهرة ٥ : ٣٤٥) .

٤١ ـ عبد الحميد الكاتب (١٣٢هـ)

عبد الحميد بن يحيى بن سعد ، أديب كاتب بليغ ، من الأنبار وأقام في الشام ، كتب لمروان بن محمّد آخر خليفة أموي في المشرق الاسلامي ، ومن آثاره « مجموعة رسائل » وكتاب « نصيحة الكُتّاب » .

(الفهرست : ١٧٠ ، معجم المؤلفين ٥ : ١٠٦) .

٤٢ ـ العرقلة الكلبي (٥٧٦هـ) :

أبو النّدى حسّان بن نُمير ، ويعرف بعرقلة الدمشقيّ أيضاً . ولد في دمشق ونشأ فيها ، ثم تنقّل في البلدان يمدح ولاتها ومقدّميها ، وله مدح في صلاح الدّين ، ورُمي بالتشيّع .

(الخريدة / شعراء الشام / ١ : ١٧٨) .

٤٣ ـ عزّ الدين جُرديك (٥٩٤هـ) :

جُرديك بن عبد الله النوري ، من أكابر أمراء نور الدّين ثم صلاح الدين ، وشهد غزوات صلاح الدين كُلّها ، وكان أميراً مهيباً شجاعاً ، تولّى نيابة القدس .

(النجوم الزاهرة ٦ : ١٤٣) .

٤٤ ـ علم الدين أيدَمُر ـ ٦٥٠هـ) :

علم الدّين أيدَمُر المُحيوي ، قال فيه الكُتبي : « فخر الترك عتيق محي الدين محمد بن محمد بن نَدى ، بَرَع في المنثور والموزون وقد كان شاعراً مطبوعاً » .

(فوات الوفيات ١ : ٢٠٨) .

٤٥ ـ علي المشطوب (٥٨٨هـ) :

سيف الدّين علّي بن أحمد المشطوب ، من أمراء عساكر صلاح الدين ، وقد خاض معه معظم غزواته ، وكانت وفاته في مدينة القدس .

(النّوادر السّلطانيّة : ٢٤٠) .

٤٦ ـ العماد الاصفهاني (٥٩٧هـ) :

محمّد بن محمد بن حامد ، الأمام العلّامة عماد الدّين الأصفهاني ، ولد بأصفهان (٥١٩هـ) ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقدم بغداد شاباً ، فاشتغل بالأدب ثم برع في الانشاء ، ودخل في خدمة نور الدّين أولاً ثم انتقل إلى خلفه صلاح الدين ، ومن مؤلفاته المشهورة : « خريدة الدّهر » و « البرق الشّامي » .

(معجم الأدباء ١٩ : ١١) .

٤٧ ـ عماد الدّين صاحب سنجار (٥٩٤هـ) :

الملك عماد الدّين زنكي بن قطب الدّين مودود بن أتابك زنكي ، تملّك حلب بعد ابن عمّه الصّالح اسماعيل ، وكان عادلاً متواضعاً .

(العِبرَ في خَبر من غَبر، الذهبي، تحقيق صلاح الدّين المنجّد ، الكويت (١٩٦٣) ٤ : ٢٨٣ ـ ٢٨٤).

٤٨ ـ عمارة اليمني (٥٦٩هـ) :

فقيه فرضي وشاعر ماهر ، من أهل اليمن وفيها ولد (٥١٥هـ) ثم قدم إلى مصر (٥٥٠هـ) وامتدح الخلفاء الفاطميين بقصائد سنيّة ، وقيل إنّه كان يميل إلى الرّفض ، تآمر مع جماعة من أعيان القاهرة لإعادة دولة الفاطميين بعد سقوطها ، فأمر صلاح الدّين بشنقهم جميعاً بعد أن تحقّق من نيّتهم .

(بدائع الزهور في وقائع الدّهور ١ : ق ١ : ٢٤٠) .

٤٩ ـ عيسى الهكّاري (٥٨٥هـ) :

الفقيه ضياء الدين عيسى ، وكان صاحب أسد الدّين شيركوه ، ومضى معه إلى مصر حين ملكها ، ثم اختصّ بصلاح الدين بعده ، وتولّى حلّه وعقده .

توفي أثناء وجوده في العسكر بمنزلة الخروبة ، ونُقل إلى القدس ودفن فيها .

(كتاب الرّوضتين ٢ : ١٥٠) .

٥٠ ـ القاضي الفاضل (٥٩٦هـ) :

عبد الرّحيم بن عليّ بن محمّد اللخمي العسقلاني البيساني ، ولد في عسقلان ، وكان والده قاضياً في بيسان فَنُسب إليها . عمل في ديوان الانشاء في مصر ، ثم انتقل إلى خدمة صلاح الدين فحظي عنده ، وأصبح وزيره ومستشاره في كثير من الأمور . ،قد كان القاضي الفاضل إلى جانب عمله في الكتابة شاعراً مجيداً .

(وفيات الأعيان ١ : ٥٠٩ ، شذرات الذهب ٤ : ٣٢٤) .

٥١ ـ قايماز النّجمي (٥٩٦هـ) :

صارم الدّين قايماز النّجمي ، كان متولّي أعمال صلاح الدّين في مخيّمه وبيوته ، وكان يستأمنه على المدن المفتوحة ، عُرف بأعمال البِرّ والاكثار من انشاء الرُّبَط والقناطر .

(كتاب الرّوضتين / دار الجيل / ٢ : ٢٣٩) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥٢ ـ محي الدين بن الزّكي (٥٩٨هـ) :

أبو المعالي محمد بن علي بن محمّد بن يحيى القرشي ، تولّى قضاء دمشق ثمّ أصبح قاضياً للقضاة في عهد صلاح الدّين ، وكان عالماً كاتباً حسن الخطّ واللّفظ ، وهو أوّل من خطب في المسجد الأقصى بعد فتح بيت المقدس (٥٨٣هـ) .

(الذّيل على الرّوضتين : ٣١ ـ ٣٢) .

٥٣ ـ مظفّر الدّين كوكبوري (٦٣١هـ) :

مظفّر الدين كُوكُبوري ابن زين الدين بن بُكتكين التركماني ، تولّى النّظر في أمور إربل بعد وفاة أبيه .

(النجوم الزاهرة ٦ : ٢٨٢) .

٥٤ ـ معين الدّين أُنُر (٥٤٤هـ) :

كان مملوكاً للأتابك طغتُكين ، ثُمّ مُدبراً لدولة أستاذه من بعده ، حكم دمشق نيابة عن أولاد طغتكين ، وعُرف بجلال قدره وعلوّ همته .

(النجوم الزاهرة ٥ : ٢٨٦) .

٥٥ ـ مودود (٥٠٧هـ) :

الأمير مودود صاحب الموصل ، قدم دمشق لمساعدة الأمير ظهير الدّين طُغتكين صاحبها في قتال الفرنجة ، لكنّه قُتل غدراً في صحن الجامع الأموي ، ويقولون في سيرته أنّه كان من خيار الملوك ديناً وشجاعة وخيراً .

(النجوم الزاهرة ٥ : ٢٠٧) .

٥٦ ـ يعقوب بن صابر المنجنيقي (٦٢٦هـ) :

قال فيه ابن العماد الحنبلي : «كان فاضلاً أديباً شاعراً بَرَعَ على كُلّ أهل صناعته في علم المنجنيق» .

(شذرات الذهب ٥ : ١٢٠) .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملحق (١)

معجم الألفاظ الأعجمية التي أقدّر أنّها عُرّبت في هذا العصر

اللفظة	معناها	أصلها
أتابك (١)	من ألقاب أمير الجيوش ومَن في معناه ، وأصله بالطّاء ، فقلبت تاءً في الاستعمال ، ومعناه : الأب الأمير .	تركيّة
أُزبُك (٢)	قائد الجيش	تتريّة
الاسبتاريّة (٣)	تعريب لـ Hospitallers ، وكان يطلق على طائفة من الفرسان الدّينيّين .	لاتينيّة
أَسفَهْسِلار (٤)	من ألقاب أرباب السّيوف ، ومعناه : « مُقدّم العسكر » وهو مُركّب من لفظين : « أسفَه » بالفارسية بمعنى « المُقدّم » و « سلار » بالتركية بمعنى : العسكر .	فارسيّة تركيّة
الاصطبليّة (٥)	القائمون على رعاية حيوانات الركوب	
الانكتار (٦)	ملك الانجليز	
البارون (٧)	لقب من ألقاب الوجاهة عند الفرنجة	
البارونيّة (٨)	أمراء الاقطاع	
باشورة (٩)	الحائط الظاهري من الحصن يختفي وراءه الجند عند القتال.	
برجاسي (١٠)	تاجر ، وأصلها Bourgeoisie .	لاتينيّة
بركوس (١١)	ضَرْبٌ من السّفن ، مُعَرّب Barcoro	إيطالية
برنس (١٢)	لقب من القاب الوجاهة عند الفرنجة .	
البسكند (١٣)	تعريب (viscount) ، لقب من القاب الوجاهة عند الفرنجة.	لاتينيّة
بُطْسة (١٤)	السفينة الكبيرة	اسبانيّة
بيكار (١٥)	دائرة مصافّ العسكر	
تركاش (١٦)	وجمعها تراكيش ، والتركاش : جعبة السّهام	
تركبولي (١٧)	تعريب Turcopole ، وتعني : جندٌ في خدمة الافرنج ، آباؤهم أتراك أو عرب وأمّهاتهم يونانيات .	يونانيّة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللفظة	معناها	أصلها
الجاليش (١٨)	في الأصل : الرّاية العظيمة في رأسها خصلة من الشعر ، ثم أطلق على مقدّمة القلب في الجيش ، أو على الطّليعة .	تركيّة
الجاندارّية (١٩)	مركبة من كلمتين : (جان) بمعنى : روح و (دار) بمعنى حافظ ، فجاندار تعني : حافظ الرّوح ، وهم الحرس أو العَسَس .	فارسيّة
الجَرْخ (٢٠)	نوعَ من القِسّي	فارسيّة
الجوشَن (٢١)	صفائح حديدية أو جلديّة مستطيلة الشكل ترتّب في صفوف أفقية ، وتقوم مقام الزّرَد الواقي .	تركيّة
الخربنديّة (٢٢)	الذين يتولّون العناية بأمور البغال	
الخركاه (٢٣)	والجمع : خَركاوات ، وهي نوع من الخيام	فارسيّة
خِشْت (٢٤)	حَرْبة	فارسيّة
الداويّة (٢٥)	طائفة فرسان المعبد Templars	لاتينيّة
الدستور (٢٦)	الإذن بالعودة إلى البلاد	
دركاه (٢٧)	بلاط الملك	فارسيّة
دُشني (٢٨)	خَنجر	فارسيّة
الدّهليز (٢٩)	الخيمة التي ترافق السّلطان في الحرب	تركيّة
زردخاناه (٣٠)	بيت السّلاح	
زردكاش (٣١)	صانع السّلاح	
سِرجَند (٣٢)	تعريب Seargent : من ألقاب العسكر	لاتينيّة
سرفَسار (٣٣)	تعريب سَرَ أفْسار ، وتعني رأس العنان	يونانيّة
سقلاطون (٣٤)	نوع من ثياب الكِتّان المُوشّاة	فارسيّة
سِير (٣٥)	لقب من القاب الوجاهة عند الفرنجة	لاتينيّة
الشاووش (٣٦)	جندي مهمّته النداء والدعوة إلى النّفير	تركيّة
الطّبل خاناه (٣٧)	موسيقى الجيش	تركيّة
الطّست دار (٣٨)	أحد الغلمان المشرفين على الطشت خاناه اي بيت الطّشت ،	تركيّة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللفظة	معناها	أصلها
	سُميّت بذلك لأنّ فيها تُغسل حوائج السّلطان .	
الطُّلَبْ (٣٩)	لفظ معناه : الامير الذي يقود مائتي فارس أو نحوهم في الحرب	كُرديّة
الطّوارق (٤٠)	مُعرّب Targa ، وتعني نوعاً من التّراس	لاتينيّة
الفريريّة (٤١)	من القاب الفرنجة (frere)	
الفرنسيسيّة (٤٢)	الفرنجة الذين جاءوا من فرنسا	
القُنطاريّة (٤٣)	قناة الرُّمح ، وتُطلق على الرُّمح كُلّه .	يونانيّة
القومص (٤٤)	تعريب لكلمة Comes ، . وتعني : الأمير	لاتينيّة
كزاغُند (٤٥)	سترة سميكة تقوم مقام الدّرع في القتال	فارسيّة
الكُند (٤٦)	لقب من القاب الوجاهة عند الفرنج ، وأظنه تعريب : (Conte)	لاتينيّة
مدام (٤٧)	سيّدة	لاتينيّة
المركيس (٤٨)	لقب من القاب الوجاهة عند الفرنجة (Marquise)	لاتينيّة
النِّمجاة (٤٩)	خنجر مُقوّس ، يشبه السّيف القصير ، وهي تعريب للفظة «نيمجة» .	فارسيّة
الوِطاق (٥٠)	تعريب (أوتاق) ، ومعناها : الخيمة أو المعسكر	تركيّة
اليزك (٥١)	طلائع الجيش	فارسيّة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هوامش الملحق (١) الخاصّ بالالفاظ الدخيلة

(١) صبح الأعشى ٦ : ٣

(٢) الاعتبار : ٩٤ في المتن والهامش

(٣) النوادر السلطانيّة : هامش صفحة ٧٧

(٤) صبح الأعشى ٦ : ٦

(٥) النوادر السلطانيّة : ٢١٥

(٦) المصدر السابق : ٢١٢ ، ٢١٧

(٧) الخريدة (شعراء دمشق) : ٥٩

(٨) الفيح القُسّي : ٦٢ ، ١٢٥ ، ١٦٤

(٩) النّوادر السلطانيّة : ١٥٣ ، ويرى الدكتور الشيال أنّها يُقابلها في الفرنسيّة " Bastion "

(١٠) الاعتبار : ٨١

(١١) المصدر السّابق : ١٤٤ المتن والهامش

(١٢) الخريدة (شعراء دمشق) : ٥٥

(١٣) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ٣٢١ ، وانظر مقدمة كتاب الاعتبار (ص : ٥٥) وقد استعملها أسامة : انظر ص :١٧٨

(١٤) النوادر السلطانيّة : ٤٩ المتن والهامش

(١٥) الفيح القُسّي : ١٩٩ ، ٥٥٣

(١٦) معجم دوزي ٢ : ٣٨ لم يذكر دوزي أصلها ، ويُظَنّ انها تركيّة

(١٧) الاعتبار : ٦٥ المتن والهامش

(١٨) النوادر السلطانيّة : ٦٢

(١٩) النجوم الزاهرة ٥ : ٢٣٠ المتن والهامش

(٢٠) معجم دوزي ٢ : ١٧٤

(٢١) كتاب الروضتين ١ : ٢٥٦

(٢٢) النوادر السلطانيّة : ١١ ، ٢١٤

(٢٣) المصدر السّابق : ٢٨ المتن والهامش

(٢٤) الاعتبار : ٦٧ المتن والهامش

(٢٥) النوادر السّلطانيّة : ٧٧ وانظر الهامش أيضاً

(٢٦) المصدر السابق : ٦٠ و ٩٤ ، ١٤٦ . . .

(٢٧) الاعتبار ص ٦٣ ، ومقدّمة الكتاب (ص : ٥٥)

(٢٨) الاعتبار : ٦٧

(٢٩) النوادر السلطانيّة : ١٧٦ والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى : ١٣٨

(٣٠) النوادر السلطانيّة : ١٧٩

(٣١) المصدر السّابق

(٣٢) الاعتبار : ٩٧ المتن والهامش

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(٣٣) الاعتبار ص ١٦ وانظر مقدمة حِتّي

(٣٤) الاعتبار : ١٢ المتن والهامش

(٣٥) الخريدة (شعراء دمشق) : ٥٩

(٣٦) النوادر السلطانية : ٦٢ ، ١٠٩ وانظر : الاعتبار : ١٩٦

(٣٧) النّوادر السّلطانيّة : هامش ص ٢٠

(٣٨) المصدر السّابق : هامش ص ١١٦

(٣٩) الدّر النظيم : ٣٦ ، النوادر السّلطانيّة : ٦٢

(٤٠) النوادر السلطانيّة : ١٢٧

(٤١) الفيح القُسي : ١٢٥

(٤٢) المصدر السّابق : ١٦١

(٤٣) الاعتبار : ٥٠

(٤٤) النوادر السلطانيّة : ٧٧ المتن والهامش

(٤٥) الاعتبار : ٥٩

(٤٦) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ٣٢١

(٤٧) كتاب الرّوضتين (دار الجيل) ٢ : ١٣١

(٤٨) ديوان فتيان الشاغوري : ٢٢٤

(٤٩) النوادر السلطانيّة : ٧٩ انظر المتن والهامش

(٥٠) المصدر السّابق : ١٢٩

(٥١) المصدر نفسه : ١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملحق (٢)

تجربة أوّليّة في العروض والقافية

في محاولة للكشف عن الأوزان التي استخدمها شعراء مصر والشام في عهد الزنكيّين و الأيوبيّين في شعر الحرب ، أجريت دراسة على مائة وأربعين بيتاً من الأبيات التي رُجع إليها عند عمل هذه الدراسة ، وهي بالضرورة تنتمي إلى العدد نفسه من قصائد تتحدث عن الحرب ، وقد انجلت الدراسة عن النتيجة التالية :

الطويل	البسيط	الكامل	الوافر	السّريع	المتقارب	الخفيف	الرجز	الرمل	مجزوء التكامل
٥٦	٣٣	٣٣	١١	٣	٣	٢	١	١	١

ويتبيّن من هذا الجدول أنّ الأوزان المستخدمة عشرة ، وأنّ هناك تفاوتاً في استخدام تلك الأوزان في أغلب الحالات ، ففي حين غَطّت البحور الأربعة الأولى وهي : الطّويل والبسيط والكامل والوافر مائة وثلاثاً وثلاثين قصيدة من القصائد المختارة ، توزّعت القصائد الاحدى عشرة الباقية على البحور الستّة الأخرى ، وقد احتلّ بحر الطويل المرتبة الأولى من حيث استعماله ، وتلاه البحران البسيط والكامل في المرتبة الثانية ، مع اتّساع الفارق بينه وبينهما ، ولعلّ السّبب في ذلك أنّ بحر الطّويل (١) « أكثر الشعر عدد حروف ، وعدد حروفه سبعة وأربعون حرفاً ، وربّما كان مُصرَّعاً فجاء على ثمانية وأربعين حَرفاً » ونُقل عن الخليل أنّه قال بعد أن سُئل عن تسميته الطّويل بهذا الاسم (٢) : « لأنّه طال بتمام أجزائه » . وتحدّث حازم القرطاجنّي عن عروض الطّويل فرأى أنّه يتّصف أبداً بالبهاء والقوّة (٣) .

وأمّا البحران الآخران : البسيط والكامل ، فهما يليان البحر الطّويل من حيث عدد حروفهما وعدد حركاتهما (٤) ، ممّا أهلّهما للاستعمال في شعر الحرب .

---

(١) الوطواط (برهان الدين الكتبي ، غُرر الخصائص الواضحة ، وعُرَر النقائص الفاضحة ، دار صعب ـ بيروت (د . ت) : ١٩٥

(٢) ابن رشيق القيرواني . العُمدة ، تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد ، مطبعة السعادة ، القاهرة ط٣ (١٩٦٤) ١ : ١٣٦

(٣) د . احسان عباس . تاريخ النقد الأدبي عند العرب . ط٤ دار الثقافة ـ بيروت (١٩٨٣) : ١٣٦

(٤) العمدة ١ : ٩٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومعروف أنّ الطويل والبسيط ينتميان إلى دائرة واحدة من دوائر الخليل العروضيّة ، وهي دائرة المختلف (١) ، وفي حين ينتمي الكامل والوافر إلى دائرة أخرى ، وهي دائرة المؤتلف (٢) . وهذا يعني بالضرورة أنّ الأوزان ضمن هاتين الدّائرتين هي الأكثر صلاحيّة لشعر الحرب ، خلافاً للأوزان ضمن الدّوائر الثلاث الأخرى المتبقية التي أظهرت هذه الدراسة نُدرة النظم عليها في موضوع الحرب .

وبالنسبة إلى قوافي القصائد التي تناولت موضوع الحرب في عهد الزنكيين والأيوبيّين ، فقد أسفرت دراسة أجريت على مائة وأربعين قصيدة تمثّل شعر الحرب في هذا العهد عن النتائج التالية الموضحة في الجدول أدناه :

حروف القوافي	الرّاء	اللاّم	النّون	الميم	الدّال	السين	الباء	الهاء	الفاء	العين	الحاء	الطّاء	القاف	الكاف	الزّاي
عددها	٣٢	٢٤	٢٠	١٦	١١	١١	٨	٤	٤	٣	٢	٢	١	١	١

وباستقراء الجدول المشار اليه ، تبيّنَ أنّ حروف القوافي في القصائد موضوع الدراسة انحصرت في خمسة عشر حرفاً ، وهذا يعني بالضرورة أنّ الثلاثة عشر حرفاً المتبقيّة لم يُنظم عليها البتّة ، وهذه الحروف هي :

الهمزة، التاء، الثّاء، الجيم، الخاء، الذّال، الشين، الصّاد، الضاد، الظّاء، الغين، الواو، الياء .

كما تبيّنَ أنّ حرف الرّاء كان أكثر الحروف استخداما ، ويليه حرفا اللام فالنّون ، والقوافي على هذه الحروف الثلاثة تمثّل أكثر من خمسين بالمائة من مجمل القوافي ، ومعنى هذا أنّ هناك تفاوتاً في عدد مرّات استخدام الحروف الخمسة عشر التي وردت في الجدول أعلاه كقوافي للقصائد المعنيّة بالدراسة ، ففي حين تكرّرت الرّاء اثنتين وثلاثين مرة ، فإنّ القاف والكاف والزّاي لم يُقَفّ بِكُلّ واحدٍ منها إلاّ مرّة واحدة ، وهكذا . . .

* * *

(١) العمدة ١ : ١٣٥

(٢) المصدر السابق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفهارس العامّة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مَسرد الآيات الكريمة

١ ـ ﴿ أتى أمرُ الله فلا تستعجلوه ﴾ النحل / الآية (١) ـ الصفحة : ١٠١ .

٢ ـ ﴿ إذ يوحي ربُّكَ إلى الملائكةِ أنّي معكم ، فثبتوا الّذين آمنوا ، سألقي في قلوب الذين كفروا الرّعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كُلَّ بَنان ﴾ الأنفال / الآية (١٢) ـ الصفحة : ٩٠ .

٣ ـ ﴿ وإن جَنَحوا للسَّلْم فاجنَح لها وتوكَّلْ على الله ، إنّه هو السَّميعُ العليم ﴾ الأنفال / الآية (٦٢) ـ الصفحة : ١١٥ .

٤ ـ ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهَدتمُ ، ولا تَنقُضوا الأيمانَ بعد توكيدها ، وقد جعلتُم الله عليكم كفيلا ، إنّ الله يعلَم ما تفعلون ﴾ . النّحل / الآية (٩١) ـ الصفحة : ١١٥ .

٥ ـ ﴿ وأوفوا بالعهد إنّ العهدَ كانَ مسؤولا ﴾ .. الإسراء / الآية (٣٤) ـ الصفحة : ١١٥ .

٦ ـ ﴿ كم من فئةٍ قليلةٍ غَلَبَت فئةً كثيرة بإذن الله ، والله مع الصّابرين ﴾ . البقرة / الآية (٢٤٩) ـ الصفحة : ١٠١ .

٧ ـ ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السَّلم وأنتُم الأعلَوْن ، والله معكم ولن يَتِرَكُم أعمالكم ﴾ . محمد / الآية (٣٥) ـ الصفحة : ١٣٤ .

٨ ـ ﴿ولتَعلَمُنّ نبأهُ بعدَ حين ﴾ . سورة ص / الآية (٨٨) ـ الصفحة : ١٠١ .

٩ ـ ﴿ يا أيُّها النبيُّ حرّض المؤمنين على القتال . . . ﴾ . الأنفال / الآية (٦٥) ـ الصفحة : ٨٦ .

١٠ ـ ﴿ ولقد جعلنا في السَّماء بُروجاً وزيّناها للناظرين ، وحفظناها من كلّ شيطان رجيم ، إلاّ من استرق السَّمع فأتبعَهُ شِهابٌ مُبين ﴾ . الحَجْر / الآية (١٦ ـ ١٨) ـ الصفحة : ١٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس الأشعار

الهمزة :

الخُلفاء	١٧
الانقياء	١٧
قَباء	١٧
الأولياء	١٧
قُباء	١٧
حَياء	١٧
الأمراء	١٥٩
بدماء	١٥٩
الشَّقاء	١٦٠
عَناء	١٦٠
الهيجاء	١٦٠

الباء :

نيبُ	٣١
نَهَبُ	١٢٧
الغَلَبُ	١٤٢
مُرتَقِبُ	١٤٦
أنصابُ	١٤٨
اعجابُ	١٥١
محرابُ	١٥١
عَجَبُ	١٥٨
سَرَبُ	١٥٨
الحجابِ	٦٧
الذبابِ	٦٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكفاحِ ١٣٣
رَداحِ ١٣٣
الرماحِ ١٣٣
فَصيحْ ١٥٨
المسيحْ ١٥٨
ريحْ ١٥٩
الفَسيحْ ١٥٩
يستَريحْ ١٥٩
قَبيحْ ١٥٩
صَبيحْ ١٥٩

الدّال :

النجُدُ ٣٦
الزبَدُ ٣٦
زَبَدْ ٣٦
عَدَدُ ٣٦
الزرَدْ ١٢٦
النجُدُ ١٢٧
الوتَدُ ١٢٧
مدادُ ١٣١
أسودُ ١٤٩
وسادُ ١٥٧
جوادُ ١٥٧
سنهادُ ١٥٧
رقدُوا ١٢٧
حصدُوا ١٢٧
ردا ٨٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جَهرُ	١٦٠
إصْرِ	١٦٠
هجرُ	١٦١
المهرُ	١٦١
وبُكورُ	١٦١
تَعرو	١٣٥
رأروا	١٤٢
ذَكروا	١٥٠
النصرا	٧٠
زُهرا	٧٠
صُعرا	٧٠ ، ١٤٣
تدميرا	٨٨
سعيرا	٨٨
النَصرا	٨٩
قُبورا	١٣١
نُشورا	١٣١
يحمورا	١٣١
هَبرا	١٤٣
نذيرا	١٤٣
حُمْرا	١٤٤
اغبَرَا	١٤٤
السفَرا	١٤٥
نَشرا	١٤٥
ظُهرا	١٤٥
بصرى	١٤٥
الغُزرا	١٤٥
غُدرا	١٤٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَعرا	١٤٥
قَفرا	١٤٦
صَدرا	١٤٦
مُرّا	١٤٦
بِشرا	١٤٦
مُستنصِـرا	١٤٦
بِكرِ	١٨
الفكرِ	١٨
الثغرِ	١٨
الذعرِ	١٨
بالصحرِ	١٨
مُشـهّـرِ	٨٨
مُتَنَصِّـرِ	٨٨
عَسكرِ	٩٠
الأحترِ	١٣٥
مُؤزّرِ	١٣٥
مُعصِرِ	١٣٥
الأصفَرِ	١٤٥
المشعرِ	١٥١
معشِرِ	١٥١
مُدبرِ	١٥٢
مُبشِرِ	١٥٣
البكرِ	١٦٢
تَسرِي	١٨
الخَيبَرِي	٨٨
المياسِرِ	٤٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للحصارْ ١٣٠
القطارْ ١٣٠
كالسّوارْ ١٣٠
كنارْ ١٣٠

السّين :

الطّلسُ ١٤٢
تُلبسُ ١٤٣
يُهندسُ ١٤٣
الأبالِيسا ٣٧
الشّوسا ٣٧
دِعَيسا ٣٧
النواقيسا ٦٧
اليَبسا ٦٧
لحَسا ٦٧
نَخسا ١٣٦
الرَكسا ١٣٦
غَمَسا ١٤٢
الفَرَسا ١٤٧
طرابلسا ١٤٧
العسَسا ١٤٧
وَكْسا ١٤٧
النَفَسا ١٤٧
فَلسا ١٤٨
الفُرسا ١٤٨
الرمساْ ١٤٨
الأبالِيسا ١٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأسقفِ ٨٧
الموقفِ ٨٧
المتعرفِ ١٣١

اللاّم :

القَنابلُ ٣٥
زلازلُ ٣٥
سادلُ ٣٥
البواسلُ ٣٥
باسلُ ٤٧
الرواجلُ ٥٠
المقلُ ٦٨
شَلَلُ ٦٨
النجلُ ٦٨
شُعَلُ ٦٨
القُلَلُ ٦٨
هَطِلُ ٦٨
مَثَلُ ٦٨
الأزَلُ ٨٩
الأوَلُ ٨٩
ساحِلُ ١٢٩
الصياقلُ ١٢٩
حائِلُ ١٢٩
مناهلُ ١٤٣
قتيلُ ١٥٥
مخبولُ ١٥٥
يَزولُ ١٥٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أسطولُ	١٥٥
المسلولُ	١٥٥
حُفّلا	١٤١
الرجلِ	٤٣
البقلِ	٦٧
نَعْلِ	٦٧
تَلّ	٦٧
الفَشَلِ	٧٠
أسَلِ	٧٠
الوَحلِ	٧١
الشكلِ	٧١
رجِلِ	٧١
رَذلِ	٧٥
الأصلِ	٧٥
للرسلِ	٩١
بالحِيَلِ	١٢٨
قِبَلِ	١٢٨
الأزَلِ	١٢٨
مُكتملِ	١٣٢
الرسلِ	١٣٢
الأسَلِ	١٣٢
الإبلِ	١٣٢
الحَمَلِ	١٣٢
الأُصَلِ	١٣٢
البخلِ	١٣٢
مُندملِ	١٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العسَلِ ١٣٢
النجلِ ١٣٥
العَبلِ ١٣٥
السنلِ ١٣٧
المعضلِ ١٤٧
تُبللِ ١٤٧
الأولِ ١٤٧
المستقبلِ ١٤٧
القُبَلِ ١٦١
مُعتدلِ ١٦١
العَطَلِ ١٦١
محتفلِ ١٦١
المغالي ٧١
ولي ٩١ ، ١٥٦
خَلي ١٦١

الميم :

عَلمُ ١٧
تغتَنمُ ١٧
تُقدمُ ٢٨
القَشعمُ ٢٨
شائمُ ٣٧
دَعائِمُ ٣٧
مقاومُ ٣٨
جاذمُ ٣٨
المتلاطمُ ٧٩
قوادمُ ٧٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشكائمُ	٧٩
قوائمُ	٧٩
أشائمُ	٧٩
العدَمُ	١٣٣ ، ١٥٧
الخيمُ	١٣٣ ، ١٥٧
نهمُ	١٣٣
ـ رواجمُ	١٥٢
رجيمُ	١٥٣
رجموا	١٧ ، ١٥٢
انهزموا	١٣٣ ، ١٥٧
اغتنموا	١٥٧
الصُّمَّى	٨٧
طَمَا	٨٧
أدمى	٨٧
غُنما	٨٧
جَزما	٨٧
قِدما	١٤٩
الحازمِ	١٩
الهادمِ	١٩
ظالمِ	١٩
بالقائمِ	١٩
النواعمِ	٤٧
دائمِ	٤٧
الملازمِ	٤٧
نائمِ	٤٧
الحُطَمِ	٨٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القَطمِ	٨٦ ، ١٤٧
المتناومِ	٨٨
للمغانمِ	٨٨
هَذَمِ	٩٠
المتقدّمِ	٩٠
منجمِ	٩٠
أسهُمِ	٩٠
المخاصمِ	١٣٤
الجرائمِ	١٣٤
الفحمِ	١٥٦

النّون :

شَنّا	١٢٧
يَغنى	١٢٧
العرينا	١٣٢
أحسنّا	١٣٦
الإبنا	١٣٦
مِنّا	١٣٦
جِنّا	١٥٢
عيونا	١٥٣
الأمنا	١٥٦
جَنّا	١٥٦
عقبانِ	٣٧
الأثخانِ	٣٧
بغدانِ	٣٧
مرنانِ	٣٧
بِسفنِ	٧٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرحمنِ	٨٩
الشجعانِ	٨٩
طعنِ	٨٩
دُخانِ	١٢٧
الخرصانِ	١٢٧
كمينِ	١٢٨
بمرجعيونِ	١٢٨
رَهنِ	١٢٩
وَهنِ	١٢٩
سجنِ	١٢٩
الحدثانِ	١٣٠
البنيانِ	١٣٠
الجيشانِ	١٣٠
الأوطانِ	١٣٠
طِعانِ	١٣٩
عانِ	١٣٩
وُكونِ	١٤٠
طنينِ	١٤٠
الأجفانِ	١٤١
بتهانِ	١٥٣
جبانِ	١٥٦
المتداني	١٣٩
الثّاني	١٣٩
الكُرينْ	١٤٠
الأنينْ	١٤٢
الدّرينْ	١٤٦
الجَنينْ	١٥٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الهاء :

عقابهُ	٢٧
رقابهُ	٢٧
قرابهُ	٢٧
نصابهُ	٢٨
ذئابهُ	٢٨
شعابهُ	٢٨
جنابهُ	٢٨
صعابهُ	٢٨
انهدامهُ	١٣٠
أنساهُ	١٤٩
كسغزاهُ	١٤٩
حدادُهُ	١٦٠
قيادُهُ	١٦٠
سنادهُ	١٦٠
احضارها	٧١
سرارها	١٣١
تكرارها	١٣١
تلهفّنها	١٣٩
أسقُفنها	١٣٩
آجامُها	١٤٢
مسودُها	١٤٩
معيدُها	١٤٩
قَصيرُها	١٥٠
عَنانِها	٧٠
لمعانِها	٧٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس الأعلام

الهمزة :

آقسنقر : ١١

ابن الأثير (عز الدين) : ٣ ، ٤ ، ١١ ، ١٤ ، ١٦ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٦٩ ، ٨٣ ، ١٠٦ ، ١٦٣ .

ابن الأثير (ضياء الدين) : ٢٤

ابن اسرائيل : ١٥٨

ابن إياس : ٣٠

ابن بارزان : ١٢١

ابن بُصاقة : ٣٦ ، ١١٢

ابن تيسان : ١٥٠

ابن جُبير : ١٢٣

ابن جوسلين : ١٣ ، ١٥ ، ١٠٢

ابن دنينير : ٦٨ ، ١٣٣

ابن الدهّان : ٤٣ ، ٤٧ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٤١

ابن الذّروي : ٩٠

ابن رواحة الحموي : ٧٩ ، ١٢٩

ابن السّاعاتي : ٢٧ ، ٢٨ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٦١

ابن سعدان الحلبي : ١٣٢

ابن سناء الملك : ٤٢ ، ٤٣ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٣ ، ١٥٦

ابن شداد (بهاء الدين) : ٢ ، ٤ ، ٧ ، ٢١ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٦٢ ، ٧٥ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٤

ابن عساكر : ٨٧

ابن عنين : ٢٧ ، ٥٠ ، ٦٨ ، ٨٤ ، ١٣٦ ، ١٥٦

ابن قسيم الحموي : ١٥٣

ابن القلانسي : ٣ ، ١١ ، ١٠٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابن القيسراني : ١٦ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٨ ، ٨٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٥٢ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦٣

ابن قيم الجوزيّة : ٢

ابن المجاور : ١٣١

ابن مطروح : ١٥٨

ابن منكلي (محمّد) : ٢ ، ٦ ، ٧ ، ٣٨ ، ٦٢

ابن منير : ١٦ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٨٨ ، ١٣١ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٦٣

ابن النبيه : ٨٨

ابن النحّاس : ٧٤

أبو تمام : ١٤٨

أبو الجيش : ١٢٥

أبو شامة المقدسي : ٣٥ ، ٧٥

أبو نواس : ١٤٥

أرناط : ١١٨ ، ١٥٨

أسامة بن منقذ : ٣ ، ٧ ، ١١ ، ٣٤ ، ٤٣ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٧٩ ، ٩٦ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٦

استشينا : ١٢١

أسد الدين شيركوه : ٣٩ ، ١٤٧

الاسكندر : ١ ، ١٥٠

الأفضل (الملك) : ٣٩ ، ٤٢ ، ٦٨ ، ١١٩ ، ١٤٧

الأمجد (الملك) : ٢٧ ، ٢٨

أومان (شارلز) : ٢ ، ٣ ، ٤٠ ، ١٠٦

إياز الطويل : ٣٣ ، ٩٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الباء :

بادويل (بردويل ، بلدوين ، بغدوين) : ٣ ، ٩ ، ١٠ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١٣٤ ، ١٥٦
بختنصرّ : ١٤٩
بدر الدين دلدرم : ٣٣ ، ١١٩
برافر : ١٠٦
بهاء الدين زهير : ١٠٠ ، ١٣٦
بيمند : ٩ ، ١٥ ، ٥٨ ، ١٠٢

التّاء :

تاج الملوك الأيوبي : ١٢٦ ، ١٢٧
تاج الملوك بوري : ١٧ ، ١٥٢
تنكرد : ٧

الجيم :

الجوّاني : ١٥٠
جوسلين : ١١ ، ١٣ ، ١٠١ ، ١١٨

الحاء :

الحكيم الجلياني : ٨٧ ، ٨٨ ، ١٢٩ ، ١٣٤ ، ١٤٩ ، ١٥٨

الرّاء :

رستم : ١٥٠
الرشيد النابلسي : ٧٤ ، ٨٤ ، ١٤٢
رَفّول : ١٢٥
ريكاردوس (ريتشارد قلب الاسد) : ٣ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٤٥ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٩٧، ١٠٧، ١٠٨، ١١١، ١١٤، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٢٢
ريموند (الكونت) : ١٠٦ ، ١١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الزّاي :

الزبّاء : ١٥٠
زين الدين بن نجا : ٨٣

السّين :

سالم (أبو العلاء) : ١
سبط ابن التعاويذي : ١٢٨
سبط ابن الجوزي : ٣ ، ١١٣
سعاده الأعمى : ٣٦ ، ٦٨ ، ٧٠
سعيد الحلبي : ١٥٠
سميل (ر . سي) : ٢ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٢٨
سيف الاسلام (ملك اليمن) : ٣١ ، ٧٥

الشين :

شرف الدين الأنصاري : ١٣٤
شمس الملوك بن بوري : ١٠١

الصاد :

الصالح أيوب : ٢٦ ، ٢٧ ، ١٠٠
صلاح الدين الأيوبي : ٢ ، ١٠ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٦١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الطّاء :

طغتكين : ١٠
طلائع بن رُزّيك : ٣٧ ، ١٣٣ ، ١٤١

الظّاء :

الظّافر (الملك) : ٢٨ ، ٣٩
الظّاهر (الملك) : ١١٩

العين :

الملك العادل (أبو بكر) : ٢٥ ، ٤٥ ، ٦١ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ١٠٣ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٢
عبدالحميد الكاتب : ١
عبيدالله بن مروان بن محمد : ١
عثمان بن عفّان : ١٥٠
العرقلة الكلبي : ١٤٢
عـزالدين جورديك : ٣٣
علي بن أحمد المشطوب : ١١٩
علي بن أبي طالب . ١٥٠
علم الدين أيدَمُر : ٩١ . ١٥٦
العماد الأصفهاني : ٤ . ٥ . ١٦ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٦ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣
عماد الدين زنكي : ٦ . ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٧ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١٤٦ ، ١٥٣ ، ١٦٠ ، ١٦٣
عمارة اليمني : ٨٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عمر بن ابراهيم الانصاري : ٢
عمر بن الخطّاب : ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠
المعظمّ عيسى : ٢٥ ، ٢٦ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٣٦
عيسى العوّام : ٩٢
عيسى الهكّاري : ٣٩

الغين :

غودفري : ٧ ، ٥٨

الفاء :

فتيان الشاغوري : ٢٧ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٩٠ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٥ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣
فريدريك الأوّل : ٥٠
فريدريك الثاني : ٢٦
فوشيه الشارتري : ٣ ، ١٠٣
فيليب أغسطس : ٦٠

القاف :

القاضي الفاضل : ٥ ، ٢٤ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٢
قاياز النجمي : ٣٣
قصير بن سعد اللخمي : ١٥٠

الكاف :

الملك الكامل : ٢٥ ، ٢٦ ، ٨٣ ، ٨٥
كليام جيبا : ١٢٤
كي (Guy) : ١٠٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللام :

لويس التاسع : ١٠٠
ليون الحكيم : ١

الميم :

المأمون : ١
المتنبّي : ١٨
محيي الدين بن زكي : ٨٧
مرضي بن علي الطرسوسي : ٢ ، ٧٣
المركيس (صاحب صور) : ٢٠
مروان بن محمد : ١
الملك المظفّر (تقي الدين) : ٩٠ ، ١٣٤ ، ١٤٠
مظفّر الدين كوكُبوري : ٣٣
المعتصم : ١٤٩
معين الدين أنُر : ١٣ ، ١٤ ، ١٠٥ ، ١٢٤
المنصور (صاحب حمص) : ٢٧
مودود بن ألتونتكين : ١٠ ، ١١
موريقي : ١
موسى (النبيّ عليه السّلام) : ١٤٩
الأشرف موسى : ٢٥ ، ٣٧ ، ٨٨

النّون :

النّاصر داود : ٢٦ ، ٢٧
نصرة الدين (زنكي) : ١٠٤
نور الدين زنكي : ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٩ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٥ ، ١٦٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس الأماكن

الهمزة :

آمد : ١١٢ ، ١٥٠

الأثارب : ١٢

أرتاح : ١٤ ، ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١١٥

الأردن : ٦٠ ، ١٠٣

أرسوف : ٤ ، ٢٤ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٩٧ ، ١٠٧ ، ١٥٤

الاسكندرية : ٢٥ ، ٧٩ ، ١٠٨ ، ١١٥

أفامية : ١٣١ ، ١٤١ ، ١٥٥

أنطاكية : ٧ ، ١١ ، ١٥ ، ٨١ ، ٩٣ ، ١٠٢ ، ١٢٠ ، ١٤٧

أنطرطوس : ٢٣ ، ١٣١ ، ١٤٧

أنّب : ١٥٥

ايطاليا : ٢٦

أيلة : ١١٢ ، ١٤٥ ، ١٥٣

الباء :

بارين (حصن) : ٤ ، ١٢ ، ٦٩ ، ٨٣ ، ١١٥ ، ١١٦

الباره : ١٥٥

باسوطا (حصن) : ١٥٥

بانياس : ٨٥ ، ٩٤ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١٢٧

برج الذبّان : ٩٥

برج الرّصاص : ١٥٥

برزَيَة : ٨٣ ، ١١١

بَزاعة : ٢٧

البشاميّة : ١٤٥

بُصرى : ١٣ ، ١٠٥ ، ١٤٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بغداد : ٢٧ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١١٥ ، ١١٩

بلبيس : ٧٨

بيت الأحزان : ٧٢ ، ٨١ ، ٨٥ ، ١٠٩ ، ١١٣

بيت جبرين : ١٠ ، ٢٣

بيت لحم : ٧ ، ٨

بيروت : ٢٢ ، ٩٥ ، ١٠٩ ، ١٥٤

بيزا : ٥٣

بيسان : ٧ ، ١١ ، ١٤١

التّاء :

تُبنى : ١٤٥

تَبنين (حصن) : ٨٥ ، ١٣٠ ، ١٢٤ ، ١٥٤

تَلّ باشر : ١١ ، ١٥٥

تلّ خالد : ١٥٥

تلّ الزلزلة : ٤١

تلّ الصافي : ١٠

تلّ عزاز : ١٥٥

تلّ عمّار : ١٥٥

تلّ العيّاضيّة : ٢٣ ، ١٠٣

تَنّيس : ٨٢ ، ٨٥

الجيم :

جانين (جنين) : ٢٢

جبل طابور : ٨

جبلة : ٢٣ ، ١١٧

جراول : ١٤٦

الجزيرة : ٢٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجلاعب : ١٤٥
جلّق : ١٥٨
الجليل : ٨
جنوه : ٥٣

الحاء :

حَثا : ١٤٦
حَرّان : ١٠ ، ١٢ ، ٢٩
حسمى : ١٤٥
حصن الاكراد : ١٢٨ ، ١٣٧
حصن حارم : ١٢ ، ١٤ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١٦ ، ١٣١ ، ١٥٥
حصن راوندان : ١٥٥
حصن سلقين : ١٥٥
حصن شهرزور : ١٢
حطّين : ١١ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٨٢ ، ١٢٩ ، ١٥٨
حلب : ٨ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٢ ، ١٠٠ ، ١٦١
حماه : ٨ ، ١٢ ، ١٣٤
حمص : ٨ ، ١٢ ، ٢٢ ، ٢٧ ، ٨٤
حوران : ٤٦ ، ١٣٠
حيفا : ٧ ، ٤١ ، ١٠٧

الخاء :

الخرّوبة : ٤٥
الخليل : ٧

الدّال :

دارا : ٢٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدّاروم : ١١١
الدّارون : ٢٣
دلتا النّيل : ٩
دمشق : ٨ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥٩ ، ٦٦ ، ٨٨ ، ١٠٣ ، ١٢٠ ، ١٣٢ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٥٧
دمياط : ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٥٠ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٣ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٥٨
الدّناح : ١٤٥
ديار بكر : ٣٩ ، ١٠١

الرّاء :

رأس الجَشا : ١٤٥
رأس عين : ١٢
الرحبة : ١٢
الرقة : ١٢
الرملة : ٧ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٥٩ ، ١٣٢
الرها : ٨ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ٤٢ ، ١٠١ ، ١١٣ ، ١٣٠ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٦٠

السّين :

سرَفـود : ١٥٥
سنجار : ٢٩ ، ١١١
سورية : ١٠ ، ١١ ، ٦٠

الشين :

شبه جزيرة سيناء : ٩
الشّعراء : ٤١
الشّوبك : ١٠ ، ١١٧ ، ١٢٧
شيزر : ٢٩ ، ٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصّاد :

صرخد : ١٣
صفد : ٨ ، ١٠ ، ١٠٩
صفورية : ٢٢ ، ١٠٦
صقلية : ٢٦
الصّنبرة : ٥٩
صهيون : ١١١
صور : ٨ ، ١١ ، ١٣ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٩ ، ١٠٨ ، ١٤٧
صيدا : ١٠٩ ، ١٥٤

الطّاء :

طابور (جبل) : ٨
طبريّة : ٧ ، ٨ ، ١١ ، ٢٢ ، ٢٧ ، ٩٤ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦١ ، ١٦٢
طرابلس : ٨ ، ١٥ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١١٠ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٤٧
الطّور : ٣٧

العين :

عثليت : ١٠٧
العراق : ٢٤ ، ١٥٨
العريش : ١٢
عسقلان : ٨ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٨٥ ، ١٠٩ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٥٤
عكّا : ٨ ، ١١ ، ١٣ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٥٤
عمورية : ١٤٨ ، ١٤٩
عيون موسى : ١٤٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الغين :

غَزّة : ٢٣ ، ٢٧ ، ١٥٤

الفاء :

فرنسا : ٦٠

فلسطين : ١٠ ، ٦٠ ، ١٤٩

الفولة : ٢٢

القاف :

القدس : ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ٧٢ ، ٧٦ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ٩٨ ، ١٠٧ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٤

القَريتين : ١٤٥

قُلّة الراعي : ١٤٦

قلعة جَعبر : ١٣

قلعة النطرون : ٢١ ، ٢٣

قورص : ١٥٥

قيسارية : ٤١ ، ١٠٧

القيمون : ٢٨

الكاف :

الكرك : ١٠ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ١١١ ، ١١٧

الكسوة : ١٤٥

كفرلاتا : ١٥٥

كوكب : ٢٧ ، ٧٤

اللاّم :

اللاذقية : ٢٣ ، ١٠٠ ، ١١٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللد : ٧ ، ٢٠
لوبية : ١٤٩

الميم :

ماردين : ١١
مخاضة الاحزان : ١٥٣
المدينة المنورة : ١٢٢
مرج الصفر : ١٤٥
مرج عيون : ٤ ، ٤٥ ، ١٠٩ ، ١٢٨ ، ١٣٦
مصر : ٩ ، ١٤ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٥٤ ، ٥٩ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٩
المغرب : ٣١ ، ٥٠
مكّة : ١٢٢ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠
الملاّحة : ٤١ ، ٩٤
مَنبج : ٢٧
المنصورة : ٢٥ ، ٨٣
الموصل : ٨ ، ١٠ ، ١١ ، ٣٢ ، ٥٩ ، ٩٣ ، ١٠١

النّون :

نابع : ١٤٦
نابلس : ٢٢ ، ٢٧
النّاصرة : ٧ ، ١٠١

الياء :

يافا : ٧ ، ٢٦ ، ٨٥ ، ٩٨ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٣١ ، ١٥٤ ، ١٦٠
يُبنى : ١٠ ، ٢٣ ، ١٥٤
يَعرا : ١٣١
اليمن : ٢٢ ، ٣١ ، ٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مَسرَد المخطوطات والرسائل الجامعيّة

١ ـ ابن فضل الله العمري (٧٤٩ هـ) :

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تصوير عن المخطوطة رقم ٣٤٣٩ أيا صوفيا ، السفر السابع والعشرون ، إصدار فؤاد سزكين بالتعاون مع علاء الدين جوخوشا وايكهارد نويباور ، نُشر بمعهد تاريخ العربية والاسلامية فرانكفورت ، مطبعة شتراوس ـ هيرشبرج ـ ألمانيا الاتحاديّة (١٩٨٩) .

٢ ـ سبط ابن الجوزي ، شمس الدين يوسف (٦٥٥هـ) :

مرآة الزّمان في تاريخ الأعيان ، الجزء الثامن (٤٩٥ ـ ٦٥٤هـ) ، صورة عن المخطوط ، نظّمها وقدّم لها الدكتور جيمس جويت ، جامعة شيكاغو ـ الولايات المتحدة (١٩٠٧) .

٣ ـ سميرة سلامي :

عُمارة اليمني حياتُه وشعره ، رسالة ماجستير مقدّمة إلى جامعة دمشق (١٩٨٢) ، على الآلة الكاتبة .

٤ ـ عادل جابر صالح :

شعر ابن القيسراني (جمع وتحقيق ودراسة) ، رسالة دكتوراه مقدّمة إلى الجامعة الأردنية (١٩٨٧) على الآلة الكاتبة .

٥ ـ عبد القادر شريف ابو شريفة :

صورة الصليبيين في الأدب العربي ، رسالة ماجستير مقدّمة إلى الجامعة الاردنيّة (١٩٧٨) على الآلة الكاتبة .

٦ ـ العَيني ، محمود بن أحمد (٨٨٥هـ) :

عِقد الجُمان في تاريخ أهل الزمان ، صورة عن المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصريّة ، القاهرة ، رقم : ١٥٨٤ تاريخ ، ج ١٧ ـ ق ٧ .

٧ ـ محمود شاكر سعيد :

ديوان ابن دُنينير (تحقيق ودراسة) ، رسالة ماجستير مقدّمة إلى جامعة الأزهر (١٩٨١) على الآلة الكاتبة .

٨ ـ محمود عبد الله أبو الخير :

الشعر الشامي في مواجهة الصليبيين ، رسالة دكتوراه مقدمة إلى جامعة الأزهر (١٩٧٩) ، على الآلة الكاتبة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مَسرُد المصادر والمراجع العربيّة

١ ـ القرآن الكريم

ابن أبي أُصيبعة ، موفّق الدين أحمد بن القاسم (٦٦٨هـ) :

٢ ـ عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء ، شرحه وعلّق عليه : د . نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ـ بيروت (د.ت) .

ابن الأثير ، عزّ الدين (٦٣٠هـ) :

٣ ـ التاريخ الباهر في الدّولة الأتابكيّة ، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ، دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ، مكتبة المثنى ـ بغداد (١٩٦٣)

٤ ـ الكامل في التاريخ ، دار صادر ـ دار بيروت (بيروت ١٩٦٦)

ابن إياس ، محمد بن احمد الحنفّي (٩٣٠هـ)

٥ ـ بدائع الزّهور في وقائع الدّهور ، تحقيق : د . محمد مصطفى ، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ـ القاهرة (١٩٨٢) .

ابن تغري بَردي ، أبو المحاسن يوسف (٨٧٤هـ) :

٦ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة (د . ت) .

ابن جُبَير ، أبو الحسن محمد بن أحمد (٦١٤هـ) .

٧ ـ رحلة ابن جُبير ، دار مكتبة الهلال ـ بيروت (١٩٨١)

ابن خَلّكان ، أبو العبّاس شمس الدين أحمد بن محمد (٦٨١هـ) :

٨ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : د . احسان عبّاس ، دار صادر ـ بيروت (١٩٧٧) .

ابن دقماق ، ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي

٩ ـ الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، دار الآفاق ـ بيروت (د . ت)

ابن الدهّان ، مُهذّب الدين عبد الله بن اسعد الموصلي (٥٨١هـ) :

١٠ ـ ديوان ابن الدهّان ، تحقيق : عيد الله الجبّوري ، مطبعة المعارف ـ بغداد (١٩٦٨) .

ابن رشيق القيرواني ، أبو علي الحسن (٤٥٦هـ) :

١١ ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة ، القاهرة ، ط ٣(١٩٦٤) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابن السّاعاتي

١٢ ـ ديوان ابن السّاعاتي ، تحقيق : د . أنيس المقدسي ، الجامعة الأمريكيّة ـ بيروت (١٩٣٨)

ابن سناء الملك ، هبة الله بن جعفر بن محمد (٦٠٨هـ) :

١٣ ـ ديوان ابن سناء الملك ، اعتنى بتحقيقه : محمد ابراهيم نصر والدكتور حسين نصّار ، دار الكاتب العربي ، القاهرة (١٩٦٩)

ابن سِيدَة : عليّ بن اسماعيل (٤٥٨هـ) :

١٤ ـ المُخَصص ، دار الفكر ـ بيروت (د . ت) .

ابن شاهنشاه الأيّوبي ، محمد بن نقيّ الدّين عمر (٦١٧هـ) :

١٥ ـ مضمار الحقائق وسِرّ الخلائق ، تحقيق د . حسن حبشي ، عالم الكتب ـ القاهرة (١٩٦٨)

ابن شَدّاد ، بهاء الدّين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم (٦٣٢هـ) :

١٦ ـ النّوادر السلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة ، تحقيق : د . جمال الدين الشيّال ، الدار المصريّة للتأليف والترجمة ، القاهرة (١٩٦٤) .

ابن العماد الحنبلي ، أبو الفلاح عبد الحيّ (١٠٨٩هـ) :

١٧ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار الفكر ـ بيروت (د . ت)

ابن عُنين ، شرف الدّين محمد بن نصر (٦٣٠هـ) :

١٨ ـ ديوان ابن عُنين ، تحقيق : خليل مردم ، مطبعة دمشق (١٩٤٦) .

ابن الفُوَطي ، كمال الدّين أبو الفضل البغدادي (٧٢٣هـ) :

١٩ ـ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السّابعة (المنسوب لابن الفُوَطي) ، تحقيق : د . مصطفى جواد ، المكتبة العربية ـ بغداد (١ ٣٥١هـ) .

ابن قاضي شُهبة ، بدر الدّين (٧٧٤هـ) :

٢٠ ـ الكواكب الدّريّة في السّيرة النّوريّة ، تحقيق : د . محمود زايد ، دار الكتاب الجديد ـ بيروت (١٩٧١) .

ابن قُدامة ، مُوَفّق الدّين (٦٣٠هـ) :

٢١ ـ المُغني ، دار الكتاب العربي ـ بيروت (١٩٧٢) .

ابن القلانسي : أبو يَعلى حمزة بن أسد (٥٥٥هـ) :

٢٢ ـ ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق آمدروز (ليدن ـ بيروت) (١٩٠٨) .

ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق : د . سهيل زَكّار ، دار حسّان ـ دمشق (١٩٨٣) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابن قيّم الجوزيّة ، شمس الدين محمد بن أبي بكر (٧٥١هـ) :

٢٣ ـ الفـروسيّة ، سلسلة خزانة التراث ـ بغداد (١٩٨٧)

ابن منظور ، جمال الدّين محمّد بن مكرم (٧١١هـ) :

٢٤ ـ لسان العرب ، دار صادر ـ بيروت (د . ت) .

ابن منكَلي ، محمد بن محمود (٧٨٤هـ) :

٢٥ ـ الأدلّة الرّسميّة في التّعابي الحربيّة ، تحقيق : اللّواء الرّكن محمود شيت خطّاب . مطبوعات المجمع العلمي العراقي (١٩٨٨)

ابن مُنير ، أبو الحسين أحمد بن منير الطّرابلسي (٥٤٨هـ) :

٢٦ ـ ديوان ابن مُنير ، جمعه وقدّم له : د . عمر عبد السّلام تدمري ، دار الجيل ـ بيروت ومكتبه السّائح ـ طرابلس (١٩٨٦) .

ابن النّبّيه ، كمال الدّين علّي بن محمّد (٦١٩هـ)

٢٧ ـ ديوان ابن النّبيه : مطبعة عبد الغني أفندي فكري ـ القاهرة (١٢٨٠هـ)

ميكروفيلم محفوظ في قسم الوثائق في مكتبة الجامعة الأردنيّة تحت رقم (١٢٧) عن نسخة المكتبة الخالديّة بالقدس .

ابن النّديم ، محمد بن اسحق (٣٨٥هـ) :

٢٨ ـ الفهرست ، تحقيق : رضا تجدد ، طهران (١٩٧١)

الفهرست ، دار المعارف ـ بيروت (١٩٧٨)

ابن واصل الحموي ، جمال الدّين محمّد بن سالم (٦٩٧هـ) :

٢٩ ـ مُفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب ، (ج٢ ، ٣): تحقيق : د . جمال الدّين شيال ، دار العلم ـ القاهرة

مُفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب (ج ٤ ، ٥) تحقيق د . حسنين محمد ربيع ، مراجعة د . سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار الكتب ـ القاهرة (١٩٧٢ ، ١٩٧٧)

أبو شامة ، المقدسّي ، شهاب الدّين عبد الرحمن (٦٦٥هـ) :

٣٠ ـ كتاب الروضتين في أخبار الدّولتين : النوريّة والصّلاحيّة ، تحقيق : د . محمد حلمي محمد أحمد ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة (١٩٥٦)

كتاب الرّوضتين في أخبار الدّولتين : النوريّة والصّلاحيّة ، دار الجيل بيروت (د . ت) .

٣١ ـ تراجم الرجال القرنين السّادس والسّابع ـ الذّيل على الرّوضتين ، تصحيح محمد زاهد الكوثري ، ط ٢ ، دار الجيل ـ بيروت (١٩٧٤) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

د . احسان عبّاس :

٣٢ ـ تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الثقافة ـ بيروت ، ط ٤ (١٩٨٣)

٣٣ ـ عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، دار الشروق ـ عمّان (١٩٨٨) .

أسامة بن منقذ ، مؤيّد الدّولة (٥٨٤ هـ)

٣٤ ـ الاعتبار ، حَرّره : فيليب حِتّي ، مطبعة جامعة برنستون ـ الولايات المتحدة (١٩٣٠) وأعادت طبعه الدار المتّحدة للنشر ـ بيروت (١٩٨١) عن طبعة فيليب حِتّي .

٣٥ ـ ديوان أسامة بن منقذ ، تحقيق : د . أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد ، القاهرة (١٩٥٣) .

الأسعد بن مَمّاتي (٦٠٦ هـ)

٣٦ ـ قوانين الدّواوين ، تحقيق : د . عزيز سوريال ، مطبعة مصر (١٩٤٣) نسخة مصورّة .

الأنصاري ، عمر بن ابراهيم (. . .) :

٣٧ ـ تفريج الكروب في سياسة الحروب ، نشرته الجامعة الأمريكية ـ القاهرة (١٩٦١) .

البغدادي ، اسماعيل باشا (١٣٣٩ هـ) :

٣٨ ـ هديّة العارفين ، مكتبة المثنى ـ بغداد (١٩٥١) .

بهاء الدّين زهير ، أبو الفضل زهير بن محمّد (٦٥٦ هـ) :

٣٩ ـ ديوان بهاء الدّين زهير ، دار صادر ودار بيروت (١٩٦٤) .

تاج الملوك الأيوبي ، مجد الدّين بوري بن أيوب (٥٧٩ هـ) :

٤٠ ـ ديوان تاج الملوك الأيوبي ، تحقيق : د. محمد عبدالحميد سالم ، هَجَر للطباعة والنشر ـ القاهرة (١٩٨٨) .

جوزيف نسيم يوسف :

٤١ ـ هزيمة لويس التّاسع على ضفاف النّيل ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ـ القاهرة (١٩٦٣) .

حسن ابراهيم حسن :

٤٢ ـ تاريخ الاسلام السّياسي والدّيني والثقافي والاجتماعي ، مكتبة النهضة المصريّة ـ القاهرة (١٩٦٧) .

الذّهبي ، الحافظ شمس الدّين محمد بن أحمد (٧٤٨ هـ) :

٤٣ ـ العِبَر في خَبَر مَن غَبر ، تحقيق : د. صلاح الدّين المنجّد ، مطبعة حكومة الكويت (١٩٦٣) .

سبط ابن التّعاويذي ، أبو الفتح محمد بن عُبيد الله (٥٨٣ هـ) :

٤٤ ـ ديوان سبط ابن التعاويذي ، اعتنى بنسخه وتصحيحه : د. س . مرجليوث ، دار صادر ـ بيروت (١٩٦٧) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السيوطي ، جلال الدّين عبد الرّحمن (٩١١هـ) :

٤٥ ـ بُغية الوعاة في طبقات اللغويين والنّحاة ، تحقيق : د . محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار الفكر ـ بيروت ط ٢ (١٩٧٩) .

الشاغوري ،فتيان بن علي الأسدي (٦١٥هـ) :

٤٦ ـ ديوان فتيان الشاغوري ، تحقيق : أحمد الجندي ، المطبعة الهاشمية ـ دمشق (١٩٧٦) .

شرف الدين الانصاري ، عبد العزيز بن محمّد (٦٦٢هـ) :

٤٧ ـ ديوان الصّاحب شرف الدّين الأنصاري ، تحقيق : د . عمر موسى باشا ، المطبعة الهاشمية ـ دمشق (١٩٦٧) .

الصّفدي ، صلاح الدّين خليل بن أيبك (٧٦٤هـ) :

٤٨ ـ الوافي بالوفيات ، اعتناء : س . ديدرينغ ، دار صادر ـ بيروت (١٩٧٠) .

الطرسوسي ، مرضي بن علي (٥٨٩هـ) :

٤٩ ـ تبصرة أرباب الألباب ، حقّقه كلود كاهين ، ،نُشر في مجلة :

Bulletin all Etudes Orientals , XII , Beyrouth 1947 - 1948 .

طلائع بن رُزّيك ، أبو الغارات (٥٥٦هـ) :

٥٠ ـ ديوان طلائع بن رُزّيك ، جمعه : محمد هادي الأميني ، النجف (١٩٦٤) .

علم الدّين أيدمر المحيوي (بعد ٦٥٠هـ) :

٥١ ـ مختار ديوان علم الدّين أيدمر ، دار الكتب المصرية بالقاهرة (١٩٣١) نسخة مصورّة .

العماد الأصفهاني ، محمد بن محمّد بن حامد (٥٩٧هـ) :

٥٢ ـ البرق الشّامي ج٣ ، تحقيق : د . مصطفى الحياري، مؤسسة عبد الحميد شومان، عَمّان (١٩٨٧).

البرق الشامي ج٥ ، تحقيق: د. فالح صالح حسين ، مؤسسة عبد الحميد شومان ـ عَمّان (١٩٨٧).

٥٣ ـ خريدة القصر وجريدة العصر / قسم شعراء الشام ج١ / تحقيق : د شكري فيصل ، المطبعة الهاشمية ـ دمشق (١٩٥٥) .

خريدة القصر وجريدة العصر / بداية قسم شعراء الشام ـ شعراء دمشق والشعراء الأمراء من بني أيّوب / تحقيق : د . شكري فيصل ، المطبعة الهاشمية ، دمشق (١٩٦٨) .

٥٤ ـ ديوان عماد الدين الأصفهاني ، جمع وتحقيق : د . ناظم رشيد ، مطابع جامعة الموصل (١٩٨٣) .

٥٥ ـ سَنا البرق الشّامي ، تحقيق : د . رمضان ششن ، بيروت (١٩٧١) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥٦ـ الفتح القُسّي في الفتح القدسي ، تحقيق : محمد محمود صبح ، الدار القوميّة للطّباعة والنشر ، القاهرة (د . ت) .

عمر رضا كحّالة :

٥٧ ـ معجم المؤلفين ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (١٩٥٧)

الفيروزاباذي ، مجد الدّين (٨١٧ هـ) :

٥٨ ـ القاموس المحيط ، دار المأمون ـ القاهرة ـ ط٤ (١٩٣٨)

القاضي الفاضل ، عبد الرحيم بن علي العسقلاني البيساني (٥٩٦هـ) :

٥٩ ـ ديوان القاضي الفاضل ، تحقيق : أحمد احمد بدوي ، دار المعرفة ـ القاهرة (١٩٦١) .

القلقشندي ، أبو العبّاس أحمد بن علي (٨٢١هـ) :

٦٠ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، شرح وتعليق : محمد حسين شمس الدّين ، دار الفكر ـ بيروت (١٩٨٧) .

الكُتبي ، محمد بن شاكر (٧٦٤هـ) :

٦١ ـ فوات الوفيات ، تحقيق : د . احسان عبّاس ، دار صادر ـ بيروت (١٩٧٣) .

كوركيس عَوّاد :

٦٢ ـ مصادر التراث العسكري عند العرب ١ ـ ٣ ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي بغداد (١٩٨١ ـ ١٩٨٢) .

محمد قنديل البقلي :

٦٣ ـ التعريف بمصطلحات صُبح الأعشى ، القاهرة (١٩٨٣)

محمد كرد علي :

٦٤ ـ رسائل البُلغاء (جمع وتحقيق) ، القاهرة (١٩٤٦) .

محمود شيت خَطّاب :

٦٥ ـ العسكريّة العربية الاسلاميّة ، سلسلة كتاب الأمّة ، الدّوحة (١٤٠٣هـ) .

محي الدّين بن عبد الظّاهر ، عبد الله (٦٩٢هـ) :

٦٦ ـ الدرّ النظيم من ترسل عبد الرحيم (اختيار ابن عبد الظّاهر) ، تحقيق : د أحمد أحمد بدوي ، مكتبة نهضة مصر ـ القاهرة (د . ت) .

المقريزي ، تقيّ الدّين أبو العبّاس أحمد بن علي (٨٤٥ هـ) :

٦٧ ـ كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، دار صادر ـ بيروت (د . ت) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المنذري ، زكيّ الدّين عبدالعظيم بن عبدالقوي (٦٥٦ هـ) :

٦٨ ـ التكملة لوفيات النقَلة ، تحقيق : د. بشار عواد معروف ، ط٢ ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت (١٩٨١).

نعمان ثابت :

٦٩ ـ العسكريّة في عهد العبّاسيّين ، قدّم له وعلّق عليه : اللّواء الركن حامد أحمد الوَرد ، مديريّة المطابع العسكريّة ـ بغداد (١٩٨٧) .

النوَيري ، محمد بن قاسم (بعد سنة ٧٧٥ هـ) :

٧٠ ـ الالمام بالإعلام فيما جَرت به الأحكام ، والأمور المقضيّة في وقعة الاسكندريّة ، بدأ بتحقيقة د. إيتين كوبب ، وأتمّه د. عزيز سوريال عطيّة ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد (١٩٦٨) .

الهرثمي الشّعراني (كان معاصراً للخليفة العباسّي المأمون) :

٧١ ـ مختصر سياسة الحروب ، حقّقهُ : عبد الرؤوف عون ، وراجعه د. محمد مصطفى زيادة ، القاهرة (د . ت) .

الوَطواط ، أبو اسحق برهان الدّين الكُتبي (٧١٨ هـ) :

٧٢ ـ غُرَر الخصائص الواضحة ، وعُرَر النّقائص الفاضحة ، دار صَعب ـ بيروت (د . ت) .

ياقوت الحموي (٦٢٦ هـ) :

٧٣ ـ معجم الأدباء ، دار احياء التراث العربي ـ بيروت (د . ت) .

٧٤ ـ معجم البلدان ، دار احياء التراث العربي ـ بيروت (د . ت) .

★★★

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مسرد المصادر والمراجع الاجنبية

1 - Encyclopaedea of Islam, 2nd'ed . (E 12) Vol, III .

2 - Gibb, Sir Hamilton . A.R, The Aiyubids in a History of the Crusades, ed . by : K.M. Setton, The University of Wisconsin - press (1969) .

3 - Gibb , Saladin, Beirut (1974) .

4 - Grousset, Rene . The Epic of the Crusades , New York (1970) .

5 - Hitti, Philip, History of the Arabs, Macmillan - and Co. London (1937) .

6 - Mayer , H.E. The Crusades, Oxford University - press (1988) .

7 - Mayer, H.E. The Crusades, translated by : John Gillingham, Oxford University - London (1972) .

8 - Oldenburg, Zoe , The Crusades, Trans - Anne Carter, pantheon books - New York (1966) .

9 - Oman , Sir Charles , A History of the Art of War - in the Middle Ages - 2nd ed. 2 Vols . London (1924) .

10 - Prawer, J. Crusader Insitutions , Oxford University press (1980) .

11 - Reigne pernaud, The Crusaders, Translated by : Enid Grant, Oliver and Boyd, Edinburgh and London (1963) .

12 - Riley - Smith , J. The Fendal Nobility and the Kingdom of Jerusalem , Macmilan (1973) .

13 - Sterns, I - The Teutonic Knights in the Crusader States - in the History of the Crusades , (K.M. Stern, G.ed) .

14 - Smail, R.C. Crusading Warfare - 1093 - 1193 , Cambridge - University Press (1956) .

15 - William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea, New York (1976) .

16 - Wise, Terence , The Wars of the Crusades, London (1978) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مسرد المراجع المترجمة

١ ـ دوزي ، رينهارت :

تكملة المعاجم العربيّة (الاجزاء ١ ـ ٦) ترجمة : د. محمد سليم النعيمي ، دار الشؤون الثقافية العامة ودار الرشيد ـ بغداد (١٩٨٢ ـ ١٩٨٤) .

٢ ـ زابوروف ، ميخائيل :

الصّليبيون في الشرّق ، ترجمة : الياس شاهين ، دار التقدّم موسكو (١٩٨٦) .

٣ ـ سميث ، جوناثان :

الاستبتارية (فرسان القدّيس يوحَنّا في بيت المقدس وقبرص) . ترجمة : العميد الركن صبحي الجابي ، طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق (١٩٨٩) .

٤ ـ سميل ، ر . سي :

فنّ الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر ، ترجمة : محمد وليد الجلاّد ، دار طلاس ـ دمشق (١٩٨٥) .

٥ ـ الشارتري ، فوشيه :

تاريخ الحملة إلى القدس ، ترجمة : د. زياد العسلي ، دار الشروق عمّان (١٩٩٠) .

٦ ـ مولّر ، فولفغانغ :

القلاع أيّام الحروب الصّليبيّة ، ترجمة : محمد وليد الجلاّد ، دار الفكر ـ دمشق (١٩٨٤) .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس الموضوعات

١ ـ تمهيد في مصادر هذه الدراسة ١

٢ ـ مقدمة في المراحل التاريخية من زاوية الفن الحربي منذ بداية الغزو الصليبي حتى نهاية الدولة الأيّوبيّة ٦

الفصل الأوّل : العسكر الاسلامي في عهد الزنكيين والأيوبيين ٢٩

١ ـ استدعاء العسكر ٢٩

٢ ـ طلب النجدة ٣١

٣ ـ عناصر العسكر الاسلامي ٣٢

٤ ـ كثافة العسكر الاسلامي ٣٥

٥ ـ تعبئة العسكر الاسلامي ٣٨

٦ ـ قائد العسكر ومجلس الشورى الحربي ٤٣

الفصل الثاني : الجيش الصّليبي في عهد الزنكيين والأيوبيين ٤٩

١ ـ استنفار المحاربين ٤٩

٢ ـ عناصر الجيش الصليبي ٥١

٣ ـ تعبئة الجيش الصليبي ٥٦

٤ ـ قائد الجيش ومجلس الشورى الحربي عند الصليبيين ٥٨

الفصل الثالث : الاسلحة والادوات الحربية عند المسلمين والصليبيين ٦٤

١ ـ أسلحة القتال الميداني ٦٤

٢ ـ الخيل في الحرب الميدانية ٦٩

٣ ـ أسلحة الحصار : ٧٢

أ ـ القوس والنبال ٧٢

ب ـ المنجنيق والدّبابة ٧٣

٤ ـ أسلحة الحرب البحريّة : الأسطول وتوابعه ٧٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥ ـ أسلحة الحصار الدفاعيّة : ٧٩
أ ـ الطّوارق ٧٩
ب ـ الجفاتي ٨٠
٦ ـ الحصون والقلاع أدوات هجوم ودفاع ٨٠
٧ ـ أسلحة غير ماديّة ٨٦
٨ ـ جهاز الاتصالات والخدمات في الحرب بين المسلمين والصليبيين ٩١
(أ) عناصر بشرية للخدمات والاتصالات ٩١
(ب) الحمام الهوادي ٩٤
(جـ) دوابّ الحمل وأدواته ٩٤

الفصل الرابع : الخطط الحربية وأنواع المعارك عند المسلمين والصليبيين ٩٦
١ ـ تأمّلات عامّة في طبيعة الموضوع ٩٦
٢ ـ مقدّمات المعركة ٩٧
٣ ـ أساليب في التخطيط الحربي لدى المسلمين والصليبيين ٩٩
أ ـ التنكر لتسهيل الدخول في صفوف الأعداء ٩٩
ب ـ الأخذ على غرّة ٩٩
جـ ـ المواجهة العامدة (التهديد والوعيد) ١٠٠
د ـ التضليل بتغيير الهدف ١٠١
هـ ـ الايهام بالانهزام أو التراجع الصوري ١٠٢
و ـ العمل على جبهتين ١٠٢
ز ـ الكمين ١٠٢
ح ـ متى يترجّل الخيّالة الرّماة ١٠٤
٤ ـ أنواع المعارك : ١٠٥
(أ) المعركة في اثناء الزحف ١٠٥
(ب) المعركة البحرية ١٠٨
(جـ) المعارك الميدانية الالتحامية ١٠٩
٥ ـ فنون الحصار البري والبحري ١١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦ ـ الترتيبات الدفاعية ١١٣
٧ ـ نهاية المعركة ١١٤
٨ ـ ما بعد المعركة : ١١٤
أ ـ معاهدات الصّلح ١١٥
ب ـ الأسرى والسّبايا ١٢٠

الفصل الخامس : صورة المعركة ونتائجها في الأدب مع التركيز على أهم المعالم الفنيّة في أدب الحرب ١٢٦

١ ـ صورة المعركة في الأدب : ١٢٦
١) غبار المعركة ١٢٦
٢) الغارة ١٢٧
٣) الكمائن ١٢٨
٤) الاحاطة بالعدوّ ١٢٨
٥) اقامة سد بشريّ ١٢٩
٦) مشاغلة العدوّ ١٢٩
٧) حصار المدن ١٣٠
٢ ـ صورة نتائج المعركة في الادب : ١٣١
١) النّصر ١٣١
٢) الهزيمة ١٣٢
٣) اتفاقيات الصّلح والمهادنة ١٣٣
٤) الأسرى ١٣٤
٣ ـ أهم المعالم الفنية في أدب الحرب : ١٣٧
١) رسم حدود هذه الدراسة الفنية ١٣٧
٢) دور العماد الاصفهاني في إشاعة بعض المعالم الفنيّة في أدب الحرب : ١٣٩
(أ) اشتقاق الجناس من أسماء الفرنجة ١٣٩
(ب) تطلّب الصّورة مهما يبعد مطلبها ١٤٠
(جـ) العماد الأصفهاني والألوان ١٤٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(د) قصة الرحلة العمادية بين الشام ومصر ومغزاها الفنّي ... ١٤٥
(هـ) التدرّج في الغاية ... ١٤٦
٣) معالم فنيّة عامّة : ... ١٤٨
أ ـ الربط بين الماضي والحاضر ... ١٤٨
ب ـ صور مكرورة ... ١٥١
جـ ـ الوضع النفسي للمنتصر ... ١٥٣
د ـ الوضع النفسي للمنهزم ... ١٥٥
هـ ـ السخرية بالمنهزم ... ١٥٧
و ـ صورة المدينة المفتوحة أو العصيّة على الفتح ... ١٦٠

الخاتمة ... ١٦٣

تعريف بالأعلام ... ١٧١

ملحق رقم (١) :
معجم الألفاظ الأعجمية التي عرّبت في هذا العصر ... ١٨٠
هوامش معجم الألفاظ ... ١٨٣

ملحق رقم (٢) :
تجربة أوّليّة في العروض والقافية ... ١٨٥

الفهارس العامّة ... ١٨٦

❊ ❊ ❊

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Abstract

This study deals with the art of war in the Literature of the Zankids and the Ayyoubids .

It consists of five chapters, an introduction and a preface . In the introduction, the writer reviewed the sources of the study . In the preface the salient historical episodes of this period were exposed and discussed, especially those related to warfare .

The writer found out that history and literature of those times were interrelated in the attempt of delineating the warfare of the period . He was encouraged in this respect by the specia trait of the historians of the period, in which history intermingled with literature . In one case at least, the demarcation line between history and literature totally disappeared . This was the historical - literary compilation of Al-Imad Al-Asphahani .

In the first chapter the study dealt with the Moslem army in the times of the Zankids and the Ayyoubids . It discussed the calling of troops , requests for reinforcements and the multitudes of races in the army .It also spoke of the kinds of the elements of the army : regulars and non-regulars, the mobilization of the army , the role of the leader and the consultations which were essential in the performance of Moslem leadership .

In the second chapter, the study dealt with the army of the Crusaders, It discussed its methods in mobilization. its elements, the role of the Frankish leadership and its policy in the planning of war .

In the third chapter , the writer discussed the types of weapons used by the Moslems and their adversaries . The chapter revealed the evolution of warfare in respect of weapons, especially those used in sieges .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

The Fourth chapter discussed the military plans of those times . These included disguises, misleadings, engaging the enemy on two fronts as well as ambushes . In this chapter too, the types of battles were dealt with. These included engaging the enemy during its march, naval battles , field face - to - face battles as well as siege battles on land or by sea . In this chapter something was written regarding the outcome of battles including the slain and the captives and the consequent truces and agreements .

In the last and fifth chapter, the deliveations of battles as reflected in the Arabic literature of the time, and the artistic features of this literarture were discussed and scrutinized .

٤١٦٦٥٠

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit